(أقرت وزارة المعارف استعمال هذا الكتاب في الدراسة المتوسطة)

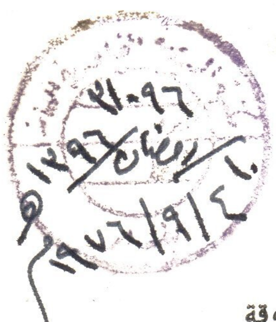
تاريخ العرب

للصفوف الثانية المتوسطة

تاليف

عبدالعزيز الدوري
مصطفى جواد

خالد الهاشمي
ناجي معروف



الطبعة الخامسة

١٣٧٤ هـ — مطبعة العاني ـ بغداد — ١٩٥٥ م

المقدمة

لقد أردنا بهذا الكتاب ، توضيح تأريخ الامة العربية ، وتطورها في أدواره المختلفة من حيث كونه تاريخاً يكون سلسلة متصلة الحلقات • في تطور مستمر لا انقطاع فيه قبل الاسلام وبعده برغم تبدل أسره الحاكمة وبرغم ما اعتوره من غزو أجنبي ودخول عناصر غريبة فيه •

ولقد أكدنا القول في نواحيه الحيوية وهي نواحي الحضارة والمدنية لأنها نتاج الحياة على تشعبها في الامة وهي خير ما يعبر عن شخصيتها ، ويظهر مواطن القوة والضعف فيها ، ويساعد على تفهم الامة العربية في ماضيها وحاضرها •

ولم نهمل ذكر الحروب والمعارك بل أوجزناها لأنها مظهر من مظاهر تأريخ العرب وكانت لها أهمية عظيمة في دور الفتوحات في العصرين الراشدي والاموي •

ولم نقتصر على ذكر الحوادث التي هي مظاهر لتطور التاريخ بل حاولنا معرفتها وربطها ببعضها ببعض وبيان أسبابها ونتائجها ومعرفة ما وراءها من اتجاهات وتيارات وقوى خفية أو ظاهرة لنرسم بذلك للامة العربية صورة حقيقية على قدر الامكان ونعرضها بشكلها الاصلي •

وقد قسمنا الكتاب على أبواب وفصول وقسمنا الفصول على مباحث صغيرة لكل منها عنوان وحاولنا الكتابة بأسلوب ميسور الفهم وشرحنا شيئاً من الاصطلاحات التأريخية ورفعنا مستوى الكتاب العلمي • ومع ذلك كله ننتظر من المعلمين الاكثار من الامثلة وشرح ما قد يستعصى فهمه على الطلاب • ثم اننا نحثهم على أن لا يشجعوهم على الحفظ الحرفي للكتاب لان ذلك يقتل فيهم قابلية البحث

والتحليل • وانما نرجو أن تنمى فيهم قابلية التفكير الصحيح بالاكثار من المناقشة ، ويشجعوا على الاستنتاج الشخصي ويحضوا على الرجوع الى الاسئلة فى آخر كل فصل• ونأمل منهم ألا يهملوا وسائل الايضاح من خرائط وصور ومخططات ، عدا ما في هذا الكتاب ، ويزوروا المتاحف والأماكن الاثرية • وقد اجتهدنا أن لا نذكر الا المهم من الاسماء والسنين لفهم مجرى الحوادث وتسلسلها آملين ان لا يحفظ منها الطلاب الا الأهم والضروري فقط •

ثم اننا نطلب الى المدرسين ان لا يكتفوا بهذا الكتاب وعليهم ان يتزودوا مما في الكتب الاخرى ، ليتمكنوا من التصرف في مادة الدرس كيفما يشاؤون • ولتحقيق هذا الغرض ذكرنا لهم جملة من المراجع العامة ، والمراجع الخاصة لكل فصل ، في آخر هذا الكتاب •

ونرجو ان لا يظهروا التاريخ كأنه شيء مجرد انقضى ومات بل يلزمهم وصل الماضي بالحاضر وان يدققوا النظر في أقوالهم وآرائهم تحقيقاً لتنمية مدارك الطلبة ولتنشئة جيل يحسنون التفكير ويعنيهم تراثه ويقدرونه حق قدره ويدركون أثره في سير أمتنا الحاضرة •

هذا ونرجو أيضاً أن نكون قد قمنا ببعض ما يقتضيه العلم والحاجة والخدمة والتوجيه •

المؤلفون

الى اول الدور المكي

الباب الأول

العرب قبل الاسلام

تمهيد — اننا نرمي من دراستنا تأريخ الامة العربية الى فهم أمرين :

أحدهما ـ أنه كان للعرب منذ أقدم الازمنة كيان سياسي ، يتمثل في دول عظيمة ذات قوانين ونظم وسيادة ، ونحن جديرون أن نتفهم نشوءها وندرك نماءها وتدهورها . ولم يكن العرب ، كما يدعى جماعة . قبائل متخاصمة لا رابطة تربطهم بعضهم ببعض ولا دولة تجمعهم .

والآخر ـ أنه كان للعرب حضارة عربية ، ابتكرها العقل العربي . ثم نمت وازدهرت خلال العصور المختلفة قبل الاسلام وبعده . وقد تغذت هذه الحضارة من نتاج الشعوب الاخرى ولكنها حافظت على شخصيتها واستطاعت أن تستوعب ما اقتبسته وأن تمثله . وأن تطبعه كله بالطابع العربي . وكان لهذه الحضارة أبعد أثر في شعوب الشرق الادنى والاوسط أولا ، ثم في نماء الحضارة الغربية فيما بعد .

ولنبدأ ببلاد العرب قبل الاسلام ، ثم نتدرج في مختلف مراحل التأريخ العربي حتى سقوط بغداد في الشرق ، وحتى خروج العرب من الاندلس في الغرب .

بلاد العرب

ان الجزيرة العربية هي أرض العرب وهي منبع الأمة العربية ، ترتفع في الغرب ، ويقل ارتفاعها نحو الشرق • ولذلك كانت أكثر الجبال في الغرب • على أن في عمان في الجنوب الشرقي منها عدة جبال • وليس في الجزيرة العربية أنهار جارية بل أودية تجري وتتسع في مواسم المطر وتجف في المواسم الاخرى • والجزء الاكبر من الجزيرة صحراء ، وهي اما صحراء رملية تكون منها الرمال تلالا عالية فتسمى (النفوذ) كما في شمالي الجزيرة ، وأما سهل تغطيه الحصا والرمال ويكون قاحلا ، ويمكن حفر آبار فيه ويسمى (الدهناء) ، وهذه تشمل القسم الاوسط الجنوبي من نجد الى حضرموت ومن عمان الى اليمن • وفيها الربع الخالي • وتمتد الصحراء الى شمالي النفوذ فتفصل العراق عن سورية وتدعى بادية الشام ومنها تنفذ القبائل الى الهلال الخصيب • وفي الجزيرة حرار ، بعضها خصيب ، وهي من صخور بركانية منتشرة بصورة خاصة في غربي الجزيرة •

وفي وسط الجزيرة هضاب نجد • وفي الحجاز سلسلتان الاولى ممتدة بموازاة الساحل والثانية أعلى منها الى الداخل • وبينهما القرى والمدن ، وبينهما أيضاً تسير الطريق التجارية المشهورة بين اليمن والشام •

فأما جنوبي الجزيرة ففيه أودية وسفوح خصيبة ، سكانها متعودون لركوب البحر •

ويدخل الباحثون شبه جزيرة سينا ضمن بلاد العرب كما أنهم يعدون الصحراء الواقعة بين النيل والبحر الاحمر جزءاً

من الجزيرة العربية فقد طالما نفذ العرب في أدوار التأريخ الى هذا الجزء من مصر • ويذهب جماعة الى عد بعض الارضين شرقي الفرات وعدة مدن من مصر السفلى عربية •

الشعوب السامية

هذه الجزيرة كانت مهد الشعوب السامية التي يكون العرب أحدها ، ومنها هاجروا الى الهلال الخصيب ومصر وشمالي افريقية • ويرى جماعة من الباحثين أن جزيرة العرب هي بلاد الاقوام العربية ولا يوجد أناس في الجزيرة غير عرب ، اذا استثنينا سلائل الاقوام الفاتحة والمهاجرين من أوربة وآسية والعبيد المجلوبين من افريقية ، وهؤلاء أثرهم لا يستحق الذكر فالبابليون والآشوريون والعبرانيون القدماء والآراميون كانوا جميعاً عرباً وتأريخهم يكون جزءاً من تأريخ الاقوام العربية •

الموجات السامية « الطوالع »

وقد كان جفاف الجزيرة وسرعة تناسل سكانها • وخصب الهلال الخصيب ومصر بواعث على هجرة الاقوام السامية الى المناطق الخصبة ، خصوصاً أن الجزيرة يحيط بها البحر من الجهات الثلاث المعروفة ، فلم يبق الا الجهة الشمالية • وتتكون هذه الجهة من بادية على طرفيها طريقان أحدهما يتجه نحو الشمال الغربي ويفضي الى سورية ومصر •

وكانت هذه الهجرات على شكل طوالع « موجات » في فترات تبلغ كل واحدة منها زهاء ألف سنة ، ولعلها كانت تبدأ بالتدريج ثم تنتهي بترحيل جماعات وقبائل كبيرة • وكان عدد الطوالع السامية خمساً أولاها حوالي ٣٥٠٠ ق٠م حين هاجر

جماعات من الساميين الى ما بين النهرين • فاختلطوا بسكانه وأنشؤوا حضارة العراق القديمة ، وآخرها كانت طالعة العرب الكبرى التي بدأت بشكل هجرة بطيئة في القرن الثاني للميلاد ثم طغت زمن الفتح العربى فغمرت الهلال الخصيب ومصر وشمالي افريقية وانتشرت بين أواسط آسية شرقا والأندلس غرباً •

العرب ولغتهم

والشعب العربي يمثل أقدم الشعوب السامية وأنقاها لانعزاله في جزيرته وتعلقه بتراثه ، هذا الى أنه لم ينجح أحد من الغزاة في دخول الجزيرة ، ومع أن اللغة العربية الحالية هي أحدث اللغات السامية ، فهي أكثرها محافظة على الاصول السامية • ويعدها الباحثون الطريق الذي ينفذ منه الى الامور المستعصية في اللغات السامية •

حضارتهم في الآثار

وقد دلت الكشوف في الجزيرة على وجود حضارة عربية فيها واغلة في القدم وعلى ان العرب كونوا لهم كياناً سياسياً • وانشؤوا الدول منذ الالف الثاني قبل الميلاد ، وأن كيانهم السياسي بدأ في جنوب الجزيرة ، فهناك أسسوا دولتهم الاولى ، ثم كونوا لهم دولا في شمالي الجزيرة ووسطها ، وأخيراً انتقل بالاسلام المركز السياسي الى الغرب ثم الى الشمال ، وعلينا أن نلاحظ ان مراكز الحضارة والسياسة كانت في العادة على أطراف الجزيرة الصالحة للاستقرار في حين أن الصحراء بقيت مقر معيشة بدوية •

ادوار تاريخ العرب

ولعل تأريخ العرب ينقسم الى دورين كبيرين ، الدور الجاهلي وهو الذي سبق ظهور الاسلام ، والدور الاسلامي ويبدأ بظهور الرسول (ص) ويمتد مع بقاء الاسلام • أما في الدور

الجاهلي فيمر تاريخ العرب بمرحلتين : مرحلة مملوءة من الاساطير وهي عن (العرب البائدة) التي انطمس أثرها ولم يبق عنها شيء غير القصص واشارات في القرآن . ومن قبائل العرب البائدة عاد وثمود وطسم وجديس . ثم مرحلة نعرف تاريخها وهي عن (العرب الباقية) التي ينتمي اليها عرب اليوم . وقد اعتاد الباحثون ان يقسموا العرب الى عدنانيين أي عرب الشمال وقحطانيين أي عرب الجنوب .

وهذا التقسيم الى شماليين وجنوبيين لا يستند الى أساس عنصري ، بل الى ظروف زمانية ومكانية ادت الى فروق في اللهجة والثقافة . وكانت قوة هذا التقسيم في العصر الاسلامي لسبب سياسي هو التنازع على السلطة .

ولننظر الآن الى التاريخ السياسي . قال أبن خلدون في العرب « قد يجهل الكثير منهم انهم كان لهم ملك في القديم وما كان لأحد من الخليقة ما كان لاجيالهم من الملك . ودول عاد وثمود والعمالقة وحمير والتبابعة شاهدة بذلك » .

دول الجنوب

وقد ايدت الكشوف الاثرية رأي ابن خلدون الى حد كبير ومن هذا نفهم أنه كان للعرب في الجنوب أربع دول متحضرة ، في الاقل ، وهي معين وسبأ وحضرموت وقتبان .

دولة معين

والراجح ان دولة معين أقدم دولة في الجنوب ، وانها كانت بين القرن (١٣ ـ ١٥) والقرن السابع ق.م . ويرى بعضهم ان المعينيين نزحوا من شرقي الجزيرة الى اليمن ، وجعلوا مركزهم معين في جوف اليمن ، وشلت دولتهم أول الأمر كل جنوبي

الجزيرة بما فيه من قتبان وحضرموت • وقد كانوا في حضارتهم وديانتهم على صلة وثيقة بوادي الرافدين • وكانوا شعباً تجارياً في الدرجة الاولى وقد مدوا سلطتهم ، في القرن السابع ، الى سقي الفرات الاسفل ، وكانت لهم مستعمرة تجارية في معان •

دولة سبأ

وقد خلفهم السبئيون الذين قدموا من شمالي الجزيرة على ما يظهر للباحث • بدؤوا بمهاجمة القوافل المعينية ونجحوا فى القرن السابع ق•م بالتغلب عليهم • ومر تاريخهم بدورين أحدهما دور الحكام الدينين وكان لكل واحد منهم لقب (مكرب) ويمتد هذا حتى ٥٠٠ ق•م • والآخر حتى ١١٥ ق•م وقد تلقب حكامهم بـ « ملوك سبأ » وعاصمتهم مأرب ذات السد المشهور • وقد عاصرتهم مملكتان ، قتبان وحضرموت •

الحميريون

وحوالي سنة ١١٥ ق•م ظهر الحميريون وقد تميزوا في دور فتوتهم بالروح الحربية ويحتمل انهم استولوا على قتبان أولا ثم تغلبوا على مأرب • ولقب أمرائهم « ملك سبأ وذو ريدان » نسبة الى جبل ريدان في حضرموت • وفي عصرهم كان الغزو الخارجي الوحيد للجزيرة • فقد جهز الروم « الرومان » حوالي سنة ٣٠ ق•م حملة على جنوبي الجزيرة لغناه وسيطرته على طرق التجارة ، ولكنها خابت خيبة ذريعة • وحوالي سنة ٣٠٠ م • أخضع الحميريون حضرموت ووسعوا لقبهم الى « ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت » ويظهر أنهم مدوا نفوذ سلطتهم على عدة من القبائل في تهامة ، وان الاحباش المعروفين غزوهم في القرن الرابع وأخضعوهم مدة قصيرة ، ثم استعادوا استقلالهم وحافظوا عليه حتى سنة ٥٢٥ م حين استعلى عليهم الاحباش مرة ثانية •

غزو الاحباش لليمن

وكان الباعث على الغزو الحبشي في الظاهر دينياً سببه اضطهاد ذي نواس آخر ملوك الحميريين للنصارى ، وقد كان اعتنق اليهودية ولكن السبب الرئيس هو النزاع على طرق التجارة التي تربط الهند وافريقية بالشام ومصر • وقد كانت « ظفار » عاصمتهم أول الامر ثم صنعاء •

وأستمر الحكم الحبشي حتى سنة ٥٧٠ م • وفي آخره حاول الامير الحبشي أبرهة غزو الكعبة وذلك على أثر حبوط محاولته في تحويل نظر العرب عن الكعبة ببنائه كنيسة فخمة في صنعاء • وذلك ليستولي على مركز العرب الديني ويسيطر على التجارة لانها انتقلت الى أيدي القرشيين فخاب وخسر وسمي ذلك العام بعام الفيل لوجود فيل في جيش أبرهة •

ولم تخضع اليمن له طويلا فقد استنجد أحد أشرافها وهو سيف بن ذي يزن بالفرس أعداء الاحباش وأعداء حلفائهم البيزنطيين ، فانجدوه بحملة اخرجت الاحباش ولكن النتيجة كانت أن انتقل الحكم من الاحباش الى الفرس واستمر الحكم الفارسي في اليمن حتى سنة ٧ هـ = ٦٢٨ م حين خضعت لمنقذ العرب الاعظم محمد (ص) •

ولم يقتصر وعي العرب السياسي على الجنوب فالمتأمل لتأريخهم يشعر بوجود وحدة شاملة خلال هذا التجزؤ •

دول الشمال :

اللحيانيون

ففي شمال غربي الجزيرة ظهر اللحيانيون وكونوا دولة بين ٥٠٠ ـ ٣٠٠ ق•م • وعاصمتهم حجر على خليج العقبة • وكانوا أسلاف الانباط وتظهر صلتهم بالجنوب في ان كتابتهم تمثل فرعاً من الكتابة الجنوبية •



مصور جزيرة العرب قبيل الإسلام
١ - المكتوب بالفارسي للقبائل البائدة
٢ - " بالأحمر للرحل و " للعاربة والمستعربة
٣ - والمرسوم بالأزرق للأماكن
بادية السماوة
عسقلان
غزة
يافا
القدس
نجد
الخليج
فارس
عمان
حضرموت
مهرة
بحر العرب
بحر الهند
المحيط الهندي
افريقيا

الأنباط

ثم كون الأنباط دولة في جنوبي سورية على طريق التجارة ، يظهر انها تكونت في الأصل من تخالف عدة قبائل ظهرت قوتها في القرن الثاني ق٠م ٠ وكانت عاصمتهم البتراء المدينة الجميلة المنحوتة في الصخر وكانت مدين في حكمهم ٠ وللأنباط فضل ثقافي عظيم ، فان حروف الكتابة العربية انحدرت من الكتابة النبطية ٠

مملكة تدمر

ويظهر ان خطوط التجارة كانت عروق الحياة للعرب المتحضرين ، فقد تكونت مملكة تدمر في بادية الشام في محل توفرت فيه المياه ، وأصبحت محطة للقوافل القادمة من العراق وايران الى الشام ٠ وقد استفادت من الخصومة بين الفرس والبيزنطيين في تقوية مركزها وتنمية تجارتها حتى صارت من أغنى المدن ، واستطاعت في مدة قصيرة ان تفرض سيادتها على الشرق الادنى ٠ وفي القرن الثالث الميلادي هاجم أميرها أذينة ملك الفرس سابور بعد فتحه سورية وهزمه الى المدائن ، فمنحه الانبراطور الروماني لقب أمير الشرق ٠ ولكنه اغتيل وقتل بعد سنتين في حمص ، فتسلمت أرملته الجميلة زينب (الزباء) الحكم وتلقبت بـ « ملكة الشرق » ، ثم تحدت الانبراطورية الرومانية وأرسلت جيوشها الى مصر وولت ابنها على تلك البلاد ٠ وساقت الرومان أمامها حتى أنقرة شمالا فأدى ذلك الى اصطدامها هي والانبراطور أورليان والى أسره اياها ٠

المناذرة

واحتلت بعض القبائل القحطانية منطقة الفرات في القرن الثالث الميلادي ، ولم يستطع الفرس ردهم ، بل اضطروا حوالي منتصف القرن الثالث الميلادي الى الاعتراف بهم برئاسة عمرو بن عدي اللخمي وجعلوا عاصمتهم الحيرة ٠ وكان عرب الحيرة من

تنوخ النازحة من اليمن ومن قبائل عربية نصرانية تسمى (العباد) ومن العرب الطارئين • واعترف الفرس باللخميين على ان يكونوا تابعين لهم ، وان يحموا الحدود من هجمات عرب الجزيرة واعترفوا الفرس باللخميين على ان يكونوا تابعين لهم ، وان يحموا الحدود من هجمات عرب الجزيرة واعترفوا لهم بالاستقلال الذاتي •

وقد صار للامراء اللخميين مركز متميز بكونهم أمراء اقطاعيين وملاكين • وبقوا جزءاً لا يتجزأ من العالم العربي ، اذ كانوا يشجعون النهضة الادبية ويرسلون نواباً عنهم الى الاسواق العربية في الحجاز ، وقد انتشرت النصرانية فيهم الا بني لخم فانهم بقوا وثنيين حتى القرن السادس حين اعتنقوا النصرانية •

ولما تدهور سلطان الحميريين في القرن السادس توسع نفوذ سلطة المناذرة بين قبائل الجزيرة في الشرق والوسط ، وقد وقف النعمان اللخمي بازاء الاحباش مدافعاً عن عرب اليمن وكان له أثر في اقناع الفرس بارسال حملة لطردهم •

ومن مشاهير أمراء الحيرة النعمان الاول • وكانت له كتائب منها دوسر والوضائع والصنائع والشهباء كان يستخدمها في حروبه مع القبائل المجاورة له ، وهو الذي شيد قصري الخورنق والسدير المشهورين في الادب العربي ، وابنه المنذر الاول هو الذي ساعد بهرام جور على اعتلاء عرش فارس ومنهم المنذر الثالث الذي برع في القيادة وأبلى بلاءاً عظيماً في الحروب التي كانت بين الفرس والبيزنطيين •

وقد انتهى حكم الاسره اللخمية سنة ٦٠٣ م على أثر خلاف

حدث بين أبي قابوس النعمان الثالث وكسرى ابرويز ، وادى ذلك الى قتله • فعين كسرى اياس بن قبيصة الطائي ومعه حاكم فارسي بيده السلطة الحقيقية • وسخط العرب لذلك ووقعت بينهم ولاسيما بني بكر ، وبين الفرس معركة ذي قار المشهورة التي انتصر فيها العرب وكانت فاتحة بزوغ مجدهم السياسي •

الغساسنة

وكما نشأت مملكة المناذرة على حدود العراق فكذلك نشأت مملكة الغساسنة في الشام تحت نفوذ سلطة الروم ، فقد دخل العرب من تنوخ أيضاً الشام منذ القرن الثالث الميلادي ، ثم جاء الغساسنة وغلبوا عرب الشام وكونوا مملكتهم برئاسة آل جفنة • وقد انتشرت النصرانية بينهم وامتد سلطانهم على عرب الشام كافة حوالي ٥٢٩ م • وكانوا حلفاء البيزنطيين فوقفوا في وجه غزوات البدو وكانوا في تصادم مستمر مع الفرس ومملكة الحيرة • وقد شهد القرن السادس أوج هذه المملكة في الاهمية والقوة • وأعظم ملوكهم هو الحارث الخامس • وفي أواخر القرن السادس بدأت مملكة غسان تتضعضع بسبب الخصومة مع المناذرة ، وحصل خلاف بينهم وبين الروم ، حتى قطعت الصلة ، وثار بعض الامراء على البيزنطيين ، وجاءت فترة اضطراب قصيرة انتهت بالفتح العربي •

كندة

ولقد انتشر الوعي السياسي الى وسط الجزيرة ، ففي القرن الخامس الميلادي ، تكونت امارة كندة من اتحاد عدة قبائل يمنية في نجد ويظهر أنهم حكموا البحرين واليمامة • وقد كانت أول الامر تحت نفوذ سلطة الحميرين غير انها كانت في خصومة شديدة مع الحيرة • وأعظم ملوكها الحارث وقد ملك

الحيرة بضع سنين • وولى أبناءه على قبائل كندة ولكن الشقاق دب بينهم بعد وفاته وتنازعت القبائل فيما بينها ، ومنها أسد وغطفان التي قتلت حجر بن آكل المرار والد امرىء القيس الشاعر المشهور • وحاول امرؤ القيس ان يثأر لوالده وان يعيد وحدة كندة ولكنه خاب وتوفي سنة ٥٤٠ م •

حضارة العرب قبل الاسلام

بقي علينا أن نذكر شيئاً عن مدن الحجاز قبل الاسلام وسنفرد لها بحثاً خاصاً • أما بقية أراضي الجزيرة فكانت البداوة مستفحلة فيها • ولنتطرق الآن الى حضارة العرب في هذه الفترة والى نوع معيشتهم بداة ومتحضرين •

يطلق على العصر الذي قبل الاسلام اسم العصر الجاهلي • ولا يقصد بذلك ان العرب كانوا خلواً من الثقافة أو الحضارة • وانما المقصود بالجهل انحطاط المستوى الديني ، واستفحال جملة من العادات كالعصبية والثأر ، هذا وان نبوغ العرب في السياسة والادارة والحضارة في صدر الاسلام يدل دلالة صريحة على حضارة وتهذيب سابقين •

فالعرب المتحضرون كانت لهم حضارة راقية لم تكن بعزلة عن الحضارات الاخرى بل أثرت فيها خصوصا في حقل الدين وأدوات الترف ، وتأثرت بها • يقول أستاذ كبير « اننا برغم قلة معلوماتنا لعصر الجاهلية نقدر أن نقول أن حضارة راسخة في القدم انتشرت من جنوبي الجزيرة الى الشمال وبلغت مستوى عالياً جداً وأثرت في حياة المدن في الجزيرة أثراً عميقاً • وحضارة أخرى مصدرها حضارة ما بين النهرين وبلاد الآراميين تكونت في الشمال وامتدت الى وسط الجزيرة خاصة بعد تدهور

الجنوب » .

ومعيشة أهل البدو وان بقيت على وتيرة واحدة في الجزيرة ، وحضارة الدول العربية وان تدهورت قبيل الاسلام ، فان ذلك لا ينفي وجود تلك الحضارة .

ففي الجنوب انشأ العرب حضارة زاهرة . ويرى كثير من الباحثين أن تلك الحضارة مأخوذة من حضارة ما بين النهرين كما تدل عليه النقوش في الجنوب ، وأن دياناتهم يغلب عليها عبادة الاجرام السماوية ، وهي قريبة الشبه في آلهتها بالديانة البابلية . ونشأت هناك ملكية وراثية ولكنها مقيدة بمجالس شورى من الاترافية « الارستقراطية » المسيطرة .

تجارة الجنوب وطرقها

وكان أساس حضارتهم التجارة فكانوا ينقلون نتاج بلادهم ولاسيما العطور والبخور ومصنوعاتهم وكذلك البضائع الهندية والحبشية الى الشمال . كالبلاد البيزنطية ومصر ويرجعون ببضائع من تلك البلاد . وكان لهذا الطريق أكبر أثر في ثروة اليمن وغناها . وفي نفوذ بعض معالم الحضارة الهيلينية الى بلاد العرب فكان طريق التجارة يبدأ من ظفار مركز العطور ويسير الى صنعاء ، ثم يصعد شمالا الى الحجاز ماراً بمكة والمدينة حتى العقبة مدينة الانباط الاولى ومنها الى تيماء وهناك يتشعب الطريق ، ففرع يذهب الى بصرى ودمشق ، وفرع يسير الى سيناء ومصر ، وفرع ثالث الى الشرق ينتهي بالعراق . وظل رخاء السبئيين قائما حتى أخذت التجارة الهندية تهجر البر وتسلك البحر على شواطىء حضرموت وباب المندب وذلك في القرن الاول الميلادي فضعف شأنهم وتدهوروا وكانت السيادة

في شمالي الطريق للانباط بين القرن الثالث ق. م. والاول الميلادي . ثم رجعت للطريق البري أهميته وساد فيه أهل مكة ويثرب وقاموا بدور مهم .

ومن الطرق طريق بري آخر يمتد من ظفار الى عمان فشرقي الجزيرة فالخليج الفارسي ثم يجوز غربي العراق الى البادية ماراً بتدمر الى أسواق الشام . وكان هذا الطريق موصلا وثيقاً بين حضارة الرافدين واليمن .

صناعة اليمن

واشتهرت اليمن مع غناها بالبخور والعطور التي كان العالم المتمدن يحتاج اليها لمعابده وحفلاته وبمصنوعاته كالادم « الجلود المدبوغة » والمنسوجات والسيوف .

زراعة اليمن

وعني السبئيون بتحسين الزراعة في بلادهم فانشؤوا سدوداً ومصانع وقنياً لتنظيم التروية « الري » وحولوا السهول والسفوح الى جنان غن . يقول سترابون « مدينة السبئيين مأرب على جبل كثيف الاشجار . ومنهم من يزرع في الحقول ومنهم من يتاجر بالتوابل » وأعظم منشآت الري عندهم سد مأرب . وقد وصفه أحد الرحالين في زماننا قائلا « جدار هذا المخرج مبني من الحجارة البركانية الكبيرة المنحوتة نحتاً جميلا . منها ما طوله متران وربع متر ، وهي مبنية بشكل مستغرب . فمن حجارتها ما هو متداخل بعضه في بعض كما يدخل المفتاح في القفل . والبناء محكم ولا يمكن المرء أن يدخل أبرة بين الحجر والحجر . ويظهر انهم كانوا يستعملون في البناء مادة تشبه الاسمنت توضع بين الحجارة . والغريب في أمر هذا البناء أنه لا يزال قائماً جديداً

الى هذا اليوم كما كان قبل آلاف سنين حتى كأن البنائين لم يخرجوا منه الا منذ بضعة أيام » .

ولكن الاهمال مدة طويلة أدى الى انبثاق السد وهجرة كثير من القبائل الى الشمال . وتعرف هذه الحادثة بحادثة سيل العرم (العرم : السد) .

ابنية الحميريين

واشتهر الحميريون بقصورهم وقلاعهم وأشهرها قصر غمدان وكان فيه عشرون طبقة ارتفاع كل منها عشرون ذراعاً وهو مشيد من حجر الكرانيت والرخام والمرمر . وقد أقام الملك العربي في بلاطه في عليا الطبقات ، وكان سقفها مغطى بصفحة واحدة من حجر قيل بلغ من شفوفه أن الانسان يستطيع النظر من خلاله الى السماء والتمييز بين الطيور المختلفة في الجو . وكانت وجهات القصر الاربع مشيدة من حجارة مختلفة الالوان ، وقد أقيم على أركانه الاربعة أربعة آسد[1] من النحاس كانت الريح تجعلها تزأر كلما هبت .

نقود اليمن

وكان لهم نقود ضربوها ببلادهم ونقشوا عليها صور الملوك وكتبوا عليها اسماءهم واسماء المدن التي ضربت فيها بالخط المسند ، وكانت هذه النقود تزين بزخارف مختلفة كصورة الصقر ورأس الثور والهلال . وكانت لهم لغة للكتابة ، اذ كتبوا بالخط المسند وقد وجدت الوف نقوش وألواح من آثارهم .

لغة اليمن

وكانت السيادة في الجزيرة للغة الجنوبية لغة الكتابة والأدب ، ولكن تدهور الحضارة في الجنوب في القرن السادس وانتقال السيادة الى الشمال ، أضعفاها حتى قضت عليها لغة القرآن .

---

(١) جمع أسد .

وقد نفذت حضارة الرافدين الى بلاد العرب عن طريق التجارة الشرقي ، وبالصلة الوثيقة القائمة بين عرب الجنوب ووادي الرافدين ، ومحاولة سكان العراق السيطرة على طرق التجارة في شمالي الجزيرة ، فانتشرت حضارتهم في شمالي الجزيرة وشرقيها وجنوبيها • وأثرت الحضارة المصرية القديمة والهلينية اليونانية المستشرقة عن طريق التجارة الغربي •

آثار البتراء

وفي الشمال اشتهرت البتراء بقصورها الجميلة المنحوتة نحتاً بديعاً فنياً في الصخر • وقد ذكرنا أن الخط النبطي هو مصدر الخط العربي •

آثار تدمر

أما تدمر ، فقد اشتهرت بهياكلها وقصورها التي لا تزال أعمدتها غاية في الروعة والفن ، كما اشتهرت بتماثيلها تقيمها لمن تريد تكريمه وتخليد اسمه •

حضارة الغساسنة البتراء

وكان للمناذرة والغساسنة أثر مهم في تقديم شيء من الحضارة الغربية اليونانية الى الثقافة العربية ، وكان المناذرة وسطاء بين حضارة فارس وثقافتها وبين العرب ، وقد عطفوا على الحركة الادبية بتقريب الشعراء ورفدهم ، والمهم في هاتين المملكتين انهما مع وجودهما في مناطق النفوذ الفارسية والبيزنطية واتصالهما بحضارتهما بقيتا جزءاً من الحياة العربية العامة •

الحجاز

وحيث ان مركز النشاط التجاري قد انتقل الى الحجاز فالبك شيئا عن وضعه قبل الاسلام •

ان أهم مدن الحجاز مكة ويثرب .

مكة

أما مكة فقد نشأت حول بئر زمزم وظهر قرب البئر محل عبادة وهو الكعبة وكانت قريش هي القبيلة الحاكمة .

تنظيماتها الادارية

وقد ثبتت سيادتها في مكة ونظمت شؤونها بزعامة قصي قبل الرسول (ص) بزهاء قرن ، وكان الحكم فيها شبه جمهوري بين جماعة من رجال التجارة والاعمال فالسلطة فيها بيد (الملأ) أي الاشراف ورؤساء الاسر وأهل القوة وأصحاب الأموال وكانوا يجتمعون في دار الندوة للتشاور في الامور العامة . وكان الملأ يعرف كيف يستعمل سلطته بصورة حكيمة حين تتطلبها المصلحة العامة . فيبدأ بالنصائح وينتهي بالتهديدات ويتلو ذلك المقاطعة والحرمان من حماية القبيلة .

التجارة المكية

وقد أصبحت لمكة أهمية بسبب موقعها وحرمتها الدينية ، فقد كانت على طريق التجارة الغربي المشهور فصارت مركز قوافل وانتقلت اليها بالتدريج تجارة سوريا التي كانت بين الانباط والعرب الجنوبيين ، وصارت بأيديهم السيادة التجارية حين تدهور الحميريون في القرن السادس . وفي القرن السابع أخذ الاحباش يرسلون بقسم كبير من تجارتهم الى اليمن ومن هناك يذهب به الى مكة ولذلك صارت تجارة افريقية الشرقية وتجارة جنوبي الجزيرة وقسم من تجارة الهند بأيدي المكيين .

وولدت حرمة البيت أهمية خاصة في تسهيل تجارة المكيين وتنشيطها فان مواسم الحج كانت مواسم بيع وشراء كما أن الناس احترموا المكيين لانهم « جيران بيت الله وقطان حرمه فلا يجتري

عليهم أحد » وهذا قد حفظ تجارتهم من تعدي كثير من أهل البدو وأزال عقبة شاقة من طريق التجارة ٠

ولما كانت مكة « بواد غير ذي زرع » كان عامة أهلها يشتغلون بالتجارة حتى قيل « من لم يكن من قريش تاجراً فليس بشيء » ولذلك نرى القرشيين كافة أغنياءهم وفقراءهم يشتركون في تجهيز القوافل ، حتى كان بينهم من يشارك بدينار أو بنصف دينار وينال في مقابل ذلك حصة نسبية من الارباح ولذلك أيضاً نرى القرشيين يجهزون قوافل عظيمة معها الادلاء والخفراء من حلفاء قريش أو من عبيدها لحمايتها ٠ ويشير الطبري في تاريخه الى قافلة كانت متألفة من ٢٥٠٠ جمل ٠

وعني القرشيون بفتح مفاوضات مع القبائل والدول المجاورة لهم للحصول على حق المرور بأمان ، وبعقد محالفات واتفاقات تضمن لبضائعهم الاسواق وقد تم ذلك مع اليمن والشام والحبشة وفارس ٠ واهتموا أيضاً بالمحافظة على سمعتها التجارية ، وما حلف الفضول المعقود لحماية المظلومين في مكة الا وسيلة لمنع التعدي والغبن في معاملة الغرباء في النواحي التجارية خاصة ٠

واعتاد القرشيون قبل الاسلام أن يقوموا برحلة شتائية الى اليمن ، يحملون سلع اليمن والحبشة والهند والشرق الاقصى وفارس وخصوصا العطور والتوابل والنسيج والحرير وبضائع افريقية كالتبر والعاج والعبيد ، ورحلة صيفية الى الشام لجلب البضائع البيزنطية والشامية وخصوصاً النسيج والاسلحة ٠ وكانوا

يقيمون الاسواق التجارية في الحجاز • فيأتي اليها العرب من أطراف الجزيرة وأشهرها سوق عكاظ وسنتحدث عنها بعد قليل، وأصبحت مكة مركزاً للتحويل الدولي في غربي آسية وأصبح لها اعتماد محترم •

أثر التجارة في حياة مكة

وكان للتجارة أثر بليغ في سيرة المكيين ، فقد اختلطوا بالروم والفرس والحبشة والعرب الجنوبيين ، واكتسبوا تهذيباً وثقافة • فاستعمال الكلمات الآرامية بكثرة دليل قوي على أثر الشام في لغتهم • ويذكر كثيرون ان عبادة الاصنام حديثة العهد في مكة وانها أخذت من الشام • وكثير من مظاهر العبادة المكية يشبه ما عند الانباط والكلدان • وتعلم جماعة من المكيين الكتابة من الحيرة ونشروها في مكة والطائف • وشبه أيضاً بين آلهتهم وآلهة العرب الجنوبيين ويحتمل انهم تأثروا باولئك أول من تأثرهم بالانباط •

وتعلم المكيون كثيراً من وسائل ترف جيرانهم ، واكتسبوا لباقة وكياسة وفهموا شيئاً عن التطورات السياسية • ولهذا زالت البداوة من مكة مع أن النظام القبيلي كان أساس المجتمع المكي •

يثرب

والمدينة الثانية في الحجاز يثرب ، وكان أهلها من العرب واليهود • فاليهود نزح قوم منهم من فلسطين ، على حين كان الآخرون عرباً تهودوا • وكان بجنبهم قبيلتا الأوس والخزرج فانهم نزحوا من اليمن الى يثرب في حدود سنة ٣٠٠م • وكانت أرض المدينة خصبة فنشطت فيها الزراعة ، ثم أن وقوعها على طريق المواصلات قوى الحركة التجارية فيها • الا أن الخصومات

القبيلية المستمرة فيها أدت الى تسلط اليهود على شؤونها المالية « ومنها الربا » والى سيادتهم الاقتصادية ، فأثروا وامتلكوا أكثر الاراضي الزراعية • أما السيادة العسكرية والحربية فبقيت بأيدي القبائل العربية ، ولقد تأثر اليهود بالجو القبيلي المحيط بهم ، واقتبسوا من العادات القبيلية وعاشوا على شكل قبائل ، أشهرها بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير كما أن العرب تأثروا باليهود وتعلموا الآراء الدينية منهم •

« نظرية في حالة العرب وأديانهم قبل الاسلام »

لقد تحدثنا عن حضارات الجنوب والشمال ، ورأينا تدهورها للجزيرة من القرن الرابع الميلادي حتى نهاية القرن السادس • اقتصرت على مدن الحجاز ، كما يؤيده أحد الباحثين بقوله « ان حضارتي الجنوب والشمال تدهورتا ، وغمرت السيرة البدوية الجزيرة العربية عدا مراكز مدنية قليلة ، وجد فيها شيء من آثار الحضارات القديمة • فلذلك كانت البداوة أبرز ظاهرة للجزيرة من القرن الرابع الميلادي حتى نهاية القرن السادس ولكنها لم تكن بداوة ساذجة ، بل بداوة فيها آثار الحضارة السابقة ، بقدر ما كانت المدن قبلية في أسس سيرتها الاجتماعية » •

ولنلق الآن نظرة على نواح من السيرة الاجتماعية والدينية والاقتصادية في الجزيرة لنفهم أثر البعث الاسلامي وأهميته •

السيرة الاجتماعية

تأثرت سيرة العرب ومعيشتهم في جزيرتهم بطبيعة بلادهم الصحراوية ، فكان أكثرهم بداة يرعون الابل والمواشي ويتنقلون

كثيراً من أجلها • وأكثر تاريخهم سلسلة غزوات وحروب يدور معظمها حول الحصول على الماء والمراعي ، وتعرف هذه الحروب بأيام العرب • وأساس معايشهم الابل والماشـية فعليها تتوقف حياتهم بمختلف نواحيها الضرورية ، وتقوم صناعتهم على ما تنتجه هذه الحيوانات •

القبيلة

كانت القبيلة أساس سيرتهم الاجتماعية والسياسية ونظام القبيلة هو الاصل في المجتمع البدوي ، فأفراد القبيلة يعـدون أنفسهم أبناء أب واحد ويخضعون لرئيس واحد وهو شـيخ القبيلة ، ويكون على العادة من المسنين المجربين ، وذا خبرة واسعة • ولا يصل الى مركزه الا باختيار أفراد القبيلة له بفضل ما يبـديه من كرم وخلق وشـجاعة وحلم • ولم تـكن سلطة الشيخ مطلقة بل كان عليه أن يستشير مجلس القبيلة المتألف من رجالها ذوي الامر النافذ •

وأفراد القبيلة متســاوون في الحقوق ، وكانت الحرية الشخصية والفردية المتطرفة المثل الاعلى لعرب الجاهلية وذلك الأمر الذي أدى الى شـدة الغرور والعنجهة • ولكن الكل يخضعون لتقاليد القبيلة وعرفها خضوعاً تاماً •

ولم تكن في القبيلة طبقات اجتماعية ، لشمول المساواة للجميع ، الا اذا استثنينا طبقة العبيد التي مصدرها الشراء أو الاسر ومعاملتها حسنة في جملتها •

المرأة

وكانت المرأة العربية تتمتع بقسط غير قليـل من الحرية فـكانت تحضر المجالس وتساهم في الحروب ، وتزاول التجارة والكهانة والشعر ، وقد لمعت شخصيات من النساء ، وصار لهن

مركز مميز كخديجة الكبرى في تجارتها والخنساء في شعرها • ومنهن من صرن ملكات كزينب ملكة تدمر ، وبلقيس ملكة سبأ • وللمرأة رأي في اختيار زوجها ، ومع أن حق الطلاق كان بيد الرجل كان منهن من يشترطن في العقد اباحة تطليقهن الزوج • وقد شاع نظام تعدد الزوجات لان أحوال المعيشة القاسية كانت تتطلب الاكثار من البنين •

ولكن يظهر أن مركز المرأة بدأ يتدهور قبيل الاسلام ، وظهرت عند بعض القبائل عادة وأد البنات ، وسببه اما خشية العار الذي يسببه أسر المرأة في الحرب واما خشية الفقر ، كما يتضح من الآيتين الكريمتين : « واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب » ، و « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم » • وقد منع الاسلام من الوأد وحرمه •

العادات العربية

ولم يكن تنظيم العلاقات الاجتماعية معتمداً على قانون ديني ولا مدني ، وانما كان يستند الى العادات والرأي ويرتكز على فكرة الشرف • ومقومات الشرف تكون بمجموعها المثل الاعلى للفضيلة أي « المروءة » في اصطلاحها وتتكون المروءة من الشجاعة ، والفروسية وخير مثل لها عنترة • ثم الكرم وهو من أكبر مفاخر العرب ومثلهم الاعلى في ذلك حاتم طيء ، ثم الولاء للقبيلة وبموجبه يعد الدفاع عن الاسرة والقبيلة مقدساً ، ويقتضي نصرة المرء لافراد قبيلته دائماً • قال الشاعر :

وهل أنا الا من غزية ان غوت غويت وان ترشد غزية أرشد

ثم الوفاء بالعهد وخير مثل لذلك : قتال هانيء بن مسعود الشيباني للفرس ، للمحافظة على ودائع النعمان ، في معركة أدت الى نصر ذي قار ، وتحمل السموأل لقتل ابنه دون تسليم دروع امريء القيس المودعة لديه . وكانوا لا يغتفرون لخائن أمتهم خيانته أبداً بل يجعلونه موضع احتقارهم ولعنهم في حياته وبعد مماته كما فعلوا بقبر أبي رغال دليل جيش أبرهة الى مكة ، فانهم كانوا يرجمونه كل عام . وقال مؤرخ يوناني في القرن الخامس قبل الميلاد اسمه هيرودتس : « ان العرب أشهر الامم محافظة على العهود ووفاءاً بالعهود » .

والولاء للصديق يقابله الكره للعدو . والعرب يعدون من لا يقابل العداء بمثله جباناً . ويرون الثأر من القاتل أو من قريب له واجباً محتماً ، وقد ينتهي الامر أن يكون الثأر مبدأ خصام طويل بين القبيلتين . فقتل كليب أدى الى حرب استمرت مدة أربعين سنة بين بكر وتغلب . وقد يقبلون دية عن المقتول ، ولكن ذلك يغض من قدر من يقبلها .

ثقافة العرب

وكان للعرب ثقافة تمثل نتيجة ما أفادوه من غيرهم فكانوا يعرفون أخبار الامم كما كانوا يعرفون شيئاً من السير والتاريخ والقصص وأساطير الاولين ، وكان منهم من يعرف اللغات الاجنبية كالعبرية والآرامية والفارسية والحبشية والرومية وعددهم قليل ، وبرعوا في الانساب وبالقيافة أي تتبع الاثر والفراسة ، وقد احتاجوا في سيرتهم التجارية وأسفارهم الى معرفة النجوم والكواكب والانواء والرياح . وكان لهم علم بالطب والعقاقير واستعمالها وتوصلوا الى ذلك بالتجربة والمشاهدة أو بالتعلم من الامم المجاورة .

واحتاجوا أحياناً الى تعلم الكتابة والقراءة وان كان ذلك محدود الانتشار كما في الحجاز • وتدل عدة من الآيات الكريمة على ذلك • قال تعالى « بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة » « المدثر ٥٢ » « وقالوا أساطير الاولين ـ يعنون القرآن ـ اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا » « الفرقان آية ٥ » يعني المكيين •

اللغة العربية

وقد برع العرب في لغتهم التي بلغت درجة عالية من الكمال • وخير مثال للغة العربية في عصر النبي ـ ص ـ هو القرآن ، ويظهر أنه كان مفهوما لسامعيه • قال الله تعالى : « واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا أساطير الاولين » ويظهر نثرهم في أمثالهم وحكمهم وفي بعض السجع من كلام الكهان •

ومع ان السيرة القبلية كانت سبباً لتعدد اللهجات كان الشعور المشترك واجتماع القبائل في الاسواق والحج قد قاربا بين اللهجات وساعدا على انتشار لهجة قريش صاحبة البيت المشرفة على بعض الاسواق • فلما نزل القرآن بها غمرت سائر اللهجات •

الشعر

وبرع العرب في الشعر خاصة ، فصار ديوانها يسجل اخبارها وأيامها ويمثل سيرتها أصدق تمثيل • وقد نظموا القصائد الطويلة وأهمها المعلقات السبع التي أنشدت في سوق عكاظ وكتبت بماء الذهب ، كما يروى • وعلقت في الكعبة ، وكان للشاعر أهمية خاصة في الدفاع عن القبيلة وفي تعداد مآثرها فهو خطيبها ولسان حالها •

الخطابة

وكانت للخطابة منزلة كبيرة عندهم • واعتنوا بالفروسية

والرماية حتى كانت صفات الرجل الكامل • الفصاحة وحسن الرماية والفروسية •

ديانة العرب

كان عند العرب شعور ديني ضعيف • يضاف الى هذا ان آراءهم الدينية كانت ساذجة فاعتقد البدوي ان في الدنيا قوى خارقة تسيطر عليه بتسليطها الجن والشياطين ويرون ان الجن لهم اتصال بالكهان والسحرة ، لذلك كان هؤلاء يتكهنون للمستقبل فاهتموا بالسحر والكهانة واستعمل الكهان مسجعة مبهمة •

وكان لكل قبيلة وثن وهو حجر لا صناعة فيه أو صنم وهو تمثال مصنوع على صورة انسان أو حيوان تعبده ، ومن أشهرها :ـ

ود ـ وهو تمثال لرجل عظيم متقلد سيفاً ، متنكب قوساً وبين يديه حربة في رأسها لواء • وحامل جعبة فيها نبال ، فهو يشبه اله الحرب عند اليونان •

مناة ـ (من المنية) الهة القضاء والقدر (أو من النوء) وكان الحجازيون يستمطرون بها وكانت بين مكة والمدينة وتعظمها العرب ولاسيما الأوس والخزرج •

اللات ـ وثن وهو صخرة كبيرة مربعة لا أثر للصنعة فيها • معبدها قرب الطائف وسدنتها من ثقيف كانت تعظمها قريش وتحج اليها •

العزى ـ من أعظم أصنام قريش وكانت بوادي نخلة فوق مكة •

هبل ـ أعظم آلهة العرب ، من العقيق الاحمر على هيئة انسان احدى يديه مكسورة فجعلوا له يداً من ذهب • وكان في

[illegible]

وكان العرب يقربون القرابين ويقدمون النذور للاصنام ، وكان في الجزيرة من يعبد الاشجار والاحجار ، يظنون انها مواطن أرواح مقدسة •

وكانت توجد آثار للديانة البابلية ، خصوصاً في عبادة الاجرام السماوية كالشمس والقمر كما في اليمن والحجاز •

ومما مر يتضح انه كان في وثنية العرب مزيج من الآراء البابلية ومن الديانة البدائية ومن أثر الشام • والظاهر ان فيها أصولا من الديانة السامية الأولى قبل تشعب الساميين •

ولم تكن القبيلة تتعصب لالهها فنشأت آلهة مشتركة بين قبيلتين فأكثر ، ثم صارت الكعبة أهم مركز ديني عند الجاهليين ، ومجمع أصنامهم وأصبح الحج اليها في أوقات معينة من السنة من كل أصقاع الجزيرة أهم شعائر العرب الدينية ، وقد يزورون الكعبة في غير موسم الحج • وتسمى مثل هذه الزيارة « العمرة » •

ورجحت قبيل الاسلام فكرة وجود اله واحد فوق الآلهة سموه « الله » • ومن الثابت ان الحجازيين عرفوا الله قبل نزول القرآن كما يبدو من عدة سور • وجعلوا له شركاء من الجن والشياطين • قال تعالى « وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم » الخ • ويظهر ان قسما منهم عدوا أصنامهم وأوثانهم شفعاء ووسطاء بينهم وبين الله •

وكان منهم فئة قليلة سموا بتفكيرهم الديني على الديانات الفوضى المحيطة بهم ومالوا الى التوحيد وتطلعوا الى دين أسمى

مما عليه قومهم ، وهم (الاحناف) وواحدهم (الحنيف) •

وقد تأثر أقوام من العرب بثلاث ديانات :

اليهودية وقد انتشرت في يثرب واليمن وكانت في نزاع عنيف مع النصرانية • والنصرانية وقد انتشرت بين قبائل الشام وعرب العراق وقليلا في الجزيرة ، وكلن مصدرها الشام وانتشرت في اليمن حتى كان مركزها نجران • ثم المجوسية ، وقد تركت أثراً يسيراً بين العرب • ولكن أثر هذه الديانات كان ضعيفاً في سيرة عرب الجزيرة وثقافتهم في العصر الجاهلي •

ويتصل بعقائد العرب الدينية عدهم أربعة من شهور السنة مقدسة هي (ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب) فلا يحل فيها القتال ولا الاغتيال ، بل تنشط فيها التجارة وتعقد الاسواق •

الاسـواق

والاسواق كانت اما بلدية لتبادل البضائع ، وهذه لا تهمنا واما عامة تقام مرة في السنة في مواسم معينة ولا سيما التي تقام في الاشهر الحرم فيقصد اليها الناس من أنحاء الجزيرة • وكان فيها بيع وشراء وكان فيها تناشد اشعار ، وتفاخر وتكاثر ، وكان للعرب فيها حكام معلومون يفضون المشكلات بين القبائل ولهم محكمون يحتكمون اليهم في منافراتهم ومفاخراتهم ، كما كان فيها خطباء • وقد أثرت أبلغ أثر في التقريب بين العادات واللهجات ، وفي نهضة الشعر وتكوين شعور مشترك بين العرب •

ومن أشهر أسواق العرب ، سوق عكاظ في وسط الطريق بين مكة والطائف ، في واد تزينه النخيل ، وكانت تقام بين

١٥ و ٣٠ من ذي القعدة أي قبيل الحج . وهي أكبر مركز للتجارة في جميع أنحاء الجزيرة . حتى ان ملوك الحيرة كانوا يرسلون قافلة خاصة بمنتوجات بلادهم ليبيعوها في سوق عكاظ ويستجلبون لهم الادم والنسيج . وعكاظ أكبر مجمع لغوي شعري كانت تنشد فيه القصائد وتنصب القباب للمحكمين ، ويزدحم الرواة والشعراء فيه . وهو ندوة سياسية عظيمة . وخير محل لاعلان الامور المهمة من تشهير بالغادرين وتكريم لاهل الوفاء أو عقد المحالفات ... وهو يعطي خير صورة للسيرة الاجتماعية العربية بما فيها من مفاخرة ومنافرة وائتلاف وخصومة . وبعد الفراغ منه يتهيأ الناس للحج ، وكان موسم تجارة أيضاً .

التبادل الاقتصادي

وهكذا كانت قريش تستغل الحج والاسواق لتجارتها فلا غرابة أن تكدست الثروات لدى جماعات منهم حتى وصف القرآن زعماء مكة بالترف ، قال تعالى « انهم كانوا قبل ذلك مترفين وكانوا يصرون على الحنث العظيم » (الواقعة ٥٤ ـ ٦) وصار جماعة منهم يقرضون الاموال بفائض وهو الربا ، ولعل المكيين أخذوه عن اليهود . وعولوا على الربا كثيراً في تنمية ثرواتهم لان نسبته كانت عالية فقد تصل أحياناً الى ١٠٠ بالمائة من رأس المال . قال تعالى « يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » وكان ذلك مما أرهق المستدينين وولد سخطاً وتفسخاً اجتماعياً لان الدائن كان يجبر عائلة المستدين وبنيه أحياناً على خدمته أو الاشتغال بمهن رذلة لتوفية الدين . حتى

كان منهـم من يضطر الى الهرب الى الصـحراء ليتخلص من الهوان • لذلك عاب القرآن الربا مراراً وحرمه تحريماً مطلقاً قال تعالى « ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا » (البقرة ۲۷۷) وقال تعالى « قل يا ايها الذين آمنو لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم » (النساء ۲۹) •

الاسلام يهاجم النزعة القبيلية

في هذه البيئة الحضرية الصاخبة ظهر الاسلام ، ولم ينشأ في بيئة بدوية بدائية كما كان يتصور • وقد كانت تعاليم الاسلام موجهة على العموم نحو أسس السيرة القبيلية المضطربة فشجب الرسول النظام القبيلي ، وعاب الاستغلال العنيف في مجتمع مكة التجاري •

والخلاصة أن الجزيرة كانت في فترة تدهور وانقسـام سياسي • وفي فترة ركود حضـاري ، مرتبكة في سـيرتها الاجتماعية ، مضطربة في وضعها المعاشي ، منحطة في مستواها الديني • ومع ذلك كانت فيها جماعات تتبرم بشيء من تقاليدهـا كالوأد ، وتشكو ضعف المستوى الديني ، والظلم الاجتماعي كما فعل أصحاب حلف الفضول ، وبدأت الجزيرة تتجه في أسواقها وحجها نحو نوع من الوحدة والشعور المشترك •

وعنـدئذ ظهر النبي العظيـم (ص) لينقـذها من وهدتهـا ويصلحها ويوجهها توجيهاً جديداً نحو الحضارة ونحو تكوين كيان سياسي يليق بها •

اسئلة الفصل الاول

الجزيرة العربية

هل في استطاعتك تعيين مواقع ما يأتي على الخارطة : الانباط ، تدمر ، الدولة الحميرية ، الغساسنة ، الهلال الخصيب ؟

١ ــ ما الاغراض التي يسعى مؤلفوا هذا الكتاب في تحقيقها من دراسة تاريخ الامة العربية ؟

٢ ــ ما الصفات المهمة التي تتميز بها الجزيرة العربية من الجهة الطبيعية ؟

٣ ــ ما الاسباب والعوامل التي ساعدت على الهجرات السامية من الجزيرة العربية الى الهلال الخصيب ؟

٤ ــ ما الطرق التجارية القديمة في الجزيرة وما أهميتها ؟

٥ ــ ما الدويلات العربية التي كانت في الجزيرة قبل ظهور الاسلام ؟

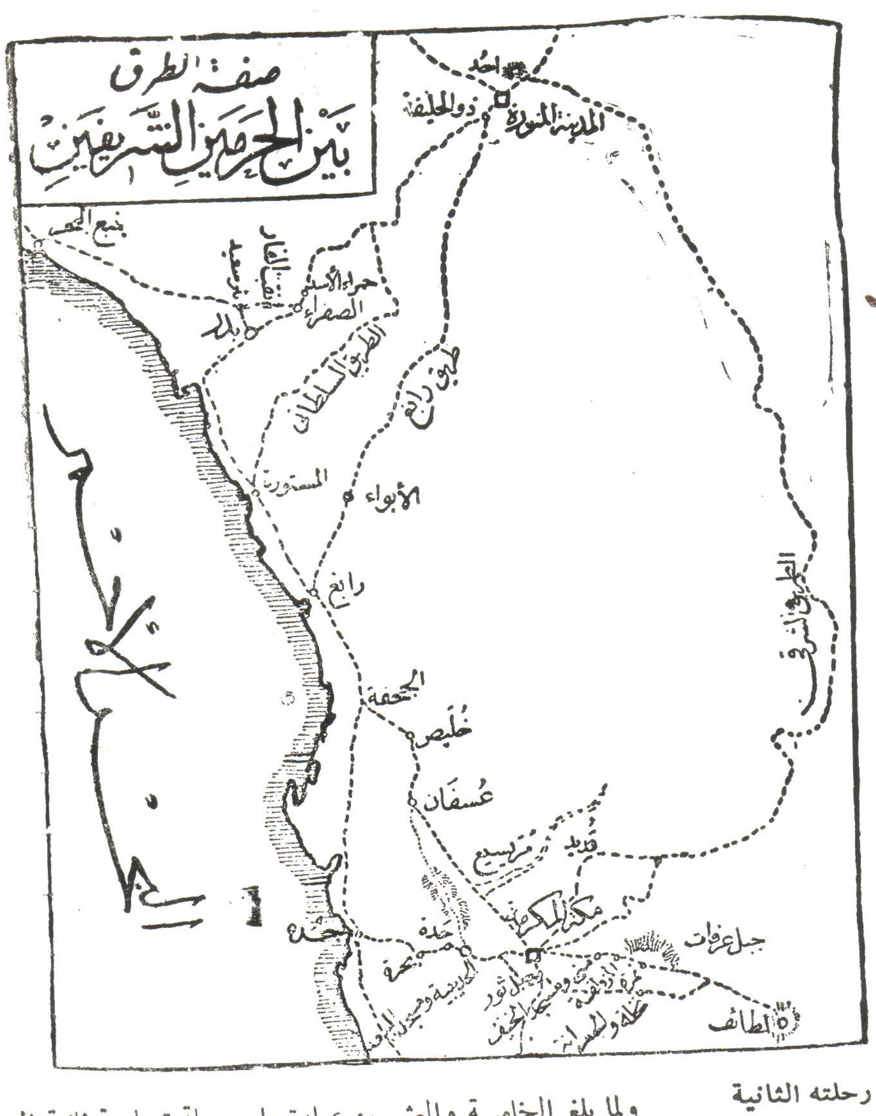
٦ ــ ما المميزات المهمة لكل من الدويلات السابقة ؟

٧ ــ بما تميز أهل جزيرة العرب من العادات والاخلاق قبل ظهور الاسلام ؟

٨ ــ ما الذي جعل قريشاً تحتل مركزاً مهما بين القبائل العربية ؟

٩ ــ ما الديانات والمعتقدات التي كانت معروفة فى الجزيرة قبل ظهور الاسلام ؟

١٠ ــ أي الامم حاولت استعمار الجزيرة وما أسباب اخفاقها ؟



رحلته الثانية الى الشام

ولما بلغ الخامسة والعشرين ، ارتحل رحلة تجارية ثانية الى الشام ، فقد اقترح عليه عمه أن يسافر في تجارة لخديجة بنت خويلد ليعاونه بربحه على شؤون العائلة المالية • وكانت خديجة أرملة نبيلة قويمة الاخلاق مثرية تتمتع بمركز متميز في

قريش فاستحسنت ارساله وضاعفت له الاجور ، وقد وفق في تجارته وربح ، وذاع صيته بالامانة ، وأعجبت خديجة به ، وأظهرت ذلك لما تبين لها من كمال خلقه ثم تزوجها ، وكان في هذا الزواج موفقاً ، فقد بقيت خديجة مخلصة له أبداً ، وكانت أول من آمن برسالته ، وشجعته على عمله وأخلص لها فلم يتزوج غيرها حتى وفاتها • وولدت له ابنين توفيا صغيرين وبنات منهن فاطمة ورقية وأم كلثوم •

زواجه

ولقد خفف هذا الزواج من مشكلات محمد (ص) المالية[١] واتسع له المجال للتفكير في الشؤون العامة •

الوحي

لاحظ محمد (ص) الانحلال الديني ، والتفسخ الاخلاقي ، والاضطراب والاحكام الفوضى التي عليها العرب ولا سيما أهل مكة ذوي النزعة المادية ، وكان قد اشتهر بين قومه بالصدق والامانة حتى سموه « الامين » وبرجاحة العقل فاحترموه ، وكان له قدرة عجيبة على تكوين الثقة في نفوس أصحابه • ثم صار يميل الى معيشة العزلة مفكراً في اصلاح قومه • وأخذ يقضي شهراً من كل سنة منفرداً في غار (حراء) خارج مكة في التعبد والتأمل • وبدأ يهب عليه نسيم النبوة في رؤى صادقة واضحة كوضوح الصبح • ثم جاءه الوحي أول مرة ، وهو في سن الاربعين وذلك سنة ٦١٠م وهو في غار حراء أيضاً : وتليت عليه سورة • « اقرأ باسم ربك الذي خلق » فهزه هذا التنزيل ، وملك

---

(١) قال تعالى « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فاغنى » •



القسم الجنوبي من بلاد العرب
لبيان بعض الاماكن ومواطن بعض القبائل التي يرد ذكرها
في تاريخ الفتح الاسلامي
اسماء القبائل مكتوبة بالخط الفارسي
اليمن
الاحقاف او الربع الخالي
اليمامة
عمان
الازد
المدينة المنورة
مكة المكرمة
الطائف
هذيل وثقيف
نجران
همدان
صنعاء
مأرب
خولان
عنس
حضرموت
ظفار
خليج عدن
بحر الهند
الحبشة
نهر النيل

الهجرة الى الحبشة

ولم يكن النبي (ص) في شفقته الانسانية ودينه ليترك المسلمين في عذاب واضطهاد ما دام غير قادر على حمايتهم ، فأمر مستضعفيهم بالهجرة الى بلاد الحبشة سنة ٦١٤م فأرسلت قريش الرسل والهدايا الى النجاشي ليسلمهم اليهم فأبى • ولم يرجع المسلمون الى مكة الا بعد أن تقوى مركز الاسلام فيها قوة نسبية •

وحاول المكيون اغراء الرسول ، وعرضوا عليه المال والرئاسة فأبى • وكان موقفه في قوله لعمه أبي طالب « يا عماه ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » •

مقاطعة المكيين لبني هاشم

احتمى الرسول في جهاده بتأييد بني هاشم فانهم كانوا — سوى أبي لهب — يدافعون عنه • ولذا رأى مشركو قريش أن أقرب المقاومات فوزاً وأعظمها تأثيراً أن يعزلوا بني هاشم عن المجتمع المكي ، فكتبوا عهداً بأن لا يجري بينهم وبين الهاشميين زواج ولا بيع ولا شراء ولا معاملة أخرى ، وعلقوا العهد في الكعبة • فانتقل بنو هاشم الى « شعب أبي طالب » وهو واد قريب من مكة ، ومنع مشركو قريش اتصال الناس بالمعزولين وضيقوا عليهم وقطعوا عنهم المادة فكانوا لا يخرجون من الشعب الا من موسم الى موسم ، وكان جماعة من القرشيين يساعدونهم سراً ويمدونهم بالقوت ، وبقي بنو هاشم على ذلك الحرمان نحواً من ثلاث سنين قاسوا فيها مصاعب ومصائب ، وهاجر فريق من المسلمين الى بلاد الحبشة ثانية • ثم ان قوما من قريش أخذتهم الحمية العربية فسعوا في نقض العهد وقالوا : انه ظلم وقطيعة حتى

لتنظيم الدعوة في يثرب ثم رجع مسلمو العقبة الى المدينة وأخذوا في الدعوة الى الاسلام بكل اهتمام •

تضييق المكيين على المسلمين

واطلع المكيون على هذه المفاوضات ، فثار ثائرهم ورأوا في حلف الرسول (ص) مع أهل يثرب خطراً يدهمهم فشددوا في اضطهادهم للمسلمين وتعذيبهم ، من حبس في الشمس الصاهرة ، وضرب ، وتعليق الحجارة الثقال في الاعناق • ورأى النبي (ص) ان باب النجاح للدين الاسلامي قد فتح وان البقاء في مكة مع تفاقم الاضطهاد موهن للاسلام ، فأمر أصحابه بالهجرة الى المدينة وقال لهم « ان الله عز وجل قد جعل لكم أخواناً وداراً تأمنون بها » • فتسللوا جماعات صغيرة وكبيرة ، وكان عملهم هذا مثلاً أعلى في الحفاظ على العقيدة والتضحية النبيلة ، فقد تركوا ديارهم وأموالهم وأهليهم في سبيل دينهم ولم يبق بمكة الا الرسول وأبو بكر وعلي ، وجماعة من الضعفاء اعتقلهم المشركون لئلا يلحقوا باخوانهم • وقد تأخر الرسول (ص) في الهجرة ليحمي أصحابه في مكة ولانه أراد أن يتأكد له تأييد أهل يثرب ونصرهم •

الرسول يأمر أصحابه بالهجرة الى المدينة

الهجـرة

وعندما نجح المسلمون في المهاجرة خافت قريش أن يخرج الرسول (ص) الى مكة فتآمروا بحياته واجمعوا على قتله (وذلك بأن ندبوا من كل قبيلة فتى شابا جلداً واعطوا كلا منهم سيفاً ، واتفقوا على انهم يقصدون محمداً (ص) ويضربونه باسيافهم ضربة واحدة) • وسبب ذلك انهم فعلوه تفرقت حقوق دمه في القبائل كلها ، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قريش جميعاً • ولكن

الرسول شعر بالمؤامرة فخرج ليلاً تاركاً علي بن أبي طالب في فراشه ليزيل شكوك القرشيين ، ولحقه أبو بكر خارج المدينة واستترا ثلاثة أيام في غار جبل ثور ، ثم سارا الى المدينة فوصلا الى ضاحيتها (قباء) في يوم ١٣ من شهر ربيع الأول سنة ١ هـ = ٢٤ أيلول سنة ٦٢٢ م ، وسميت يثرب بعد هجرة الرسول اليها بالمدينة • وقد ظهرت فيها عبقرية الرسول الادارية والسياسية فضلا عن قوته النبوية الآلهية •

الحالة في المدينة

وكان في المدينة اذ ذاك أربع جماعات : المسلمون المكيون الذين هاجروا الى المدينة وهم (المهاجرون) • ثم الذين اتبعوه ونصروه من سكان المدينة وهم (الانصار) ، ثم (الوثنيون) وهم العرب من أهل المدينة ، وهؤلاء كانت حمايتهم للرسول لازمة لان حماية عضو من القبيلة كانت تربط الآخرين بها ، وسرعان ما تأثر هؤلاء بدعوة الرسول ، وبمسعاه لازالة الخلاف وتوطيد الأمن ، فسلموا بالتدريج ، الا جماعة منهم خضعت للوضع الجديد في الظاهر ولم تسلم حقيقة ، وهم « المنافقون » الذين كانوا مصدر قلق وخذلان للرسول أحياناً ، والجماعة الرابعة (اليهود) وهم أصحاب النفوذ المالي •

ويجب أن نذكر هنا أن عدم استتباب التقاليد الدينية الراسخة وفقدان مركز مقدس في المدينة كالكعبة في مكة مما سهل نشر الاسلام بين أهلها •

تدابير الرسول الأولى في المدينة

وأول شيء عمله الرسول (ص) هو بناء مسجد ليكون داراً للحكومة ومصلى للمسلمين ومحل اجماعهم وتشاورهم في الامور العامة ، وقد عمل هو في بنائه مع العاملين وضرب لهم مثلا في اخلاص الزعيم العظيم وسيرة النبي الكريم •

غزوة بدر وبعد زهاء ستة أسابيع علم الرسول (ص) بقدوم قافلة كبيرة من الشام اشترك في تجهيزها معظم تجار قريش ، وكان يقودها أبو سفيان ، فأراد مفاجأتها في مكان يقال له « بدر » يبعد ١١ ميلا في الجنوب الغربي من المدينة . ولكن أبا سفيان اطلع على عزم النبي ، فعجّل بارسال رسل الى مكة يطلب النجدة من المكيين . وقد ضمن سلامة القافلة بأن غير طريقها ونجح في تجنب الخطر ثم بعث الى مكة يعلمهم بنجاة القافلة وبعدم حاجته الى النجدة . ولكن المكيين وقد جمعوا جيشاً يبلغ ثلاثة أضعاف جيش الرسول لم يريدوا أن تفوتهم فرصة التنكيل به وقد هدد تجارتهم ، فأرادوا أن يضعوا حداً لتعرض المسلمين وأن يؤمنوا سير قوافلهم المقبلة ، وفي اللحظة الاخيرة عرف الرسول بنجاة القافلة وبوصول الجيش القرشي الذي جاء لحمايتها . فشاور أصحابه ، فأجمعوا الرأي على مناهدة[1] قريش . وفي ١٨ رمضان سنة ٢هـ = ٦٢٣م وقعت معركة بدر وقد رسم الرسول لاصحابه خطة حكيمة للمعركة وثبت عزائمهم فانتهت بهزيمة قريش وانتصار المسلمين وظفرهم .

وكان نجاح المسلمين يعود الى قوة معنويتهم وفنائهم في سبيل دينهم ، والى أنهم كانوا يقاتلون صفاً واحداً خابت دونه الهجمات القرشية الفردية ، في حين أن معنوية القرشيين كانت ضعيفة ، لان قسماً منهم لم يكن راغبا في القتال بعد نجاة القافلة ، ولانهم لم تكن لهم خطة للقتال تقابل بخطة المسلمين الجديدة .

وكانت معركة بدر حاسمة في تاريخ الاسلام ، فقد كان الرسول (ص) يقول في أثناء القتال « اللهم ان تهلك هذه العصابة ـ يعني

(١) مناهضة .

المسلمين – لا تعبد » ، وعدها المسلمون دليلا على نصر الله لدينه الحق فقويت معنويتهم • ثم انها ثبتت مركز الاسلام في المدينة وزادت نفوذ سلطته بين العرب ، وساعدت الرسول على تنفيذ سياسة حكيمة وهي عقد المحالفات مع عدة من القبائل المجاورة •

تنظيم المدينة

وحاول الرسول (ص) توطيد الحكم في المدينة ، وقد رأى العصبية القبلية مصدر خطر دائم ، وأيقن أن موقف اليهود كان مدعاة للشك • فبدأ بتنظيم أمور المسلمين وكتب لهم دستورا أحل بموجبه رابطة الاسلام المرتكزة على الود والاخاء محل الرابطة القبلية وجعل المسلمين أمة واحدة ، ومنع الاخلال بالامن ، فاذا فعل أحد ذلك فعلى الأمة جميعا بمن فيها من أقارب المعتدي أن تشترك في وقف الجاني عند حده وعقابه ، ومن مواده أيضاً أنه اذا هوجمت الامة فينبغي أن يقف جميع أفرادها للدفاع عن كيانها • ونص الدستور على أن الرسول هو المرجع الاعلى فى الخلافات • ثم نظم الرسول العلاقة بين المسلمين واليهود في وثيقة أخرى نصت على أن لكل من الفريقين حرية العبادة • ونظم حلفاً دفاعياً عسكرياً لمقاومة كل هجوم خارجي ، واذا حصل نزاع بين الفريقين فمرده الى الرسول بكونه الحاكم الأعلى في المدينة •

اخراج بني قينقاع من المدينة

ولكن اليهود استمروا على معارضة الرسول في المدينة ، وحصل اعتداء من قبيلة قينقاع اليهودية على المسلمين ، فأدى ذلك الى النزاع بينها وبينهم ، وعندئذ حاصر الرسول تلك القبيلة واضطرها الى التسليم واكتفى باخراجها من المدينة وباستصفاء أملاكها وكان هذا مما قوى سلطان الدولة الاسلامية الفتية •

ولنرجع الى حديث العلاقة بين الرسول والمكيين • فان ظفر المسلمين في بدر ملأ المكيين أسى وحزناً • ولكن الذي كان أدهى لهم من ذلك استمرار الرسول على مهاجمة القوافل المكية • ومعنى ذلك قطع ثروة قريش ورفاهيتها ، فكان أبو سفيان يقول « ان أقمنا بمكة أكلنا رؤوس أموالنا » • فشعرت قريش بضرورة اتخاذ تدابير فعالة لوقفه وجهزت جيشاً قويا بقيادة أبى سفيان ، وفيه النساء ينقرن على الدفوف لتشجيع المحاربين على الحرب ، وساروا نحو المدينة وأراد الرسول مناهدة العدو في المدينة ذاتها ، ولكن الحاح أصحابه في الخروج منها جعله يخرج اليهم ، والتقى الجيشان عند (أحـــد) وهو جبل في شمالي المدينة على ثلاثة أرباع الميل منها • وبالرغم من قلة جيش المسلمين ، خصوصاً بعد أن تسحب منه المنافقون قبيل المعركة ، انتصر المسلمون أول الأمر لاتباعهم خطة الرســـول البارعة ، وذلك أنه وضع جماعة الرماة على سفح الجبل لحماية مؤخرة الجيش وأمرهم ألا يتركوا مواضعهم ، ولكنهم لما رأوا تغلب المسلمين وكثرة الغنـــائم تخلوا عن مواضعهم ليشاركوا غيرهم في جمع الغنائم ، فانتهز القرشيون هذه الفرصة للقيام بحركة التفاف ودهموا المسلمين من ورائهم ففلوا جيشهم ، وثبت الرسول ليحمي أصحابه فأصيب بعدة جروح ، ثم تسحب القرشيون دون مهاجمة المدينة خوفا من وقوف أهلها بوجوههم • وكانت هذه المعركة درساً قاسياً للمسلمين عرفوا به سوء عاقبة الالحاح على النبي (ص) وكيد المنافقين ومخالفة الاوامر الحربية • وقد استشهد

كثير من الصحابة منهم حمزة (ر) عم الرسول ، وذلك بعد أن وقفوا وقفة مجيدة أشعرت القرشيين بقوتهم وصلابة ايمانهم •

اخراج بني النضير من المدينة

أضعفت غزوة (أحد) سلطان المسلمين وقتياً في المدينة وعند القبائل ، وازدادت مؤامرات اليهود بالمسلمين وأخذوا يستخفون بهم • ولكن ايمان المسلمين وثباتهم أعادا اليهم سلطانهم ، ثم حدث أن أفراداً من قبيلة بني النضير قتلوا رجلاً من المسلمين فوجد الرسول الفرصة سانحة للتخلص من خطرهم ولتقوية سلطة المسلمين ، فحاصرهم وأخرجهم من المدينة فذهبوا الى خيبر واقتسم المسلمون أملاكهم •

غزوة الخندق

ولم يتوقف الرسول (ص) عن مهاجمة قوافل قريش ، على أن يهود خيبر أخذوا يؤلبون قريشاً وعدة من القبائل عليه ويحرضونهم على قتاله • وشعرت قريش أن ظفر « أحد » لم ينتج شيئاً ، فعزموا على استئصال المسلمين ، ففاوضوا القبائل الموالية لأنفسهم ، وجمعوا عشرة آلاف رجل منهم سموا بالأحزاب ، ثم سار الاحزاب يقصدون المدينة في السنة الخامسة للهجرة • فأثارت هذه الحملة الرعب في قلوب المسلمين ، زيادة على أن تذبذب المنافقين وائتمار اليهود سراً مع قريش جعل الحالة داخل المدينة نفسها خطراً على المسلمين • الا أن الرسول رأى البقاء في المدينة ، وأخذ باقتراح الصحابي سلمان الفارسي ، فحفروا خندقاً حولها لحمايتها وبنوا سوراً حول الأماكن المكشوفة منها ، وبهذا ربك الأحزاب الذين لم تكن لهم خبرة بحرب الخنادق ، فلم يحاولوا الهجوم ولم يقتحم الخندق منهم الا أفراد كان نصيبهم الخيبة فطال حصار المدينة • واستطاع الرسول بمفاوضات سرية أن يثير الشكوك في صفوف أعدائه

وأن يفرق كلمتهم ، ثم ان تغير الجو وهبوب العواصف مما أضعف عزم أهل مكة وحلفائهم ، فتراجعوا دون نتيجة ، ونجا المسلمون • وتعرف هذه الحملة بـ (غزوة الخندق) •

التخلص من بني قريظة

وأكدت غزوة الخندق خطر بقاء اليهود في المدينة ، فقرر الرسول أن لا يترك في بلده عدواً يتحين الفرص للانقضاض عليه ، فحاصر بني قريظة آخر قبائلهم وتخلص منهم بأن قتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم لنقضهم العهد •

صلح الحديبية

وبعد غزوة الخندق توسع سلطان الرسول بالتدريج فصارت القبائل تحترمه وتخطب وده ، وكان الرسول معما رأى من قريش من القسوة والحروب والاضطهاد يريد الابقاء عليهم ما استطاع ذلك ، لانهم قومه وأهله وفي محبة القوم احترام للنفس ، وان ذا النفس العظيمة مثله ليتجنب كل ما يسوء قومه ، وكان يقول « يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين الناس ؟ » • فعزم على أن يسالم قريشاً • ثم قرر في آخر سنة ٦ هـ = ٦٢٧ م زيارة مكة قبيل الحج معتمراً ، ليظهر قوة أتباعه للقبائل المجتمعة للحج وطاعتهم له ، وليبين أن المسلمين يحترمون الكعبة ، فسار في ألف وأربعمائة من أتباعه • وكان بين المكيين من يميل لتحقيق رغباته ، الا أن المتطرفين منهم رفضوا السماح له بالدخول ، وأرسلوا فرقة لمقاومته ، فتوقف عند الحديبية على ثلاثة أميال شمالي مكة • ثم جرت مفاوضات بين الطرفين انتهت بعقد صلح الحديبية وبموجبه وافقت قريش على أن تسمح للرسول بزيارة مكة في السنة الثانية ، وعلى عقد هدنة مع المسلمين مدة عشر سنوات ، وعلى أنه يحق لكل من الطرفين عقد محالفات مع من يشاء من القبائل •

أثر صلح الحديبية

وكان هذا الصلح فوزاً عظيماً للرسول ، لأن قريشاً اعترفت بالمسلمين طرفاً مساوياً لهم ، وانفتح المجال للرسول لعقد محالفات مع القبائل التي لم تكن تطمئن لمحالفته ، لقوة قريش ولوجود الكعبة في مكة • وخير دليل على ذلك أعلان خزاعة حلفها للرسول بعد هذا الصلح • وقد صرح أبو بكر أنه لم يجلب ظفر للاسلام من الاتباع حتى ذلك الحين ما جلبه صلح الحديبية له •

فتح خيبر

ومن النتائج المهمة التي أسفر عنها صلح الحديبية التفريق بين قريش وحلفائها يهود خيبر ، الذين كانوا لا ينفكون يحرضون القبائل على الرسول (ص) ، فكانوا خطراً على المسلمين من الشمال • فهاجم الرسول (ص) خيبر سنة ٧ هـ = ٦٢٨ م وافتتحها ولكنه لم يخرج اليهود منها ، بل تركهم يزرعون على أن يدفعوا للمسلمين نصف الحاصل •

دعوة الامراء والملوك الى الاسلام

وفي هذه الفترة اتجه الرسول بدعوته الى أمراء الجزيرة والى ملوك الفرس والبيزنطيين والحبشة والى المقوقس حاكم الاسكندرية لأن رسالته كانت الى الناس كافة • وقد قبل الدعوة حاكم اليمن الفارسي وأعلن اسلامه وخضعت اليمن للنبي • كما أشرنا اليه في الكلام على الدولة الحميرية •

ولما حج الرسول في السنة الثانية أثر في معنوية زعماء قريش وجعلهم يهابونه كثيراً ، وأسلم رجالات قريش مثل خالد ابن الوليد وعمرو بن العاص •

حملة مؤتة

ثم حاول الرسول بسط نفوذ سلطته على القبائل العربية في جنوبي الشام ، لأنهم كانوا مصدر اضطراب للمسلمين ، فأرسل


القسم الشمالي من بلاد العرب
لبيان بعض الاماكن ومواطن بعض القبائل التي يرد ذكرها
في تاريخ الفتح الاسلامي
بقلم الشيخ محمد فخر الدين المدرس بدار العلوم
اسماء القبائل مكتوبة بالخط الفارسي
بحر الروم
قبرص
حلب
قنسرين
الفراض
الرصافة
النمر بن قاسط
الشام
دمشق
اليرموك
بصرى
فلسطين
وادي عربة
غزة
القلزم
أيلة
تبوك
دومة الجندل
طيئ
نجد
الثعلبة
فيد
تيماء
الحجر
خيبر
فدك
وادي القرى
المدينة المنورة
اليمامة
هجر
القطيف
دارين
الأنبار
عين التمر
الحيرة
مدائن كسرى
نهاوند
المذار
الولجة
الأبلة
الكواظم
البطاح
بزاخة
النيل

في السنة الثامنة من الهجرة جيشاً من أصحابه فقابلهم البيزنطيون وحلفاؤهم من قضاعة ، وكانت عدتهم أضعاف عدة المسلمين ، واصطدم الجيشان عند مؤتة ، في شرقي الاردن ، وكاد جيش المسلمين يمحى لولا أن أنقذ بقيته خالد بن الوليد • ولكن الحملة لم تخل من فائدة لأنها اكسبت المسلمين خبرة وعرفتهم بقوة أعدائهم •

فتح مكة

بث الرسول دعوته بين القبائل فأسلم بعضها دون بعض ، وحافظ على علاقاته السلمية مع قريش حتى نقضت هي بنود الصلح حين نصرت حليفتها بكراً على خزاعة حليفة الرسول ، فقرر الرسول (ص) فتح مكة وجهز حملة من عشرة آلاف من المهاجرين والانصار وحلفائهم من القبائل المسلمة ، وسار بهم في شهر رمضان سنة ٨ هـ = ٦٢٩ م وكتم الغرض من هذه الحملة لئلا تستعد قريش لها حتى صارت في طريقها الى مكة • وعندما علمت قريش بقدوم الرسول اليها تخاذلت وقررت مفاوضة المسلمين ، وأرسلت أبا سفيان مع اثنين لهذا الغرض • جاء أبو سفيان الى الرسول فأسلم وحصل على أمان للمكيين لمن لزم بيته أو دخل البيت الحرام وترك المقاومة • ثم دخل الرسول مكة وعامل أهلها بكرم وتسامح منقطعي النظير ، فعفا عن أعدائه واجتذب قلوب ذوي الشخصيات الكبيرة ، ثم حطم الاصنام التي في الكعبة وحولها • ودخل المكيون في الاسلام « وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » •

اخضاع هوازن وفتح الطائف

ولكن الخطر بقي يهدد المسلمين من جانب قبيلة هوازن العظيمة فقد خافت الرسول ، لانه صار يهدد مصالحها الاقتصادية والدينية وأخذت تستعد لقتاله • ويهددهم من جانب مدينة

الطائف حليفة قريش • فناهد الرسول هوازن في (حنين) وبعد معركة حامية كادت تمزق المسلمين ، غلب النبي (ص) العدو بثبات جماعة من أصحابه ثم حاصر الطائف ففتحت له أبوابها واستسلمت •

حملة تبوك

وفي السنة التالية لما قبلها سار الرسول (ص) بحملة الى الشام لورود اشاعة مفادها أن انبراطور البيزنطيين جمع جيشاً لمحاربة سيد الحجاز ، ولعله أراد نشر الاسلام خارج الجزيرة • وسارت الحملة في الصيف حتى بلغت تبوك ولكنها لم تجد أحداً • فأخضع الرسول عدة من المدن النصرانية واليهودية الواقعة شمالي الحجاز ، وتأكد عنده أن لا خطر عليه من الشمال •

وفود الجزيرة تقدم الطاعة للرسول

لقد وسع فتح مكة سلطان المسلمين وأصبحوا حماة الكعبة والمسيطرين على أسواق الحجاز وعلى أهم الطرق التجارية ، وصارت لقوتهم أهمية خاصة في الجزيرة بعد الانتصار على هوازن ، ولم تكن في الجزيرة قوة تذكر بجنب قوتهم • فتواردت وفود القبائل من مختلف أنحاء الجزيرة الى الرسول ، رغبة في الدين الجديد أو رهبة من سلطانه وأعلنت خضوعها له • فشمل نفوذ سلطة الاسلام معظم أنحاء الجزيرة ، وبعث الرسول ممثلين عنه الى مختلف القبائل ليقرئوهم القرآن وليفهموهم أصول الدين ، وليجمعوا الزكاة منهم • ولكن هذا التوسع السريع للاسلام أدخل فيه من القبائل من كانت دوافعهم سياسية أو مادية فظهر أثر ذلك بعد وفاة النبي (ص) •

حجة الوداع

وكانت قمة أعمال الرسول (ص) الذهاب الى الحج مع جمع كبير من المسلمين سنة ١٠ هـ = ٦٣١ م وهذه هي حجة الوداع • وخطب الرسول في الحجاج خطبة مشهورة ذكر فيها كثيراً من

مبادىء الاسلام فأكد فيها حرمة النفس والمال (لا يحل لامرىء مال أخيه الا عن طيب نفس منه) ، وأكد أن المسلمين أخوة متساوون لا يتميز واحد عن آخر الا بالعمل (انما المؤمنون أخوة . ان أكرمكم عند الله أتقاكم) ، وأوصى باحسان معاملة النساء (واستوصوا بالنساء خيراً) ، وحرم الربا واسقط الفائض على الديون بكل أشكاله . لأن الفائض كان وسيلة بأيدي الاغنياء لارهاق الفقراء واذلالهم (ان كل ربا موضوع) ، وذكر المسلمين بأن دستورهم الاعظم هو كتاب الله وسنة نبيه .

تجهيز حملة أسامة

وبعد رجوع الرسول الى المدينة أعد حملة واسند قيادتها الى أسامة بن زيد مولاه ، وأراد ارسالها الى الشام لتأديب القبائل الساكنة هناك ، وليثأر بما أصاب المسلمين في مؤتة ، ولكن مرضه حال دون ارسالها فقد أصيب بحمى شديدة أدت الى انتقاله الى جوار ربه يوم **١٢** شهر ربيع الاول سنة **١١** هـ = **٨** حزيران **٦٣٢** م وله من العمر ثلاث وستون سنة .

وفاة الرسول

شخصية الرسول

ان المؤرخ ليقف بخشوع واجلال بين يدي شخصية الرسول العظيمة كل العظمة فهي فذة في سمو الخلق ، وكرم النفس وفي المرونة السياسية والبراعة العسكرية والقدرة على التأثير في الآخرين وفي البيان وقوة الحجة ، وفي التواضع والصبر والثبات في كفاح دام ثلاثا وعشرين سنة ، وفي النزعة الانسانية التي تقصد لخير البشرية عامة .

وكان الرسول قدوة أصحابه في كل ما قال وما فعل وما استحسن . فهو مثلهم الأعلى والشخصية الكاملة ، ولم يذكر لنا التاريخ شخصية اقتدى بها الى هذا الحد في التدقيق والشمول .

أثر الاسلام فى العرب

جاء الرسول ، والعرب متفرقون سياسياً تمزقهم العصبية وتضعفهم الفردية يظلم القوي منهم الضعيف ، ويستغل الغني منهم الفقير ، وهم في مستوى ديني ســـاذج ، وفي وضع اجتماعي مضطرب • يعيش أكثرهم عيشة غزو وسلب في الغالب ، فنقلهم الى مستوى روحي عال وهداهم من الشرك الى التوحيد وهذب من أخلاقهم ، وقاوم العصبية القبيلية والخصومات والثأر عند القبائل فنجح الى حد كبير ، وجعل الدين والاخوة والتعـــاون أساس صلاتهم الاجتماعية • وحث على مساعدة الفقير وحرم الربا ، وفرض الزكاة ومنع اكتناز الذهب والفضة ليخفف من الفوارق الاجتماعية ، وجمع العرب تحت راية واحدة ، فوحدهم بعد تفرقهم وقواهم بعد ضعفهم ، وألف بين قلوبهم بعد تباغضهم ، فخلق منهم وحدة بعد أن كانوا مبعثرين • وطمس لهجاتهم المتعددة وجعلهم يتكلمون بلغة قريش التي نزل بها القرآن ، وبعث فيهم روحاً جديدة مكنتهم من تأسيس انبراطورية مترامية الاطراف خلال قرن واحد ، وفتح أذهانهم وقلوبهم حتى كونوا حضارة واحدة •

أسئلة الفصل الثاني

(دروس الرسالة)

١ ـ ماذا تعرف عن نشأة الرسول من حيث المركز والغنى والنسب والتربية وهل كانت معززة لدعوته ولماذا ؟

٢ ـ كيف كانت حالة العرب وخصوصاً أهل مكة قبيل ظهور الاسلام ؟

٣ ـ ما المبادىء والتعاليم الجديدة التي جاء بها الاسلام ؟

٤ ـ هل كانت قريش شديدة في عدائها ومقاومتها لمحمد ولماذا ؟

٥ ـ أذكر وسائل الترغيب والاكراه التي التجأت قريش الى استعمالها مع النبي (ص) لتثنيه عزمه وتحوله عن دعوته .

٦ ـ هل كانت هجرة الرسول والمسلمين الى المدينة مهمة ولماذا ؟

٧ ـ مم أصبح سكان أهل المدينة يتألفون بعد الهجرة وكيف كان موقف النبي (ص) من كل منهم ؟

٨ ـ ما أهم الغزوات التي وجهها الرسول على المشركين بحسب تسلسل أهميتها ؟

٩ ـ بماذا تميزت غزوة بدر وما أهميتها بالنسبة لانتشار الاسلام ؟

١٠ ـ ما هي أهمية غزوة أحد وكيف استطاع المسلمون استعادة قوتهم وسلطتهم

بعـــــدها ؟

١١ ـ بماذا تميزت غزوة مؤتة عن بقية الغزوات وما أهميتها ؟

١٢ ـ ما أهمية غزوة الخندق ؟

١٣ ـ عرف ما يأتي ومن يأتي بايجاز :

(١) حلف الفضول • (٢) حرب الفجار • (٣) حنين • (٤) مؤتة • (٥) بيعة العقبة الأولى • (٦) وقعة الخندق • (٧) هوازن • (٨) حجة الوداع • (٩) الأوس والخزرج • (١٠) أبو لهب • (١١) صلح الحديبية • (١٢) خيبر • (١٣) أسامة بن زيد •

الباب الثالث

الفصل الاول

دور الراشدين

تثبيت الدولة العربية وتوطيدها

في خلافة الراشدين

تمهيد

توفي الرسول (ص) سنة ١١ هـ = ٦٣٢ م وخلفه من بعده أربعة خلفاء من قريش أطلق عليهم « الخلفاء الراشدون » وهم على التعاقب في الخلافة : أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ، ولم تكن الرئاسة يومئذ من الأمور الوراثية بل كانت انتخابية تراعى فيها السن والحنكة والتجربة ونفوذ الكلمة وخدمة الاسلام • وقد تم في زمن هؤلاء الخلفاء تثبيت أركان الدولة العربية التي وضع الرسول أسسها ، وتم بسط سلطتها على العراق وفارس والشام ومصر وأرمينية وجزء من طرابلس ، وتم للعرب الانتصار على الانبراطوريتين الفارسية والرومانية ، ونحن الآن ذاكرون لك كل شيء من سيرة هؤلاء الخلفاء وأعمالهم على سبيل الايجاز ، ثم مفصلون القول في الفتوحات العظيمة التي فتحوها في فصل آخر •

ابو بكر

فاما أبو بكر (ر) فهو صاحب الرسول (ص) وأبو زوجته عائشة . وكان من كبار رجال قريش ومن أهل الغنى والثروة فيهم . اكتسب أمواله بتجارته في الجاهلية والاسلام وأنفقها في سبيل الدعوة الاسلامية . ولقى من قريش أشد الاذى وهاجر مع الرسول الى المدينة وقد أشارت الآية الكريمة « ثاني اثنين اذ هما في الغار » الى ذلك ، وشارك الرسول (ص) في جميع الحروب التي خاض غمارها . وقد بايعه المسلمون بعد وفاته في سقيفة بني ساعدة ودام حكمه من سنة ١١ هـ = ٦٣٢ م الى سنة ١٣ هـ = ٦٣٤ م ، وفي يوم توليته الخلافة خطب الناس خطبة شرح لهم فيها خطة سياسته في ادارة البلاد وأمرهم بأتباع العدل وحثهم على الجهاد والمحافظة على الدين وطاعة الخليفة ما دام منفذاً لاحكام الشريعة ومتبعاً القرآن وسنة الرسول (ص) .

خطبته الأولى

قال (ر) بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم . فان أحسنت فأعينوني ، وان أسأت فقوموني . الصدق أمانة ، والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه ان شاء الله . لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله الا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم الا عمهم الله بالبلاء . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فان عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله » .

حروب الردة

واشتهر أبو بكر بتوطيد دعائم الدولة العربية بعد الاضطراب الذي أصابها على أثر حادثة « الردة » التي سيأتي ذكرها ، وبتوحيد العرب الذين انشقوا بعد وفاة الرسول (ص) ، وتسيير أمورهم وسط الخطوب المدلهمة الشبداد وحروب الفتن

الكثيرة التي تتابعت ، بالحكمة وحسن التدبير حتى جعل الاسلام منيع الجانب ثابت الاساس . واليك مجمل هذه الحروب .

المرتدون

قبيل وفاة الرسول (ص) وفي أول خلافة أبي بكر ثارت قبائل كثيرة في مختلف أنحاء الجزيرة العربية ، كاليمن وعمان واليمامة والبحرين ، ففي اليمامة ثار مسيلمة الملقب بالكذاب وادعى أنه نبي الله وخليفة الرسول (ص) في نبوته ، وتبعه خلق كثير من بني حنيفة . وادعت سجاح التميمية النبوة في بني تميم واتفقت مع مسيلمة وتزوجته . وفي أطراف نجد ادعى النبوة طليحة بن خويلد الأسدي في قبيلة غطفان وأسد . وثار الأسود العنسي في اليمن ، وكذلك فعل مالك بن نويرة واتبعه بنو تميم ، ودهم الخطر الدولة العربية من كل مكان فلم يثن ذلك أبا بكر (ر) عن تنفيذ أوامر الرسول (ص) ، فأرسل جيش أسامة بن زيد الذي كان الرسول قد أمر بتجهيزه قبيل وفاته ـ كما أشرنا اليه ـ بالرغم من بقاء المدينة من دون حامية وبالرغم من انتقاض العرب في كل ناحية . قائلاً « والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تتخطفني لأنفذت جيش أسامة كما أمر رسول الله » (ص). خرج الجيش بقيادة أسامة وهو يومئذ شاب لا يتجاوز عمره ١٨ سنة وتحت لوائه عدد كبير من جلة الصحابة وكبار القوم . وفي ذلك مثل رائع للطاعة التي خلفها الرسول في نفوس العرب وكان دور كبير في الفتوحات العربية . وصل الى حدود بلاد الشام لتأديب قضاعة بما ساعدوا الروم في واقعة مؤتة ثم رجع مثقلا بالغنائم .

قواد المسلمين في حروب الردة

ومن ثم جهز أبوبكر (ر) احدى عشرة فرقة ، وعقد لها أحد عشر لواءاً لاحد عشر قائداً أشهرهم :

١ – خالد بن الوليد « سيف الله وبطل حروب الردة » بعثه لمحاربة طليحة بن خويلد الأسدي فاذا فرغ منه سار الى مالك بن نويرة .

٢ – عكرمة بن أبي جهل أرسله لمحاربة مسيلمة الكذاب في اليمامة .

٣ – شرحبيل بن حسنة أرسله في أثر عكرمة .

٤ – المهاجر بن أمية بعثه لمحاربة الأسود العنسي في اليمن ثم محاربة كندة في حضرموت .

٥ – عمرو بن العاص لمحاربة قبائل قضاعة .

٦ – خالد بن سعيد بن العاص الى مشارف الشام .

٧ – العلاء بن الحضرمي الى البحرين .. الخ .

فأما طليحة الأسدي فقد التقاه خالد في (بزاخة) في أرض نجد ، وأسفرت الحرب عن ظفر خالد . ولما لقي جيوش بني تميم فرقهم وتغلب عليهم ثم تمكن من القضاء على مسيلمة ، وذلك أن مسيلمة استطاع أن يتغلب أول الامر على عكرمة ومن بعده على شرحبيل ، وتكاثر جيشه حتى بلغ ٤٠ ألفاً فأرسل أبو بكر (ر) اليه خالداً لقتاله فالتقاه في معركة تعرف بـ (حديقة الموت) ، وكاد ينتصر فيها مسيلمة لولا أن كبار الصحابة وصناديدهم صبروا في قتال العدو واستولوا على حصونهم ، وحصروهم في البساتين وقتل مسيلمة كما قتل من الفريقين عدد كبير . وخسر المسلمون يومئذ عدداً كبيراً من القراء وحفظة القرآن من المهاجرين والأنصار ، وبقتل مسيلمة قضي على أكبر المرتدين وأقواهم . اما

سائر القواد في اليمن والبحرين ونجد فقد تمكنوا من ضرب الثائرين واخضاع العصاة ورجعهم الى حظيرة الاسلام •

وتعرف هذه الحروب بحروب الردة وهي حروب أهلية سياسية دينية أجّجت في كل مكان • وكادت تقضي على الدولة العربية ، وهي بعد فتية ، لولا الموقف الحازم الذي وقفه الخليفة أبو بكر في قتال هؤلاء المرتدين ، يساعده على ذلك أصحاب الرسول ، ومنهم قواد محنكون وجنود باعوا أنفسهم من الله ـ تعالى ـ واستقتلوا في سبيل الدين واستبسلوا •

أسباب الردة

ونستخلص أهم أسبابها فيما يلي :ـ

(١) ان الاسلام لم يتغلغل في قلوب العرب الذين أسلموا قبيل وفاة الرسول ، ولم يدخل الايمان في قلوبهم ، فارتدوا عن الاسلام وثاروا بعد وفاته يريدون البطش بالمسلمين • (٢) أن من القبائل من ثقل عليهم أداة الزكاة ، وعدوها ضريبة مهينة فامتنعوا عن دفعها له • (٣) أن عدة قبائل خضعت للرسول خضوعاً سياسياً ، ولم تعترف بحكومة أبي بكر ، فثارت عليه (٤) العصبية ، فانه يظهر أن القبائل القحطانية صعب عليها الخضوع للعدنانيين بعد أن كانت لها السيادة في الجاهلية ، فثار أهل اليمن على أهل الحجاز بدافع العصبية ، وثبت بازائهم أهل مكة والمدينة والطائف خاصة • (٥) عدم وصول الدعوة ، فقد كان في الجزيرة قبائل لم يمتد اليها سلطان الرسول ، فوجه أبو بكر عليها جيوشه ليخضعها وليتم توحيد الجزيرة بهم • هذا مع علمنا بأن القبائل على الوجه العام لم تتعود الحكم المركزي • ولهذا سرعان ما خرجت على الحكومة المركزية متأثرة بالعوامل السالفة الذكر •

نتائج حروب الردة

وكان من أهم نتائج هذه الحروب : توحيد الدولة العربية ، واستئصال البقية الباقية من الشرك ، ورسوخ الاسلام في النفوس ، وتوحيد وجهة العرب ، وتوجيههم الى ضرب دولتي الروم والفرس اتماماً للعمل السياسي العظيم الذي بدأ به الرسول (ص) ، ونشر الاسلام واعلاء كلمة الله بين أمم كان لها مع العرب شؤون وشجون •

عمر بن الخطاب

شرع أبو بكر في تنظيم الخطط الواسعة لفتح العراق والشام وأرسل اليهما الجيوش وأمر عليها الأمراء ، غير أنه توفي والجيوش العربية مشتبكة مع الروم والفرس ، (فدفن في حجرة ابنته عائشة بجوار صاحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم) فخلفه صاحبه عمر بن الخطاب العدوي الملقب بالفاروق على حسب وصيته التي دوّنها ، بعد أن استشار كبار الصحابة في ذلك ، وعمر هو ثاني الخلفاء الراشدين • كان يشتغل بالتجارة في مكة ورحل من أجلها الى العراق والشام واليمن والحبشة ، وظل يحترف بها في الجاهلية والاسلام الى ان ولي الخلافة • واشتهر ببلاغة اللسان ، ورباطة الجأش ، ومضاء العزيمة فلذلك جعلته قريش سفيراً بينها وبين قبائل العرب في السلم والحرب •

أعز عمر الاسلام في زمن النبي (صلى الله عليه وسلم) واشتد امره على قريش وكادوا يقتلونه وناله من أذاهم شيء كثير ، ولما هاجر المسلمون الى المدينة سراً هاجر علناً وأنذر من يريد أن يتبعه من القرشيين فلم يتبعه أحد منهم • دافع عن الرسول في مواطن كثيرة واشتد على من ناوأه من القرشيين ، وشهد معه جميع غزواته وحروبه • تزوج الرسول ابنته حفصة ، وفي مدة

خلافته استطاع أن يتم الفتوحات التي بدأها أبو بكر فتم في عهده فتح العراق وعامة بلاد فارس وفتحت بلاد الشام ومصر بأسرها •

عنايته بالمسلمين

وكان عمر كثير الاهتمام بأمور شعبه وقد بلغ اهتمامه بمصالحهم أنه قال : « لو أن جملا هلك ضياعاً بشط الفرات لخشيت أن يسأل الله عنه آل خطاب » • وكان يقول : « والله لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه » ، وقال لعاملين له ولاهما مساحة العراق ووضع الخراج على السواد : « أخاف أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيقه ، لئن سلمني الله لأدعن أرامل العراق لا يحتجن الى رجل بعدي » •

تنظيم العطاء

فرض عمر للناس رواتب وجرايات على حسب القرابة من الرسول والسبق في الاسلام والخدمة للأمة وبدأ بأهل بدر وانتهى بأهل اليرموك والقادسية وغيرهم ممن نزح الى الأمصار ، وقد ساوى بين العرب والموالي الذين هم في مرتبة واحدة في العطاء • وكان عمر يستشير كبار الصحابة في الامور العامة كعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف وغيرهم • جرى بينه وبين رجل كلام فقال له الرجل : اتق الله • فقال رجل من القوم : أتقول لأمير المؤمنين ، اتق الله ! فقال عمر : دعه فليقلها لي ، نعم ما قال ، لا خير فيكم اذا لم تقولوها ولا خير فينا اذا لم نقبلها • وهكذا ظل عمر دؤوباً على عمله يحب رعيته زاهداً في أموالهم • فسير العرب في الطريق المستقيم وأنشأ منهم أمة عزيزة لا ترضى بالذل الى ان اغتاله مجوسي موتور يقال له فيروز وكنيته أبو لؤلؤة بعد مؤامرة فارسية ، كان من ابطالها الهرمزان ، فقد

ساءهم فتح العرب لبلادهم واحتلالهم اياها • وكانت وفاته في ٢٦ ذي الحجة سنة ٢٣هـ = ٦٤٤م ودفن في حجرة عائشة مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأبي بكر • وكان اعتماده على العرب المسلمين ولذلك أخرج من الجزيرة العربية من كان على غير دينهم • وهو القائل لولاته : « لا تجلدوا العرب فتذلوها » • وكان لا يرى الزواج بالاعجميات ، فكان يقول لاصحابه : « في نساء الأعاجم خلابة فان أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم » •

اعتماده على العرب

التنظيمات الادارية

وضع عمر أهم الأسس لادارة الدولة العربية ، على حسب العدل الاسلامي ، مستنيراً بما سار عليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأبو بكر • ورضي الناس وضعه وتقبلوا حكمه ، وأصبحت أحكامه وسيرته وسياسته قدوة لكثير من عماله الذين كانوا يساعدونه على ادارة أمور الانبراطورية العربية الواسعة وقدوة لكثير ممن جاء بعده •

عماله وولاته

مصر عمر الأمصار فبنى البصرة والكوفة والفسطاط وقسّم المملكة الى ولايات ، وعين عليها العمال والأمراء ، لمراقبة شؤونها الدينية والعسكرية والاقتصادية ، وعين لهم رواتب بحسب الحاجة والبلد • وكان يوصيهم بالرفق بالناس والعدل فيهم ولا يرضى لهم الشدة في استيفاء الحقوق والتزيد على ما أمر الله أن يؤخذ من الناس • وكان يحصي على العمال أموالهم قبل توليتهم فاذا

زادت بعد ولايتهم بسبب الاشتغال بالتجارة أو غيرها قاسمهم من حيث انهم قضوا جزءاً من أوقات عملهم في سبيل المنافع الخاصة • وكان يطلب من العمال والولاة والقواد ان يوافوه في موسم الحج فيعقد معهم المؤتمرات للنظر في شؤون ولاياتهم •

الديوان

وعندما تكاثرت أموال الفتح على العرب وزادت واردات الدولة من الخراج والجزية والصدقات دوّن عمر الديوان وهو السجل أي « مجتمع الصحف ، والكتاب ، تضبط فيه أسماء أهل العطاء والجرايات » دوّنه له نفر من نبهاء قريش • وكان عمر يحمل هذا الديوان وينزل في كل قبيلة فيوزع في الناس اعطياتهم لا تغيب عنه امرأة ولاثيب فيعطيهن في أيديهن • وأحصى في الديوان أسماء الجنود حتى صار يعرف جنود كل وجه • ومن تأخر منهم عن وجهه • ورتب لهم الأرزاق من بيت المال ولم يسو بين الجنود في العطاء ، كما فعل أبو بكر من قبله ، وعلي بن أبي طالب من بعده • وكان لكل جند عرفاء يلون أمورهم ويقبضون أرزاقهم ويوزعونها فيهم •

القضاء

ولما اتسعت الفتوحات في عهده واشتغل بتدبير الجيوش فوض أمور القضاء الى غيره • وكان يبعث القضاة الى الأقطار • وظلت هذه الحال حتى نهاية الراشدين وأصبح القضاة في عهدهم مستقلين في الحكم ، ومرجعهم الأعلى الخليفة ، فهم نوابه ووكلاؤه وليس لامراء الأمصار عليهم حكم ولا سلطان •

أمور أخرى

وكان يعين مرشدين في الأقطار المختلفة لتعليم الرجال والنساء أمور الدين ، ويعين مفتشين لرقابة العمال وسائر الموظفين . ومن أعماله العناية بتنظيم نقل الأخبار بينه وبين الولاة والجيوش بالسرعة الممكنة في سائر أنحاء المملكة . ومن أعماله أيضاً عنايته برقابة الاسواق والموازين والعيارات والمكاييل ومنع الغش الى غير ذلك مما سمي بالحسبة والاحتساب بعد ذلك .

الواردات

أما واردات الدولة فكانت تجتمع من الخراج والجزية والصدقات والعشور والاخماس .

الخراج

أما الخراج فهو ضريبة كانت تؤخذ من الأرض التي امتلكها المسلمون عنوة أى حرباً وتركوها في أيدي أهلها كأرض العراق والشام . أما الأراضي العربية أو الاعجمية التي أسلم أهلها عليها فقد جعلوا عليها عشر ما تخرجه من الحاصلات . وأما

الجزية

الجزية فهي ضريبة تؤخذ من أهل الذمة في مقابل حمايتهم وعدم مشاركتهم العرب في الحروب ، وهي لا تؤخذ من الأطفال ولا من الشيوخ والعاجزين ، وقد أسقطها عمر عن المساكين منهم ، وكانت الجزية تقدر على حسب أحوال الناس ولا تزيد على ٤٨ درهما فى السنة ، ولا تنقص عن ١٢ درهماً .

الزكاة

وأما الصدقات أي الزكاة فهي مقادير معينة من الأموال تؤخذ من المسلمين من جميع أموالهم من الابل والبقر والغنم والذهب والفضة وما تخرجه الأرض أي العشر المذكور آنفاً ، وكانوا يعينون جباة للصدقات يعملون على جمعها ، ليصرفها الامام الى وجوهها الشرعية .

العشـــر

والعشر ضريبة كانت الدول الأجنبية تأخذها من تجار المسلمين • ففرض الاسلام العشر على تجار تلك الدول الذين يتاجرون في بلاد الاسلام ، كما فرضوا نصف العشر على أهل الذمة ، وقد نظمت ضرائب التجار والخراج في خلافة عمر ، وكانت الضرائب المفروضة على أهل البلاد المفتوحة من جزية وخراج معتدلة ، وهي في مجموعها أقل مما كانوا يؤدونه الى الفرس والروم قبل الفتح العربي •

الأخماس

أما الاخماس فهي من خمس الغنائم التي كان المسلمون يغتنموها في حروبهم ويرسلون بها الى دار الخلافة لتوزع في الناس بحسب ما جاء في القرآن •

عثمان بن عفان (الشورى)

وبعد وفاة عمر خلفه في الحكم عثمان بن عفان وقد انتخب من بين رجال الشورى الستة الذين عينهم عمر قبيل وفاته لانتخاب الخليفة من بينهم وهم : عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام وطلحة بن عبيدالله ، وكان عمر قال : اذا أنا مت فتشاوروا ثلاثة أيام ولا يأتين اليوم الرابع الا وعليكم أمير منكم ، ويحضر عبدالله بن عمر مشيراً ولا شيء له من الأمر • وقال للمقداد بن الأسود : اذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت وقم على رؤوسهم حتى تختاروا رجلاً منهم ، فان اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف ، وان اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما بالسيف ، فان رضي ثلاثة رجلاً منهم وثلاثة رجلاً منهم فحكموا عبدالله بن عمر فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم ، فان لم ترضوا بحكم عبدالله

بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس • فبويع عثمان بن عفان بالخلافة • وكان من التجار المشهورين ، ولذلك كان واسع الثروة ، وكان محبباً في قريش • ومن السابقين الأولين الى الاسلام • وبعد اسلامه زوجه الرسول ابنته رقية ولما ناله أذى قريش هاجر الى الحبشة ، ثم رجع الى مكة وهاجر الى المدينة وكانت رقية معه الى أن توفيت بالمدينة يوم بدر ولذلك لم يحضر هذه الموقعة ، أما الحروب الأخرى التي خاض الرسول غمارها فقد شارك فيها جميعاً ، ثم زوجه الرسول ابنته الأخرى أم كلثوم الى أن توفيت في السنة التاسعة للهجرة ، وكان كريم النفس جواداً بماله سخي اليد ، بذل أموالاً كثيرة في نصرة الدعوة الاسلامية ، لم يبذل مثلها أحد • وكان يتولى الكتابة للرسول ، ثم كان كاتباً وأميناً لأبى بكر وعمر ، يستشار في الأمور المهمة ويؤخذ برأيه في الأعمال الجليلة •

وصيته لعماله

ولما ولي الخلافة كان من جملة ما كتب الى عماله « ألا وان أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم • » وكتب الى الناس في الأمصار : « ايتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، ولا يذل المؤمن نفسه ، فاني مع الضعيف على القوي ما دام مظلوماً ان شاء الله » •

وفي زمنه أكملت فتوح عمر (ر) في بلاد الروم والفرس وأنشيء اسطول في البحر الرومي « الأبيض المتوسط » فأصبحت الدولة العربية دولة بحرية ، وقام باجراء تعميرات مهمة في الحرمين الشريفين وبتوسيعهما •

جمع القرآن

ومن الأعمال الجليلة التي تمت في خلافته ترتيب القرآن ، واستنساخ المصاحف • وذلك أن القرآن دون في حياة الرسول (ص) على الرقوق والحجارة والألواح المختلفة ، دونه كتاب الوحي أمثال علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت (رضى الله عنهم) ، وفي وقعة اليمامة بين المسلمين وأهل الردة قتل عدد كبير من القراء الذين كانوا يحفظون القرآن كما قدمنا ذكره • فأشار عمر على أبى بكر (رضى الله عنهم) بجمع القرآن في صحف متفرقة ، وبعد وفاة أبي بكر (ر) انتقلت هذه الصحف الى عمر (ر) • وبعد وفاته احتفظت بها ابنته حفصة زوج النبي (ص) • ولما آلت الخلافة الى عثمان (ر) وتفرق المسلمين في البلاد الجديدة التي افتتحها العرب اختلف الناس في قراءة القرآن وترتيبه ، وكان الاختلاف على أشده في الكوفة والبصرة ودمشق ، فعزم عثمان اذ ذاك على توحيد المصاحف وترتيبها على نسق واحد ، فألف لهذه المهمة لجنة برئاستها الى زيد بن ثابت فنظموا نسخة بعد تحقيق الآيات وترتيبها بالشكل الذي عليه القرآن اليوم ، ثم استنسخوا مصاحف وزعها عثمان (ر) في كل من مكة والمدينة والكوفة والبصرة ودمشق وأبقى عنده النسخة الأصلية •

الفتنة

وظل عثمان (ر) محبوباً من الناس للينه وكثرة ما نالهم من الأموال على عهده ، غير أنه في أواخر خلافته كثر الشغب عليه من أهل العراق ومصر ، فوفدت وفودهم الى المدينة وحاصروه في داره وتمكنوا من قتله سنة ٣٥ هـ بعد أن دامت خلافته ١٢ سنة • ودفن بالبقيع وقد دافع عنه جماعة من الصحابة وأبنائهم

منهم علي بن أبي طالب (ر) فانه أرسل ابنيه الحسن والحسين الى داره ليذبا(١) عنه • وكان مما قاله عثمان حين نقمت عليه الأمصار : « اني قد وليت واني أكثر العرب بعيراً وشاة فما لي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجي » • ودامت الفتنة بعد عثمان نحو خمسة أعوام أخرى انتهت بمقتل علي بن أبي طالب (ر) •

أسباب الفتنة

وتستخلص أسباب الفتنة فيما يلي :

(١) أن الفتوحات خفت في آخر خلافة عثمان (ر) وبذلك قلت الأموال والغنائم فنتج من ذلك تباين اجتماعي عنيف بين الطبقات الغنية التي أثرت بسبب الفتوحات ولاسيما قريش • والطبقات التي ظلت فقيرة تنظر بحسرة الى رفاهة القرشيين وأبهتهم واستيلائهم على المناصب الخطيرة في الدولة ، كالخلافة والولاية والقضاء وقيادة الجيوش •

(٢) فقدان الشواغل فقد ساعدت قلة الفتح أيضاً على عدم ما يشغل الناس ويلهيهم ، فمالوا الى الاجتماعات في الدواوين والتفاخر والتحدث عن أيام العرب وبلائهم في العراق والشام ومصر وفارس ، وكان هذا التفاخر يكون في الغالب على شكل خصومة قبيلية بين قريش وسائر القبائل ـ التي صارت تحسدها على مكانتها ـ وكان ينتهي أحياناً بالسب والضرب والمشاغبة على الولاة • حدث في احدى الليالي أن الوالي قال لوجوه أهل الكوفة : « انما هذا السواد بستان لقريش » فاغضبهم كلامه ورد عليه الأشتر النخعي بقوله : « اتزعم أن السواد الذي افاءه(٢)

(١) ليدافعا •
(٢) من الفيء وهو الوارد من البلاد المفتوحة من جزية واخراج وغيرهما •

الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك ؟ والله ما يزيد أوفاكم نصيباً الا أن يكون كأحدنا » . وانفض زعماء الكوفة عن الوالي ولم يجتمعوا في داره وأخذوا ينتقدون عليه ، فأمر عثمان بنفيهم الى الشام ففرقهم معاوية في مدن الشام وقال لهم : « لو لم تكن قريش كنتم أذلة » . فرد عليه أحدهم قائلا : « أما ما ذكرت عن قريش فانها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية » .

(٣) اذن عثمان (ر) لزعماء العرب من المهاجرين والأنصار في الخروج من الحجاز الى حيث أحبوا ، وخالف بذلك طريقة عمر (ر) فقد كان يبقيهم في المدينة ولا يأذن لهم في مغادرتها الا باذن منه وأجل مسمى ، فكان لهؤلاء الزعماء أو دعاتهم تأثير في النفوس ، فافتتن الناس بكلامهم ومالوا اليهم . واستغل قوم من أهل الكوفة والبصرة ومصر أسماء جماعة من الزعماء من الصحابة والمراءاة بالتحزب لهم ، يدفعهم التعصب الاقليمي والنزعة القبلية اللا مركزية ، ولذلك لم يكن من السهل تلافي الفتنة .

(٤) لين عثمان (ر) فقد ساعد على ذلك أن عثمان كان بالنسبة الى عمر بن الخطاب (ر) وشدته ليناً متساهلاً على العمال والناس ، فلم يخش الناس منه تنكيلاً ولا عقاباً فاستمروا على شغبهم .

(٥) القرابة فقد ألب المشاغبون الناس عليه بعلة اعتماده على أقاربه من الأمويين بعصبية خاصة ، وتعيينهم في الوظائف المختلفة .

(٦) استفحال الفتنة بتأثير جماعة من المغرضين ممن نافق بالاسلام كعبدالله بن سبأ وغيره ، فوجدوا الفرصة سانحة للتضريب بين المسلمين والتفريق بين صفوفهم ، وعبدالله بن سبأ هذا « يهودي

الهوى يمني المنشأ فارسي الأصل والمذهب » . وفي خلافة علي (ر) انكشفت حقيقته وحقيقة أصحابه من السبئية وذلك مما حدا الامام علياً على أن ينفيه وينكل بجماعته .

علي بن أبي طالب

وعلي بن أبي طالب (ر) هو ابن عم الرسول (ص) وامام الخطباء من العرب والمسلمين ، ربي في بيت الرسول (ص) ورافقه في تحنثه[1] بجبل حراء وهو أول السابقين الى الاسلام من الشبان ، وعندما هاجر الرسول الى المدينة تركه في فراشه بدلاً منه ، ثم هاجر الى المدينة بعد أن أدى الودائع التي كانت عند الرسول (ص) الى أهلها ، ثم زوجه بالمدينة ابنته فاطمة الزهراء . وشهد جميع حروبه الا غزوة تبوك فقد خلفه في أهله بالمدينة ، وقد خلفه في أهله بالمدينة ، وقد كان في جميع غزواته شجاعاً مظفراً ذا بلاء حسن « لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه » . تولى الكتابة للرسول (ص) وأصبح موضع ثقة الخلفاء الثلاثة بعده وكانوا يستشيرونه ويستفتونه في الأحكام الشرعية والسياسية ، وكان عمر (ر) خاصة يستنصحه ويعمل بمشورته ، وقد فعل مثل ذلك لعثمان (ر) . وبعد مقتل عثمان (ر) أتاه الناس فقالوا له : نبايعك فأنت أحق بالخلافة . فقال : ليس ذلك اليكم انما هو لأهل الشورى وأهل بدر فمن اختاروه فهو الخليفة فنجتمع وننظر في هذا الأمر . وعلى هذا تمت بيعته فسار في خلافته

أسس سياسته

وسياسته ، مستنيراً بنور الأخلاق السامية التي نشأ الرسول (ص) عليها ، فلم يحاول اثارة العصبية المفرقة ولم يستغل الفرص

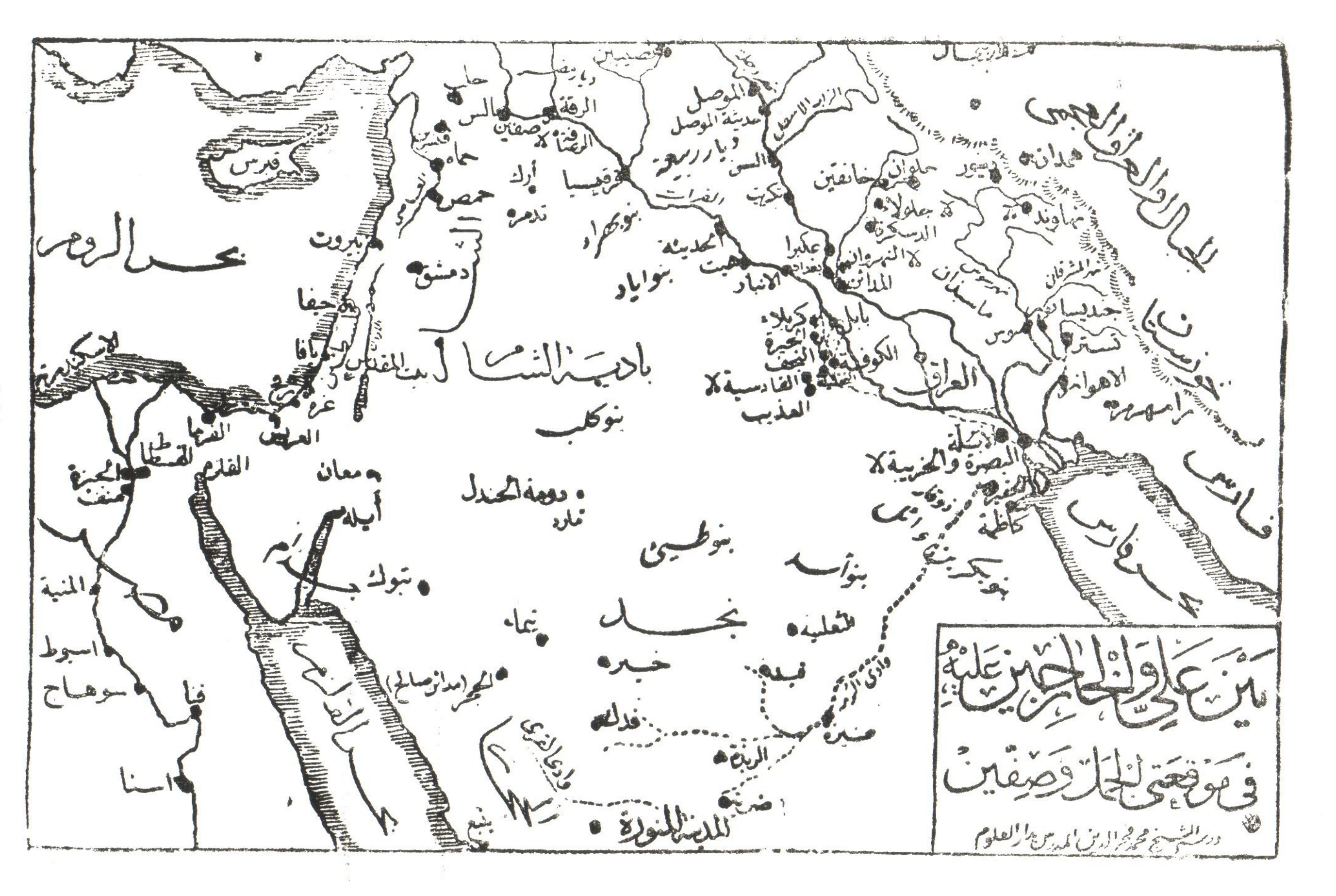
---

(١) الانقطاع للعبادة

والأحوال • وفرغ نفسه لخدمة الدين والأمة ، ودامت خلافته نحواً من خمس سنوات انتهت بمقتله غيلة بمسجد الكوفة سنة ٤٠ هـ = ٦٦٠ م اغتاله عبدالرحمن بن ملجم المرادي الخارجي فقتله • وقبيل وفاته دخل عليه بعض أصحابه يسأله : أنبايع ابنك الحسن فقال : ما آمركم ولا أنهاكم انتم أبصر • ولم يترك علي (ر) شيئاً يذكر من المال ، وكانت حياته في الزهد والعفة من طراز حياة صاحبيه أبي بكر وعمر (رضى الله عنهم) •

عنايته بأمر الرعيــة

اتبع علي في الادارة طريقة الخلفاء الذين تقدموه ، فقد كان يولي العامل ويطلق يده في الشؤون العامة ويرقب أحواله ، ويأمره بالرفق بالرعية وعدم التكبر • ومما ينسب اليه قوله لعامله بمصر : « ولا يكون المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء ، فان في ذلك تزهيداً لأهل الاحسان في الاحسان ، وتدريباً لأهل الاساءة على الاساءة ، وألزم كلاً منهم ما ألزم نفسه » • « ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة واجتمعت بها الألفة وصلحت عليها الرعية ولا تحدثن سنة تضر بشيء من ماضي تلك السنن » • ومن ذلك أيضاً ما كتبه اليه في أمر الخراج قال : « وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فان في اصلاح الخراج واصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم الا بهم لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله • وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك الا بالعمارة ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره الا قليلاً » •


بين علي والخارجين عليه
في موقعتي الجمل وصفين
بحر الروم
قبرس
بادية الشام
نجد
بحر فارس
فارس
خوزستان
الجبال والعراق العجمي
العراق
مصر
دمشق
بيروت
حمص
حماه
الموصل
الأنبار
الكوفة
البصرة والخريبة
المدائن
الحديثة
صفين
الرقة
تكريت
كربلاء
القادسية
العذيب
دومة الجندل
معان
أيلة
تبوك
تيماء
خيبر
فدك
المدينة المنورة
وادي القرى
بنو كلب
بنو طيئ
بنو أسد
الثعلبية
الربذة
أسوط
سوهاج
المنية
أسنا
همدان
نهاوند
تستر
الأهواز
رامهرمز
كاظمة

وقعة الجمل

لما تولى علي(ر) الخلافة بادر الى عزل جميع عمال عثمان (ر) قبل وصول البيعة اليه من الأمصار ، وولى مكانهم غيرهم وثار في البصرة طلحة والزبير وعائشة يطالبون بدم عثمان وقتل قاتليه ، حتى كانت بينهم وبين علي (ر) وقعة الجمل فانتصر فيها علي (ر) وقتل طلحة والزبير وكثير من المهاجرين والأنصار وبضعة آلاف من غيرهم من المسلمين . وقد حاول قبل نشوب الحرب أن يفض الخلاف بطريق التفاهم ، ولقي جهده قبولاً من أهل البصرة غير أن هذا الجهد باء بالخيبة في اللحظة الأخيرة ، بخطة دبرها جماعة من المغرضين فنشب القتال كما مر آنفاً . وبعد واقعة الجمل بايع أهل البصرة علياً (ر) وتوجه نحو الكوفة وارسل الى معاوية بكتاب يعلمه فيه اجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ويدعوه الى طاعته ، غير أن معاوية كان مصراً على أن يقتل قتلة عثمان ، فأخذ علي (ر) بجنوده طريق الجزيرة وعبر الفرات من الرقة ، وتلاقت جيوشه وجيوش معاوية في سهل صفين ، وحاول المسلمون الصلح وكثرت الرسل بين الطرفين فلم ينجحوا في الوصول الى حل سلمي ، واشتد القتال بين الجيشين أياماً وكانت الليلة الاخيرة شديدة القتال والزيال[1] جداً ، وتسمى لشدتها في ذلك ليلة الهرير تشبيهاً لها بليلة القادسية . ولما رأى جند معاوية قرب انتصار جند علي (ر) رفعوا المصاحف على رؤوس الرماح ، فلما رآها أهل العراق قالوا : نحتكم الى كتاب الله ، فنصح لهم أن يستمروا على القتال لانهم لم يرفعوها الا مكيدة فرفضوا قوله وقالوا : لتقبلن التحكيم أو نفعل بك كما فعلنا بابن عفان . فأمر علي (ر) مالكاً الأشتر بوقف القتال مخافة الفتنة في

صفين

التحكيم
ظهور الخوارج

(١) التفريق .

جيشه ، ورضى الفريقان بالتحكيم وكتبوا بذلك كتاباً سنة ٣٧ هـ ومثل أبو موسى الأشعري جند علي (ر) ومثل عمرو بن العاص معاوية ، وبذلك انتهت وقعة صفين بعد أن قتل فيها من أبطال المسلمين ورجال الفتوحات عدد كبير بلغ عشرات ألوف ، ولما كتبت شروط الصلح قرأها الأشعث بن قيس على جند علي فقال جماعة من بني تميم : أتحكمون في أمر الله الرجال لا حكم الا الله ؟ ولما رجع علي بجيشه الى الكوفة لم يدخلوها معه ونزلوا حروراء قرب الكوفة ، وحاول عبدالله بن عباس وعلى بن أبي طالب (ر) اقناعهم بالرجوع الى طاعة الخليفة ، فرجع قسم وأصر الآخرون على الخروج • اجتمع الحكمان ومع كل منهما ٤٠٠ رجل في أذرح على الراجح ودامت بينهما المناقشة ، فلم يتوصلا الى نتيجة مرضية حاسمة وذلك مما أدى الى استعداد كل من الطرفين لاستئناف القتال ، والى تكاثر عدد الخوارج وازدياد شرهم وذلك مما دفع علياً (ر) الى ضربهم والتنكيل بهم في وقعة النهروان • ثم أخذ يستعد لقتال أهل الشام ولكنه وجد في أهل الكوفة قعوداً وتلكؤاً عن القتال وذلك الذي جرأ معاوية على ضم مصر اليه ، بعد أن بايعه أهل الشام • ثم أخذ معاوية يوجه حملاته الى البلدان التابعة لعلي كالأنبار ، وفي تلك الأثناء كان قتل علي (ر) غيلة بمسجد الكوفة كما ذكر آنفاً • وهكذا ذهب علي (ر) وسط هذه الفتن التي عصفت بالمسلمين بعد أن بذل جهوداً جبارة في اصلاح أمرهم وجمع كلمتهم والسير بهم في الطريق المستقيم •

استشهاد علي

الفصل الثانى

توسيع الدولة العربية

وتأسيس الانبراطورية فى عهد الراشدين

« كم تركوا من جنات وعيون • وزروع ومقام كريم • ونعمة كانوا فيها فاكهين • كذلك وأورثناها قوماً آخرين • فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » •

الرسول يبشر امته بالفتح

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يبشر قومه العرب في مناسبات كثيرة بأنهم سيفتحون ممالك كسرى وقيصر ، ووعدهم حينما خاطب عدي بن حاتم الطائي بقوله : « لعلك انما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذ • ولعلك انما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عددكم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعير تزور هذا البيت لاتخاف ، ولعلك انما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم » •

كلمة تمهيدية

وقد وجه الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ومؤتة جيوشه الى أطراف الشام ، وقبيل وفاته أمر بتجهيز جيش أسامة كما مر آنفاً ، لقتال الروم ومن ناصرهم من القبائل العربية •

وعندما انتهت حروب الردة بعث أبو بكر الصديق (ر) جيوشه وقواده فوراً الى فتح هذه البلاد ، فاتصلت الحروب بينهم وبين محاربيهم من الفرس والروم وبلغت الفتوحات العربية ذروتها في عهد عمر وعثمان (رضى الله عنهما) حتى كانت الفتنة التي مر ذكرها فتوقفت في أواخر أيام عثمان (ر) وخلافة علي (ر) وشغلت العرب فتن أي حروب أهلية ، فانتقض قسم من البلدان المفتوحة حتى اذا استتبت الأمور مرة أخرى في عهد الأمويين استأنف العرب فتوحاتهم الموفقة في آسية وافريقية وأوربة كما سيأتي • ونذكر الآن على سبيل الايجاز البلاد التي تم فتحها في خلافة الراشدين والجيوش العربية التي كان لها فضل الفتح ، ونبحث عن الأسباب التي حفزت العرب ودفعتهم هذا الدفع العظيم الى الفتح والنتائج الخطيرة التي نتجتها هذه الفتوحات •

فتح العراق

غارات بني شيبان

في خلافة أبي بكر (ر) كان المثنى بن حارثة الشيباني من قبيلة بكر يغير هو وغيره على حدود العراق من جهة الحيرة ، وكانت غزوات بكر متواصلة منذ وقعة ذي قار ، فكتب المثنى الى الخليفة أبي بكر (ر) يعلمه بوقائعه مع الفرس ويسأله المدد ، فكتب أبو بكر (ر) الى خالد حال انهائه حروب الردة ، ووجه عياض بن غنم لمساعدته وغزو بلاد فارس • ونظم خالد جيشه والتقى هو والفرس على الطرف الجنوبي من العراق ، وكان الفرس قد قيدوا أنفسهم بالسلاسل علامة لثباتهم واستبسالهم في القتال ،

أبو بكر يوجه خالداً الى العراق

انتصارات خالد الأولى في العراق

وكان الماء في أيديهم • ولما رأى ذلك خالد قال لاصحابه : « ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين » • وكان النصر والظفر في هذه الموقعة للعرب • فأرسل خالد بخبر الفتح والخمس الى العاصمة • ثم تجمعت قوى الفرس من الجهات القريبة فانتصر عليهم خالد أيضاً • ووزع الغنائم في الجيش وأرسل بخبر الفتح والخمس الى أبى بكر (ر) • ولما انتهى نبأ هذه الهزائم الى كسرى بالمدائن جهز جيوشاً كثيفة ، وكان بينهم كثير من نصارى العرب ، فانتصر عليهم خالد جميعاً على مقربة من الحيرة ، وغنم غنائم عظيمة وكان يوصي بالفلاحين وأهل العمل ولا يظلمهم بل يقرهم في عملهم ، ولا يتصدى الا للمحاربين منهم • وبعد أن قام خالد

الاستيلاء على الحيرة

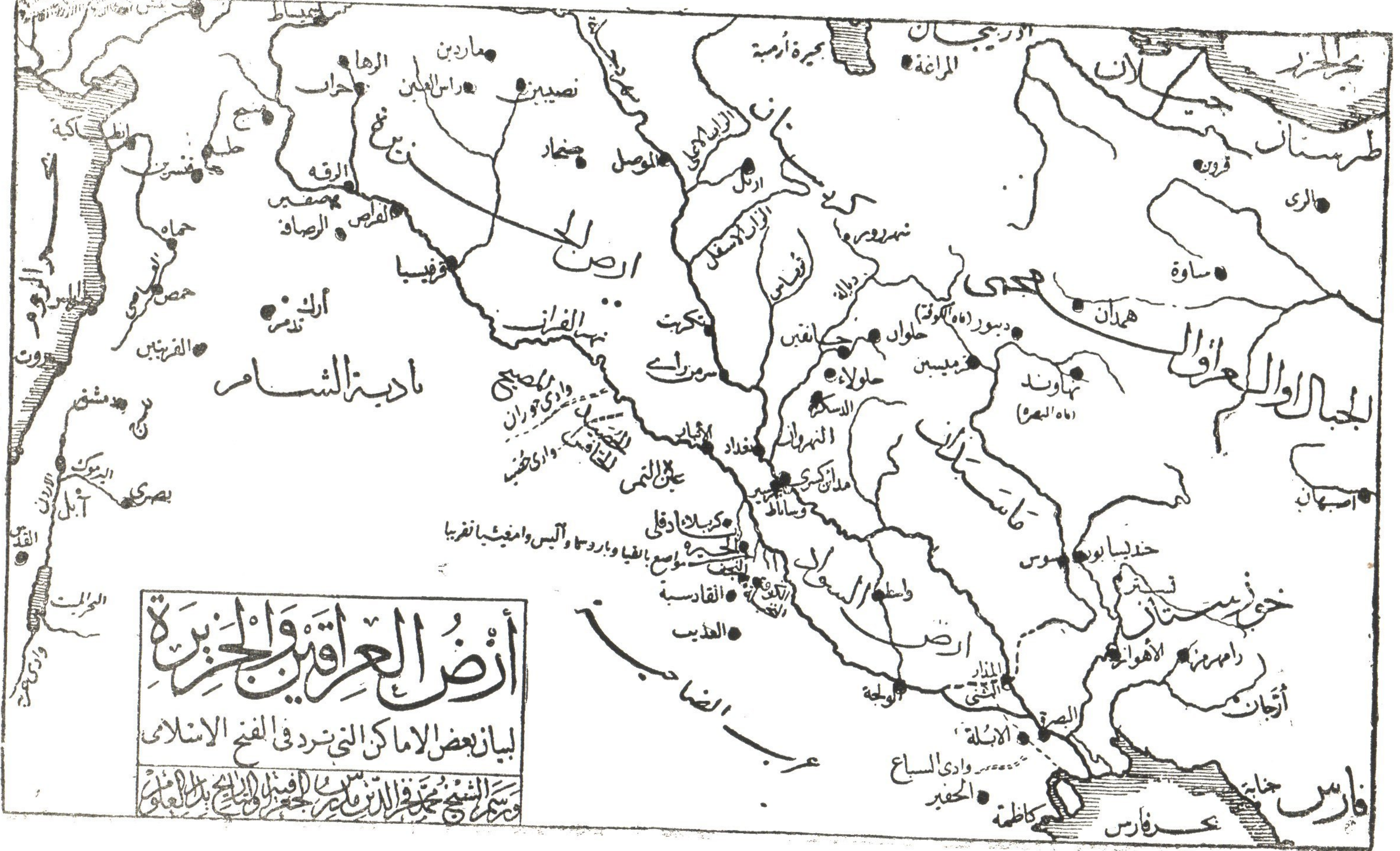
بعدة مناوشات سار نحو الحيرة نفسها وانتصر على أهلها ، وكانت خطته تتلخص في الحوار الذي جرى بينه وبين جماعة من زعمائها حيث قال لهم : ويحكم ما أنتم ؟ أعرب ، فما تنقمون من العرب ؟ أم عجم فما تنقمون من الانصاف والعدل ؟ ثم خيرهم بين الدخول في الاسلام ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين في حلهم وترحالهم ، أو الجزية ، أو الحرب ، ثم قال لهم : « فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة » • فاختاروا الجزية وصالحوه على مبلغ يؤدونه اليه ، ثم صالحه على الجزية كثير من البلدان المجاورة للحيرة ، وكتب لهم بذلك عهوداً • ثم وجه بكتب مختلفة الى أمراء الفرس ونبلائهم ، يدعوهم الى الاسلام أو الجزية أو القتال على حسب خطة المسلمين في جميع حروبهم • وأمتدت غارات العرب الفاتحين فيما بين الحيرة ودجلة ، ثم استخلف على الحيرة القعقاع ، وسار بجيشه حتى بلغ الأنبار

وحاصرها ، وكان حولها خندق ، فعمد الى أضيق مكان فيه فنحر الضعاف من الابل التي في جيشه وملأ الخندق منها ، فاقتحم المسلمون الخندق على جسر من جثث الابل ، فطلب أهلها الصلح على الجزية فصالحهم وصالح من حولهم ، وسار الى عين التمر وبها يؤمئذ جموع كبيرة من الفرس والعرب ففتحها ، ثم توجه الى دومة الجندل لنجدة عياض بن غنم ، وكان القوم قد سدوا على عياض الطرق فأرسل الى خالد يستمده فكتب اليه خالد كتاباً موجزاً هو « من خالد الى عياض ، أياك أريد

لبث قليلا تأتك الحلائب يحملن آساداً عليها القاشب
كتائب تتبعها كتائب » •

ووصل خالد الى دومة الجندل فاستولى عليها •

ثم حدثت بعد ذلك عدة وقائع انتصر العرب فيها جميعاً • قاتل العرب الفاتحون في جميع هذه الوقائع الفرس وأعوانهم من العرب حتى وصلوا الى الفراض وهي حدود العراق والشام والجزيرة ، وبذلك تم استيلاء خالد على سقي الفرات الأوسط والأسفل من دون أن تهزم له راية ، ولم يكن في حروبه هذه مخرباً ولا مدمراً ولا ناهباً ، بل كان يوطد الملك ويعطي العهود والمواثيق ويحترمها ، ويؤلف الحاميات ويولي الأمراء لاحكام النظام ، ويعين الموظفين للجباية ويساعده على كل ذلك رجال مشهورون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار وغيرهم • وأخيراً جاءه كتاب من أبى بكر



أرض العراقين والجزيرة
لبيان بعض الاماكن التي ترد في الفتح الاسلامي
رسم الشيخ محمد فخر الدين مدرس الجغرافيا والتاريخ بدار العلوم
بادية الشام
أرض الجزيرة
أرض السواد
الجبال أو العراق العجمي
خوزستان
كردستان
طبرستان
أذربيجان
فارس
بحر فارس
الضاحية
عرب
بغداد
الموصل
البصرة
الكوفة
القادسية
الحيرة
همذان
نهاوند
الأهواز
تستر
السوس
واسط
سامرا
تكريت
حلوان
جلولاء
المدائن كسرى
الرقة
حران
الرها
نصيبين
ماردين
قرقيسيا
الأنبار
عين التمر
كربلاء
النجف
العذيب
الأبلة
الحفير
كاظمة
الري
ساوة
قزوين
المراغة
بحيرة أرمية
اصبهان
رامهرمز
أرجان
تدمر
حمص
حماه
حلب
دمشق
بصرى
القدس

وحينما كانت انتصارات العرب على الفرس آخـــذة في الزيادة ، تولى كسرى يزدجرد حكم الامبراطورية الفارسية ، فهاله أمر العرب وبدأ يجهز الجيوش ويؤلف الكتائب ، فسير جيشاً الى الأنبار والحيرة وكانتا بيد العرب المسلمين ، فأخبر المثنى عمر بن الخطاب (ر) بذلك فكتب عمر (ر) الى عماله وولاته يعلن النفير العام قائلاً : « لا تدعوا أحداً له سلاح ، أو فرس ، أو نجدة ، أو رأى الا انتخبتموه ثم وجهتموه الي ، والعجل العجل » فأتته النجدات من كل مكان . فمن كان قريباً من العراق لحق بالمثنى وأسرع الآخرون الى المدينة ولم يدع عمر (ر) رئيساً ولا ذا رأي ولا ذا نجدة ولا خطيباً ولا شاعراً[1] الا رمى الفرس به ، وولى أمر قيادتهم العامة سعد بن أبي وقاص ، وقبيل وصول سعد توفي المثنى متأثراً من جراحه التي أصابته يوم الجسر ، وكان قد بعث بوصية قيمة الى سعد قبل وفاته شرح فيها موجز تجاربه وآرائه في قتال الفرس . وضم سعد الى نفسه المغيرة بن شعبة ومن معه ، ودعا رؤساء القبائل فأتوه ، فعبأ جيشه وقسمه الى عشرات وجعل على كل عشرة عريفاً ، وعين على الرايات أمراء ممن كانت لهم خبرة سابقة في المعارك ، ونظم الجيش وعبأه على أساس وحدات لكل منها رئيس وراية . وكان عمر قد بعث الى الجيش الأطباء ، وجعل لهم قاضياً يتسلم الغنائم ويقسمها فيهم بعد أن يرسل بحصة بيت المال وهي الخمس . وكان في جيش سعد كثير من العرب رحلوا الى الفتح بحريمهم وعيالاتهم وذراريهم ، وهذا مما ســاعد العرب على الاستقرار في البلاد المفتوحة وتثبيت أقدامهم فيها .

---

(١) الشعراء والخطباء لاستنهاض الهمم وتشجيعهم على القتال .

ولى كسرى يزدجرد « رستم » أيضاً حرب العرب ، فطلب عمر الى سعد ان يرسل وفداً عربياً الى كسرى في المدائن ، وبعد مداولات بينهم وبين كسرى قالوا له : اختر ان شئت الجزية عن يد وأنت صاغر وان شئت فالسيف أو تسلم فتنجو نفسك • خرج رستم من المدائن والتقى سعداً والعرب بعد اربعة أشهر من خروجه لا يقاتلهم أملاً أن ينصرفوا بعد أن يعجزوا • غير أن كسرى طلب منه أن يسرع في قتالهـــم ، فنزل على مقربة من عسكر سعد ، فأرسل اليه سعد وفداً كان منهم المغيرة بن شعبة • أقبل المغيرة اليه وكان مع رستم وجوه قومه عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب ، حتى جلس معه على سريره ووسادته ، فوثبوا عليه وأنزلوه • فقال : « كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم • انا معشر العرب سواء لا يستبعد بعضنا بعضاً الا أن يكون محارباً لصاحبه ، فظننت أنكم تتواسون بينكم كما نتواسى • واليوم علمت أن أمركم مضمحـــل وأنـكم مغلوبون ، وان ملـكـكم لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول » • فقالت العامة : « صدق والله هذا العربي » ، وقالت الدهاقين : « والله لقد رمى بكلام ولا تزال عبيدنا ينزعون اليه • قاتل الله أولينا ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الامة » • وطالت المناقشة بينهما ، وأخيراً عرض عليه الاسلام أو الجزية أو القتال ان أبى ، فأخذ رستم الغضب وحلف بالشمس وقال له : لا يرتفع لـكم الصبح غداً حتى أقتلـكم جميعاً • فانصرف المغيرة واستعد الفريقان للحرب وعبر الفرس الى العرب وعبأ رستم جيشه ورتب الفيلة وكانت ٣٣ فيلا ، وعليها الرجال وكان سعد يومئذ مريضاً ولم يمنعه مرضه من الاشراف على القتال • وقبل أن ينشب

القتال أرسل سعد الى سادة العرب ورؤسائهم وذوي الرأي منهم وأصحاب الفضل ، وذوي النجدة والشعراء والخطباء وغيرهم قال لهم : انطلقوا بين الناس وذكروهم وحرضوهم على الحرب


حَربُ القادسيّة

والاستبسال . ثم قال لهم : اني مكبر ثلاثاً والثالثة علامة بدء الحرب والرابعة علامة الزحف وان ذلك يكون بعد صلاة الظهر .

فلما كبر الثالثة برز أهل النجدات فأنشبوا القتال ثم كبر الرابعة فزحفت الجنود ودارت رحى الحرب وكانت الفيلة أشد شيء على العرب فان خيلهم خافتها ، فتقدم عاصم بن عمرو مع رجال من قومه ورماة آخرين وهجموا على الفيلة وقطعوا حزمها وسقط أصحابها عنها ، فولت الادبار ، واشتد القتال حتى غربت الشمس ، ولم يغلب أحد الفريقين . وفي اليوم الثاني أمر سعد بنقل القتلى فدفنوا ، والجرحى لتقوم النساء بتمريضهم ومداواتهم . وبينما هم في هذه الحالة قبل أن ينشب القتال اذ قدم فرسان المسلمين من الشام على حسب وصية أبى بكر الصديق (ر) لعمر (ر) وكانوا بقيادة هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ، وكان على المقدمة القعقاع بن عمرو . وأراد أن يلقي الرعب في قلوب الفرس فقسم جيشه عشرة أقسام بعضها يتبع بعضاً ليعلم الفرس أن الأمداد متواصلة ، وكان قدومه سبباً لنشاط المسلمين واستبشارهم ، وطلب القعقاع البراز فبرز اليه بهمن جاذويه قائد الفرس في معركة الجسر فعرفه القعقاع فنادى « يا لثارات أبى عبيد وأصحاب الجسر » فقتله القعقاع ، واستمر القتال بين الفريقين الى المساء ولم يغلب أحد من الجانبين المتحاربين . وفي هـــذا اليوم هجم أصحاب القعقاع وبنو عمه وهم على ابل ألبسوها الجلال والبراقع ، وطافت بهم الخيل تحميها في حملتها على خيول العجم ، فنفرت خيل الفرس ولقوا منها في هذا اليوم ما لقي العرب من الفيلة في اليوم الأول . وفي اليوم الثالث رتب القعقاع أصحابه في الليل وأمرهم أن يعودوا في أول النهار مئة مئة ، ليجدد نشاط العرب ، وكان قتلى الفرس بين الصفين لم يتمكنوا من دفنهم ، ففت ذلك في عضدهم وزاد من يأسهم ، وبدأ القتال ويزدجرد يرسل الامداد

من ذوي الشدة والبأس من قومه • ورأى سعد أن الفيلة قد عادت الى ما فعلته في اليوم الأول ، فأرسل الى القعقاع وعاصم التميميين وقال لهما : اكفياني الفيل الأبيض • وطلب الى آخرين وقال لهما : اكفياني الفيل الأجرب • وتمكنوا من اصابة الفيلة بعيونهم وقطع مشافرها ففرت بعد أن نفر الفيل الأجرب وقتل من كان فوقها ، وظل الفيل الأجرب متحيراً بين الصفين : اذا جاء صف العرب وخزوه واذا أتى صف الفرس نخســـوه ، وأخيراً القى بنفسه في النهر واتبعه سائر الفيلة وألقت من عليها ، وخرقت صفوف العجم ، ولما اظلمت الدنيا تزاحف المسلمون وحماهم فرسانهم ، وفي الليل زحف الجيش كله واشتد القتال ، وخشعت الأصوات فلم يكن يسمع الا صليل السيوف وسميت الليلة بليلة الهرير ، وانقطعت الأخبار والأصوات عن سعد ورستم ، وبات سعد ليلة لم يبت مثلها وبات الناس لم تغمض لهم عيون ليلتهم كلها • ولما أصبح القوم اجتمع جماعة من الرؤساء وتحاضوا على الموت وحملوا على من يليهم ، فاقتتلوا أشد قتال الى الظهر ، وحينئذ بدأ الوهن يتسرب في صفوف الفرس ، ووصل القعقاع الى عرش رستم فلم يجده ، وأخيراً وجده رجل يقال له هلال مختبئاً بين البغال فقتله ، ثم نادى : قتلت رستم ورب الكعبة • فكبر الناس وانهزم قلب جيش الفرس ، وتتابعت فيهم الهزيمة وغنم العرب رايتهم (درفش كابيان) غنمها ضرار ابن الخطاب أخو الخليفة ، وكانت خسارة الفرس عظيمة ليلة الهرير ، ويروى أن خسارتهم في هذه الليلة بلغت ثلاثين الفاً • وبلغ عدد قتلاهم في اليوم الذي تلا ليلة الهرير عشرة آلاف ،

وبعد الهزيمة ثبت من الفرس نحو بضع وثلاثين كتيبة استحيوا من الفرار فأبيد أكثرهم وهرب الباقون • وكانت خسارة العرب ليلة الهرير ٦٠٠٠ قتيل مع أنها كانت في الايام الاولى ٢٥٠٠ قتيل • وبعد أن انتهت موقعة القادسية كتب سعد الى عمر (ر) بهذا الفتح العظيم وأخبره أن قد أصيب فلان وفلان « ورجال من المسلمين لا نعلمهم ، الله أعلم بهم كانوا يدوون بالقرآن اذا جن عليهم الليل دوي النحل وهم آساد الناس لايشبههم الأسود ... الخ » • وقد غنم المسلمون في هذه الموقعة غنائم كثيرة لم يغنموا مثلها • وأقام الجيش العربي بالقادسية شهرين بعد انتهاء الحرب للراحة والاستجمام ، وتقصي النواحي التي غلبوا عليها من الاعداء • ثم جاءت الأوامر الى سعد أن يتوجه الى المدائن لاتمام الفتح على أن يخلف النساء والعيال بالقادسية ، فوصلوا الى بابل وما جاورها حيث تجمعت فلول القادسية ورؤساء الفرس •

فتح المدائن

فهزم العرب الفرس في جميع هـذه الأماكن ثم توجهوا الى « بهرسير » وهي مدينة على ضفة دجلة الغربية كانت تجاه ايوان كسرى المعروف اليوم بطاق كسرى ، وشددوا عليها الحصار شهرين ، فخرج الفرس وقد تجردوا للعرب وتبايعوا على الصبر ، فقاتلهم العرب وهزموهم وسقطت بهرسير ، ولما دخلهـا سعد والمسلمون في جوف الليل لاح لهم القصر الأبيض فقال ضرار ابن الخطـاب : الله أكبر • أبيض كسرى هـذا ما وعـد الله ورسوله ! وبث سـعد الخيول ودعا الدهاقين الى الاسـلام والرجوع ، أو الجزاء ولهم الذمة والمنعة ، فقبلوا الجزاء والمنعة ، ولم يبق في غربي دجلة الى أرض العرب سوادي الا اغتبط بحكم الاسلام • وأراد سعد أن يعبر الى المدائن وطلب سفناً فلم يجد

شيئاً ، ووجد الفرس قد قطعوا الجسر وضموا السفن • فجمع الناس وحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« ان عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون اليه معه وهم يخلصون اليكم اذا شاؤوا فيناوشونكم في سفنهم ، وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه ، فقد كفاكموهم أهل الايام ، وعطلوا ثغورهم وافنوا ذادتهم[1] ، وقد رأيت من الرأي أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا • الا أني قد عزمت على قطع هذا البحر اليهم » فقالوا جميعاً : « عزم الله لنا ، ولك على الرشد فافعل » • فأقبل يندب الناس الى العبور ويستثير هممهم ويقول : « من يبدأ ويحمي لنا الفراض حتى تتلاحق به الناس لكيلا يمنعوهم من الخروج ؟ » فانتدب له عاصم بن عمرو التميمي وست مئة مغامر من أهل النجدة ، وأستعمل عليهم عاصماً ، فسار فيهم حتى وقف على شاطيء دجلة وقال : « من ينتدب معي لنمنع الفراض من عدوكم ولنحميكم حتى تعبروا » فانتدب له ستون ، فجعلهم على خيول اناث وذكور ليكون أسلس لعوم الخيل ، ثم اقتحموا دجلة فأقتحم سائر المغامرين على أثرهم ، فلما رآهم الأعاجم وما صنعوا اقتحموا دجلة أيضاً والتقى الجمعان في النهر ، ونادى عاصم قومه ، في وسط النهر : الرماح لرماح اشرعوها وتوخوا العيون • وأشتد القتال بينهم في الماء وثبت العرب لأعدائهم ، فهزموهم ولحقوا بهم فقتلوا عامتهم ونجا من نجا منهم عوراناً ، وتزلزلت بهم خيولهم حتى انفضت عن الفراض • ولما رأى سعد عاصماً على الفراض قد منعها أذن للناس في الاقتحام فركبوا اللجة ، وقد طبقوا دجلة خيلاً ورجلاً

(١) المدافعين •

ودواب حتى ما يرى الماء من الشاطيء وفجؤوا أهل المدائن بأمر لم يكن في حسابهم ، فأنطلقوا هراباً لا يلوون على شيء • وتقدم العرب نحو عاصمة الفرس العظيمة وكان أول من دخلها كتيبة الأهوال بقيادة عاصم وعقبتها « الخرساء » بقيادة أخيه القعقاع فأخـذوا في سككها يتعقبون فلول الجيش الهارب ، وحاصروا القصر الأبيض فاستجاب من فيه على الجزاء والذمة ، ونزل سعد القصر الأبيض ، واستولى على بيوت الأموال وصلى في الايوان صلاة الفتح وجعله مسجداً ودخله وهو يقرأ « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » • وبدخول العرب المدائن واحتلالهم اياها حرروا العراق من سيادة الفرس واستولوا على كل ما بقي في بيوت كسرى من الأموال وما تركوه من الخزائن وما أعدوه للحصار • ولما رأى أهل السواد عدل العرب وحسن معاملتهم بدؤوا يتراجعون الى المدائن فدخلوها في ذمة المسلمين الا من كان من آل كسرى ومن معهم فقد رحلوا الى حلوان بعد فتح بهرسير ، ولحق بهم يزدجرد حين علم بعبور العرب النهر • وقسم سعد الغنائم في الجيش فكان نصيب الواحد منهم كبيراً (يروى ان السهم الواحد بلغ ١٢ الف درهم) ثم جمع الخمس وأدخل فيه كل شيء أراد أن يعجب منه عمر (ر) من ثياب كسرى وحليه ومنطقته وسيفه وتاجه وما كان يعجب العرب أن يقع اليهم • ولما جيء الى عمر (ر) بسيف كسرى ومنطقته وزبرجده قال : ان قوماً أدوا هذا لذوو أمانة • فقال له علي بن أبي طالب (ر) : انك عففت فعفت الرعية • وقسم سعد دور المدائن على الناس

وأنزلهم بها ونوى الاقامة بالمدائن وصلى فيها صلاة المقيم ، وصدر أمر الخليفة بولاية سعد الصلاة فيما غلب عليه وحربه ، ورتب عاملين لجباية الخراج أحدهما على ما سقى الفرات والآخر على ما سقت دجلة .

وقعة جلولاء

تجمعت جيوش الفرس بعد هربهم من المدائن في جلولاء[1] واحتفروا خندقاً حول حصنهم وأمدهم كسرى يزدجرد بالاموال والرجال وكان يومئذ بحلوان[2] ، واستنفر الفرس فيما يليه ، أما سعد بن أبي وقاص فقد أخبر الخليفة بذلك فجاءت اليه الأوامر أن يوجه اليهم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص في اثنى عشر ألفاً وأن يجعل على مقدمة الجيش القعقاع بن عمرو ، فسار هاشم في جيشه وفيه وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب الى أن نزل على الفرس في جلولاء واعتزم الفرس على القتال وتقاسموا على أن لا يفروا ثم خرجوا للقتال واقتتلوا قتالاً شديداً ، ولما حانت صلاة الظهر صلاها العرب ايماءاً ، وغلب الجيش العربي وأصبحت بلاد العراق بأسرها تحت سيادة الفاتحين من العرب المسلمين ، ولما بلغ يزدجرد خبر الهزيمة غادر حلوان الى الري فدخل العرب حلوان ، وتلا ذلك عدة انتصارات أخرى في تكريت وهيت وماسبذان عن يمين حلوان ، أما الجزيرة وهي القسم الشمالي الواقع بين دجلة وعواقيل[3] الفرات وتشتمل على ديار بكر وديار مضر والرقة ونصيبين وسنجار والخابور والموصل وغيرها فقد فتحها العرب في خلافة عمر أيضاً .

فتح الجزيرة وغيرها

---

(١) وتسمى اليوم (السعدية) .
(٢) وتقع ضمن قضاء خانقين .
(٣) منعطفات الفرات .

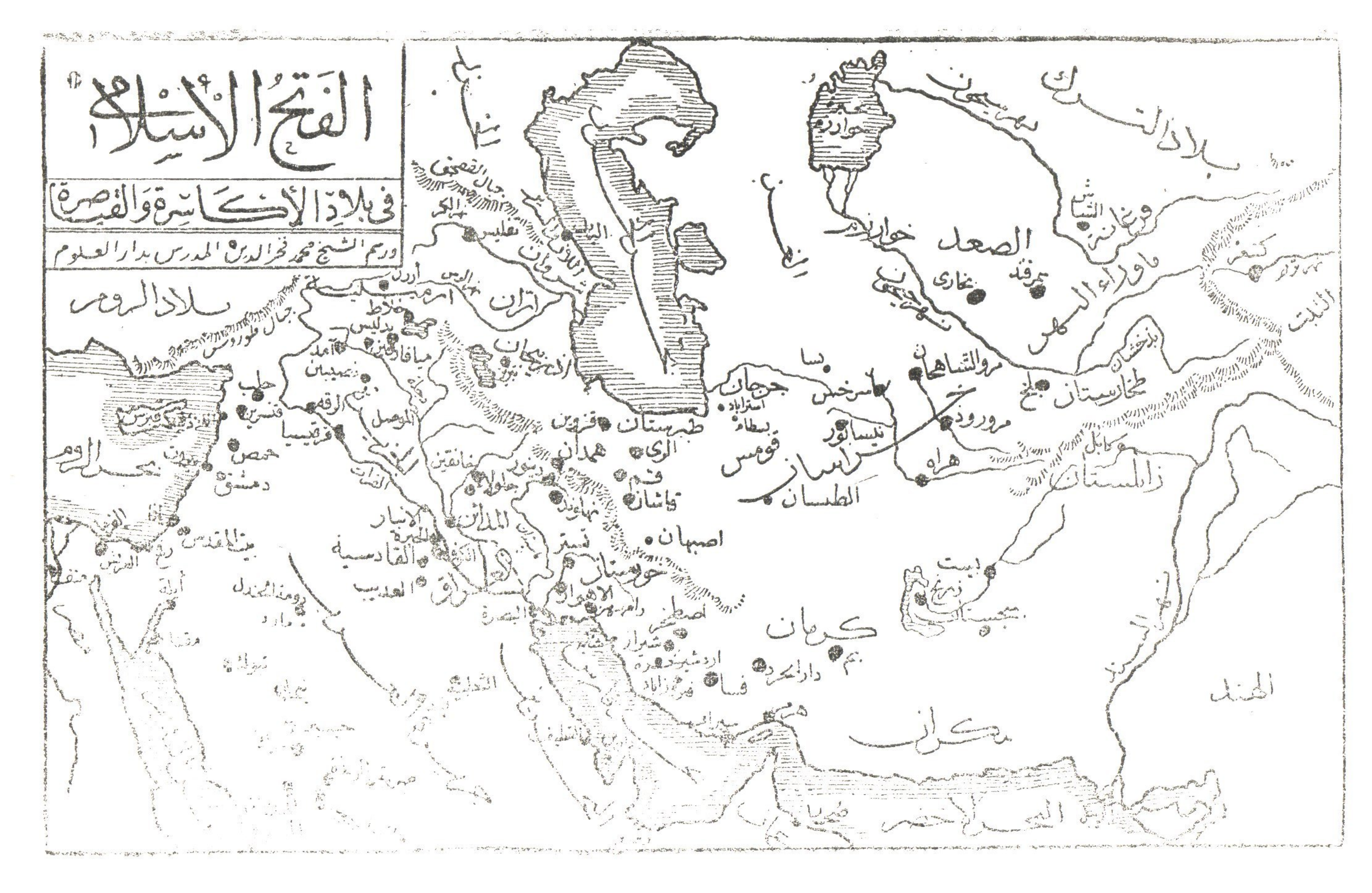
فتح فارس

كان الملك الساساني يزدجرد هو وبطانته يولون الأدبار الى بلاد الفرس حتى وصل الى (مرو) قاعدة خراسان وهي الجزء الشمالي الشرقي من الانبراطورية الفارسية وكان العرب يتتبعون فلول جيوشه ، وكان الهرمزان في الأهواز يغير على البلاد التي فتحها العرب ، فوجه عتبة بن غزوان جيوشه اليه فغلبته وخضعت بلاد الأهواز للعرب •

محاولة العلاء لفتح فارس واخفاقها

وقد فكر العلاء ابن الحضومي أن يغزو فارس من البحرين ، وكان عاملاً لعمر فيها ، فحمل الجند على السفن وعبر بهم في البحر الى فارس دون علم عمر (ر) ، فقتل من المسلمين مقتلة كبيرة ، ولم يستطع العرب الرجوع من البحرين لأن الفرس أغرقوا سفنهم ، فتوجهوا الى البصرة غير أن الفرس وقفوا بوجههم ، فلما وصل الخبر الى عمر (ر) خاف أن يصيب هذا الجيش ما أصاب العرب في وقعة الجسر ، وغضب على العلاء وعزله ، وكتب الى عتبة بن غزوان في البصرة أن يمدهم باثني عشر ألفاً واشتد القتال بين العرب والفرس وكان النصر فيه للعرب • أما يزدجرد فكان لا يألو جهداً في اثارة أهل فارس وتحريضهم لاستنقاذ بلادهم وغسل العار الذي لحق بهم ، فتعاهدوا على النصر وجاءتهم الجيوش العربية من الكوفة والبصرة ومن مختلف الأماكن في العراق ، وكان يقودها النعمان بن مقرن المزني واشتد القتال في تستر وأسر الهرمزان وهزم الفرس ثم اجتمعوا في نهاوند وبلغ عددهم ١٥٠ ألفاً • فكتب عمر (ر) الى

وقعة نهاوند


الفتح الإسلامي
في بلاد الأكاسرة والقياصرة
ورسم الشيخ محمد فخر الدين المدرس بدار العلوم
بلاد الروم
بحر الروم
جبال طوروس
حلب
قنسرين
حمص
دمشق
بيت المقدس
الرقة
الموصل
قرقيسيا
نصيبين
آمد
ميافارقين
بدليس
خلاط
أرمينية
أردن
تفليس
أران
شروان
الباب
أذربيجان
خانقين
حلوان
دينور
همذان
نهاوند
المدائن
الأنبار
الحيرة
القادسية
الكوفة
العذيب
العراق
تستر
خوزستان
الأهواز
البصرة
دومة الجندل
قزوين
الري
قم
قاشان
طبرستان
اصبهان
اصطخر
شيراز
فسا
دارابجرد
كرمان
بم
مكران
جرجان
استراباذ
بسطام
قومس
نيسابور
خراسان
الطبسان
سرخس
نسا
مرو الشاهجان
مرو الروذ
هراة
بلخ
طخارستان
بذخشان
كابل
زابلستان
بست
زرنج
سجستان
الصغد
سمرقند
بخارى
خوارزم
نهر جيحون
نهر سيحون
ماوراء النهر
فرغانة
الشاش
بلاد الترك
التبت
كشغر
السند
الهند

حذيفة بن اليمان وأبي موسى الأشعري وجعل عليهم النعمان بن مقرن قائداً ، فسار النعمان وفي جيشه أعيان الصحابة ووجوه العرب ، فلما وصلوا الى نهاوند قاتلوا الفرس فقتلوا منهم عدداً كبيراً غير أن النعمان استشهد ، وذلك أن الدماء سالت في أرض المعركة فزلق حصان النعمان فسقط عنه وصرع فأخفوا خبر موته ، وأخذ الراية حذيفة بن اليمان واستمر القتال الى الليل حتى أسروا كثيراً وقتلوا كثيراً منهم وانهزم الباقون ودخل العرب نهاوند ، ومن ثم جعل عمر (ر) سبعة من القواد على سبعة من الجيوش ووجهها الى مختلف نواحي بلاد ايران لاتمام فتحها . وتجمع الفرس في أذربيجان فقاتلهم العرب في موقعة كموقعة نهاوند وهزموهم . ولما فرغوا منهـــا توجهوا الى اقليم الري فصالحهم أهلها على الجزية وكذلك فعل أهل جرجان وطبرستان . ووصل العرب الى بحر قزوين ثم توجهوا الى أرمينية ففتحوها وافتتح الأحنف بن قيس بعض خراسان ، ولما وصل الى مرو خرج منها يزدجرد ولقيتـــه جنود من أهل الكوفة فانهزم يزدجرد ، ثم عاد ومعه النجدات من أهل فرغانة والصغد من الأتراك وغيرهم فقاتل بهم العرب فهزموه وأصحابه وأنصاره فهرب الى فرغانة .

اخضاع الري

اتمام الفتوحات في خلافة عثمان (ر)

وفي خلافة عثمان (ر) توطدت هـذه الفتوحات واتسعت دائرتها فثبتت أقدام العرب في أرمينية بقيادة حبيب بن مسلمة الفهري وأتم فتح بلاد الـكرد ، واستولى على تفليس وسائر مدنها الأخرى مما يلي البحر الأسود حتى وصل صاعداً الى بلاد القفقاس في شمال أرمينية . وكان حبيب بوجه عام يعطي أهل البلدان المفتوحة الأمان على أنفسهم وكنائسهم ودينهم على أن

يدفعوا الجزية . وكانت زوجته تحارب معه في ارمينية ببسالة منقطعة النظير فقد نقل أنهـا قالت : يا حبيب أين موعدنا غداً ؟ فقال لها : اما أن نلتقي في خيمة قائد عدونا واما في الجنة ، وافترقا على ذلك ، فلما نشبت الحرب تركت زوجها واخترقت صفوف الجند ، ولما كتب النصر للعرب فتش عنها فاذا هي قد سبقته الى خيمة القائد .

وفي خلافة عثمان (ر) أيضاً ثبتت أقدام العرب في خراسان وأضافوا الى فتوحات عمر (ر) فتوحات أخرى بقيادة ولاة البصرة والكوفة، وشارك في فتوحات خراسان جماعة من الصحابة ومن ابنائهم منهم حذيفة بن اليمان والحسن والحسين وعبدالله بن عباس وعبدالله ابن عمر وعبدالله بن عمرو بن العاص وعبدالله بن الزبير وغيرهم . وفي عهد الفتنة في آخر أيام عثمان (ر) انتقضت بعض هذه البلاد وظلت كذلك مدة خلافة علي (ر) الى أن استقام الأمر لمعاوية فأخضعها . وفي خلافة عثمان (ر) سـنة ٣١ هـ - ٦٥١ م أو ٦٥٢ م قتل يزدجرد قرب مرو ، وبموته انقرضت الانبراطورية الفارسية الساسانية وبذلك صفا الملك للعرب بعد حروب دامت نحواً من عشرين سنة .

فتح الشام ومصر

توجه القوات الى الشام

بعد أن فرغ أبو بكر (ر) من حروب الردة في الجزيرة ، أرسل ثلاثة جيوش عربية يقودها ثلاثة من كبار قواد العرب هم عمرو بن العاص ، أرسله الى فلسطين ، ويزيد بن أبي سفيان ، وجعل وجهته دمشق ، وشرحبيل بن حسنة ، وجهتـه نحو

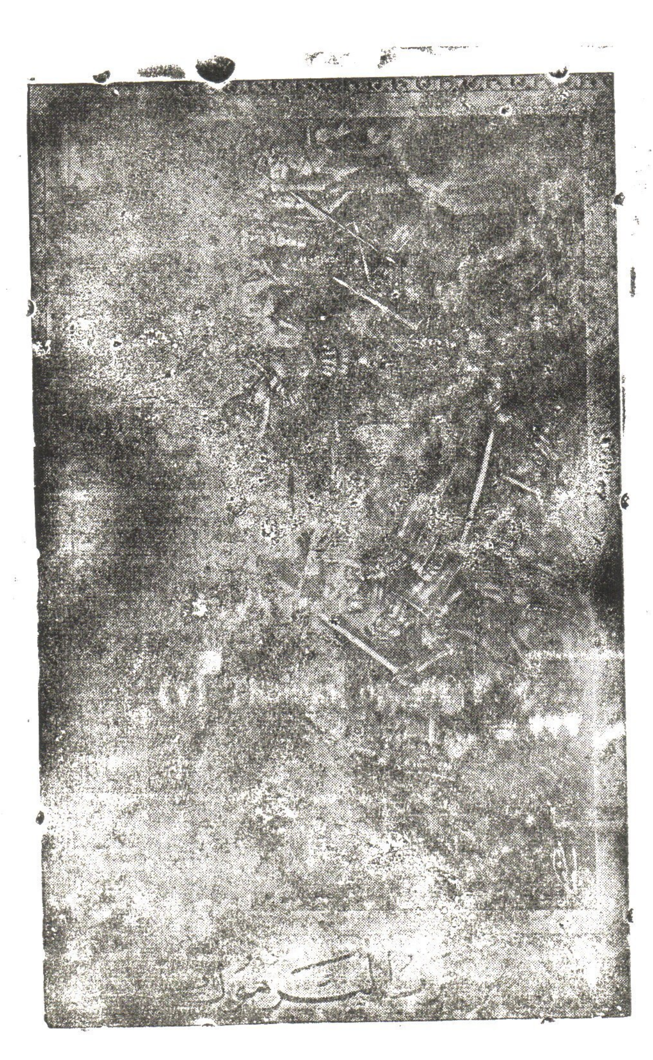
الأردن ، وأرسل بعد ذلك أبا عبيدة بن الجراح مدداً لهم ، وكانت وجهته حمص ، وقد بلغ عدد هـذه الجيوش نحواً من ٣٠ الفاً ، فحدثت عدة معارك بينهم وبين الجيوش البيزنطية ، منها المعركة التي حدثت في وادي عربة الواقع في جنوبي البحر الميت ، فانتصر فيها يزيد بن أبي سفيان على سرجيوس حاكم فلسطين ، وشتت قواه بحملة ساحقة في شباط سنة ١٣هـ ـ ٦٣٤م فأسرع الانبراطور هرقل وكان حارب الفرس ٦ سنوات وأخرجهم من الشام ومصر، الىحرب العرب، فولى أخاه تيودور قيادة الجيش ، فكتب أبو بكر (ر) الى خالد بن الوليد يأمره بالمسير من الحيرة الى الشام لنجدة الجيوش العربية فيها ، فسار خالد بعد أن استخلف المثنى في العراق ـ كما ذكرنا ـ يقود جيشه وفيه أصحاب رسول الله (ص) فاجتاز بهم البادية في آذار سنة ٦٣٤ هـ فمر بدومة الجندل الواقعة في منتصف المسافة بين العراق والشام ، ومنها الى سوى في الشمال الشرقي من دمشق ، في رحلة دامت خمسة أيام في صحراء لا يوجد بها ماء ، وكان دليله في هذه الرحلة الشاقة رافع الطائي وقد حمل الجيش في القرب الماء الذي يحتاجون اليه لشربهم واختزنوا ما في أجواف الابل من الماء لخيولهم ، فكانوا اذا احتاجوا اليه لخيلهم ذبحوا من الابل وسقوها من الماء الذي في أجوافها وأكلوا لحومها ، ولما وصل خالد الى ثنية العقاب عند دمشق نشر راية سوداء كانت للرسول (ص) ثم أتى مرج راهط ولاقى قوة من الغساسنة النصارى فهزمهم يوم عيد الفصح الكبير ، ومن هناك أخذ خالد يواصل هجومه حتى وصل الى بصرى فقاتل أهلها وظفر بهم ثم صالحهم على الجزية ، ولذلك تعد بصرى أول مدينة فتحت بالشام

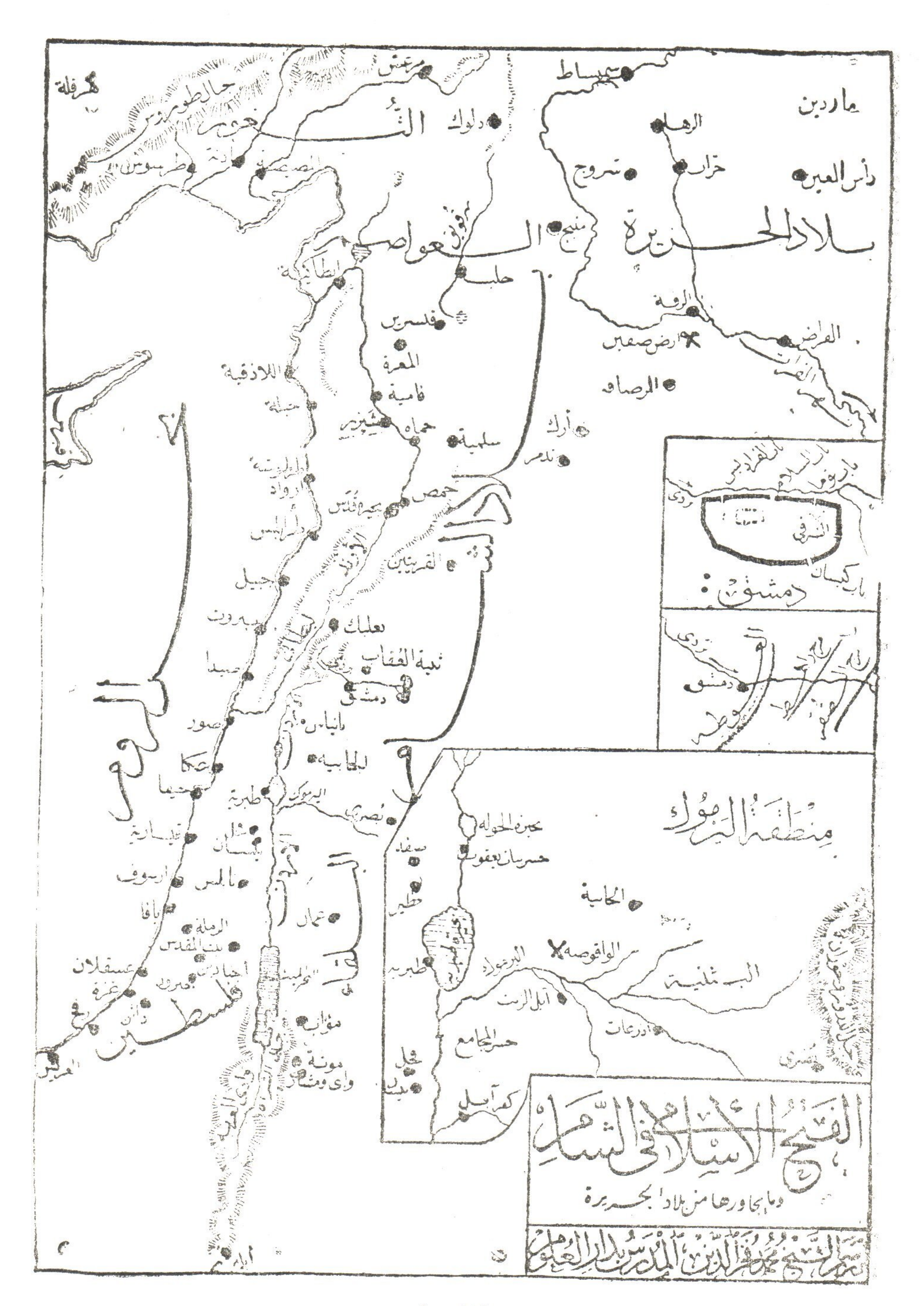
معركة وادي عربة

خالد يعبر بادية الشام

فتح بصري

على يد خالد وجند العراق ، ثم اتصل خالد ببقية القوات العربية وقد أصبح أمامها الطريق مفتوحاً الى فلسطين بعد غلبهـا في معركة أجنادين التي حدثت في ٣٠ تموز سنة ٦٣٤ م أي سنة ١٣ هـ ٠ فأصبح خالد القائد الأعلى لهذه القوات وبدأت الحملات أجنادين




الفتح الإسلامي في الشام
وما يجاورها من بلاد الجزيرة
بلاد الجزيرة
منطقة اليرموك
دمشق
فلسطين
حلب
حمص
حماه
دمشق
بعلبك
بيروت
صيدا
صور
عكا
طبرية
عمان
بصرى
اللاذقية
ماردين
رأس العين
حران
الرها
سروج
منبج
قنسرين
المعرة
سلمية
تدمر
الرصافة
الجابية
الواقوصة
عسقلان
غزة
يافا
الرملة
بيت المقدس
مؤاب
مؤتة

فحل المنظمة وتوجه الجيش الى فحل في شرقي نهر الأردن وقد تمت هزيمة الروم في كانون الثاني سنة ٦٣٥م ، وبذلك أصبح الطريق الى الشام مفتوحاً ، فتوجه خالد نحوه وحاصره ستة أشهر .

فتح دمشق

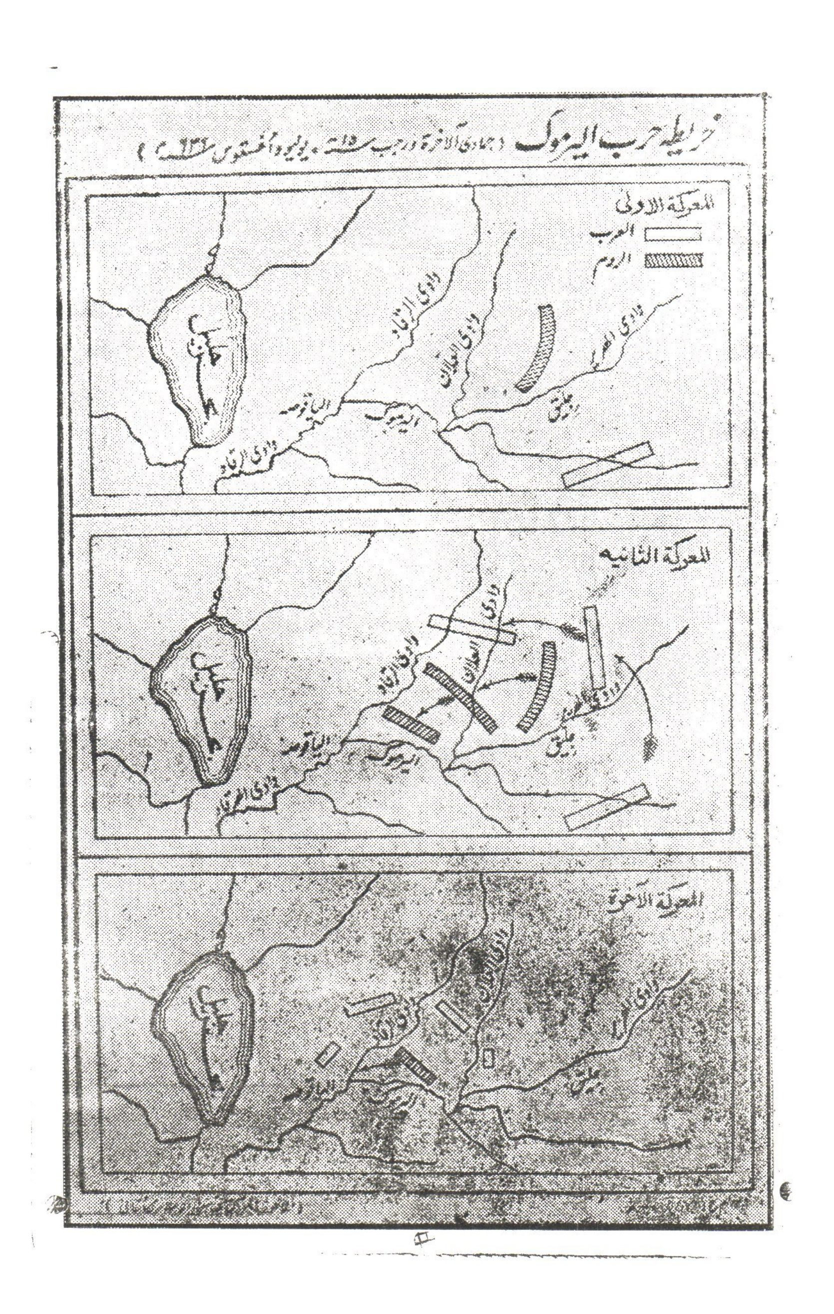
وفي أيلول ٦٣٥ م استسلمت دمشق وبرحتها حاميتها البيزنطية وخضع سكانها البلديون على شروط تعد انموذجاً للشروط التي أعطاها العرب الفاتحون سكان بقية المدن في الشام وهي « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق اذ دخلها : أعطاهم أماناً على أنفسهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم ، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين ، لا يعرض لهم الا بخير اذا أعطوا الجزية » . ثم سقطت بعلبك وحمص ونزل فيها جماعات من القبائل العربية في كل مكان خال منها ، ثم سقطت حماة وخرج اليه أهل شيزر يستقبلونه : يغنون ويضربون على الدفوف ثم توجه الى حلب وقاتل جيوش الروم وغلبهم ودحرهم .

معركة اليرموك

جمع الانبراطور هرقل جيشاً كبيراً تحت قيادة أخيه تيودور فتسحب العرب من بعض الأماكن التي فتحوها واجتمعوا في وادي اليرموك وهو الفرع الشرقي لنهر الأردن ، ونزلت جيوش الروم في سهل الواقوصة على ضفة اليرموك ، فنظم خالد تعبئة جيشه وقسمه الى كراديس (١) وجعل على كراديس الميمنة عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة وعلى كراديس الميسرة يزيد بن أبي سفيان وعلى كراديس القلب أبا عبيدة ، فاشتبك القوم ونادى عكرمة بن أبي جهل : من يبايع على الموت ؟ فبايعه

---

(١) أنظر معنى « الكردوس » في « الحضارة الأموية » .



خريطة حرب اليرموك
المعركة الأولى
العرب
الروم
وادي الرقاد
المعركة الثانية
المعركة الأخيرة

٤٠٠ من الوجوه والفرسان ، واشتد القتال وتفرق فرسان الروم ومشاتهم ، وكان كثير منهم مقيدين بالسلاسل استعداداً للموت ، فحصر العرب الجيش البيزنطي بين اليرموك ووادي الرقاد وأبلوا في القتال بلاءاً حسناً ، فهوى أكثر أعدائهم في الوادي • أما من قدروا على الهرب بعبر النهر فانهم استؤصلوا على الجانب الثاني منه استئصالاً يكاد يكون تاماً ، وخر تيودور نفسه صريعاً • وكانت خسارة الروم فادحة جداً وخسارة العرب طفيفة لا تكاد تذكر بالنسبة اليها فكانت نحواً من ٣٠٠٠ قتيل فيهم كثير من جلة الصحابة وأعيانهم ، وكانت آخر كلمة فاه بها هرقل بعد هذه الكارثة « السلام عليك يا سورية ونعم البلد هذا للعدو » ونقل أنه ورد كتاب من عمر بن الخطاب (ر) ـ والعرب يحاربون في اليرموك ـ فيه الخبر بوفاة أبى بكر (ر) وتولية عمر (ر) الخلافة وفيه عزل خالد بن الوليد وتولية أبى عبيدة القيادة العامة ، فلم يتأثر خالد بل قال : اني لا أقاتل لأبى بكر (ر) وعمر (ر) وانما أقاتل في سبيل الله• ويظهر أن الخليفة عين أبا عبيدة للينه ومرونته السياسية والادارية مع أن خالداً كان شديداً لا يهتم ببذل الأرواح في سبيل الظفر • وقد صرح عمر (ر) مراراً أنه لم يعزل خالداً لضعفه ولا لريبة فيه ، على أن عبقرية خالد كانت ألمع في القتال وعبقرية أبى عبيدة كانت أصلح للسياسة والادارة •

تولية أبي عبيدة محل خالد بن الوليد وسببها

دور النساء العربيات

وقد شاركت النساء العربيات في فتح الشام ، كان عليهن سقي الجند الماء ومداواة الجرحى ، وقد شارك فريق منهن في القتال كخولة بنت الأزور أخت ضرار بن الأزور الذي أبلى بلاءاً حسناً في فتح العراق والشام ومنهن عفرة بنت غفار الحميرية

ونساء كثيرات من أهل اليمن والأقطار العربية الأخرى .

اتمام فتح فلسطين

وأتم عمرو بن العاص فتح غزة واللد ونابلس ويافا ، أما القدس فقد امتنعت وطلبت الاستسلام على يد الخليفة ، وقيل ان أبا عبيدة حضر بيت المقدس فطلبوا حضور عمر (ر) فسار عن المدينة واستخلف علي بن أبي طالب (ر) عليها وكتب الى أمراء الشام أن يوافوه بالجابية ، فلقيه يزيد بن أبى سفيان وأبو عبيدة وخالد بن الوليد ، ثم جاءه أهل بيت المقدس فصالحهم عمر (ر) عليها وعلى مدينة الرملة على أن يعطوا الجزية وأن لا يسكن معهم أحد من اليهود ، وفي خلافة عمر (ر) تم فتح أنطاكية وبيروت وطرابلس . وفي خلافة عثمان (ر) اجتمعت أعمال سورية كلها لمعاوية . وفي خلافته أذن له في غزو الروم في البحر وأعد لذلك أسطولاً في البحر الأبيض المتوسط وطلب الى عبدالله بن أبي سرح أن يجهز أسطولاً آخر فيمصر . فاجتمع الأسطولان على قتال أهل قبرص ففتحت سنة ٢٨ هـ وكان أمير البحر الذي قاد الأسطول لمعاوية عبدالله بن قيس الحارثي . فغزا خمسين غزوة بين شاتية وصائفة في البحر . ولما تم فتح فلسطين استأذن عمرو بن العاص الخليفة عمر (ر) في فتح مصر فأذن له فتوجه سنة ١٨ هـ ـ ٦٣٩ م على رأس حملة من أربعة آلاف مقاتل ثم أمده بثمانية آلاف آخرين بقيادة الزبير ، وفي مستهل سنة ١٩ هـ ـ ٦٤٠ م حدثت معركة الفرما ، وبعد مقاومة دامت شهراً سقطت المدينة في أيدي العرب فدكوا حصونها ثم سقطت بعدها عدة مدن الواحدة بعد الأخرى ثم نزل عمرو في عين شمس (هليوبوليس) وحدث اللقاء في تموز ٦٤٠ م فشتت العرب الجيش البيزنطي وفر قائده تيودور الى الاسكندرية ولجأ المقوقس ممثل

فتح بقية بلاد الشام

فتح مصر

وقعة عين شمس

بابليون

الانبراطورية الى حصن بابليون ، وشدد العرب الحصار على هذا الحصن سبعة أشهر نجحوا في آخرها في الاستيلاء عليه ، وكان ذلك في نيسان **٢١** هـ - **٦٤١** م • وبعد سقوط هذا الحصن توجه

الاسكندرية

عمرو الى الاسكندرية وكانت حاميتها تبلغ نحواً من خمسين ألفاً تسندها قوى الاسطول البيزنطي • أما العرب فكان عددهم قليلاً ولم تكن لهم سفن ولا آلات حصار • وبعد حصار دام **١٤** شهراً سقطت بأيديهم الاسكندرية وبذلك خضعت مصر جميعاً

بناء الفسطاط

للعرب وابتنى عمرو مدينته « الفسطاط » في عين شمس وجعلها معسكراً حربياً كالجابية في الشام والبصرة والكوفة في العراق وأقام مسجداً كان أول مسجد أسس في مصر ، وولى عمر بن

تولية ابن أبى سرح

الخطاب (ر) قبيل وفاته عبدالله بن سعد بن أبى سرح على الصعيد ولما تولى عثمان (ر) ولاه على مصر كلها سنة **٢٥** هـ - **٦٤٥** م • وفي نهاية هذا العام تمرد أهل الاسكندرية فقد أرسل اليهم

ثورة الاسكندرية

الانبراطور **٣٠٠** سفينة فذبحوا الحامية العربية بأسرها وكان عدتها **١٠٠٠** رجل وعادت الاسكندرية مرة أخرى الى ايدي البيزنطيين واتخذوها قاعدة للهجوم على مصر العربية ، فعاد اليها

توطيد الحكم العربى

عمرو بن العاص واشتبك مع البيزنطيين في مذبحة عظيمة ثم استولى العرب على الاسكندرية في أوائل سنة ٢٦ هـ - **٦٤٦** م مرة ثانية ، ثم أعيدت تولية عبدالله بن سعد على مصر فقام بحملات الى الجنوب والغرب واتخذ الاسكندرية ٢٦ هـ - **٦٤٦** م قاعدة للاسطول الذي أنشأه ثم استولى الاسطول العربي على جزيرة أرواد ورودس ، ودمر في سنة **٢٥** هـ - **٦٤٥** م **٥٠٠** سفينة كان يقودها انبراطور الروم في معركة ذات الصواري •

أسباب الفتح

فتح العرب هذه الفتوحات العظمة في مدة وجيزة في خلافة الراشدين ، وقضوا على الانبراطورية الفارسية وانتصروا على الانبراطورية البيزنطية وكونوا الانبراطورية العربية الواسعة في حين أنهم كانوا قبل اسلامهم يهابون الروم والفرس ويخشون بأسهما وسطوتهما ، ولم يدر في خلدهم أنهم سيكونون سادة الفرس والروم وحكامهم في يوم من الأيام ، فما الذي غير العرب وجرأهم ؟ وما الذي ساعدهم على الانتصار مع قلة عـــددهم وعددهم ؟

الاسلام

ان الاسلام وهو الدين الجديد الذي جاء به الرسول (ص) قد بدل أحوال العرب وقضى على أسباب تنازعهم ، ونزع من نفوسهم الأحقاد التي كانوا يتوارثونها ، فألف بين قلوبهم وانشأهم خلقاً جديداً « أشداء على الكفار رحماء بينهم » . وزاد في وحدتهم اعتقادهم انهم انما يفتحون العالم من أجل نشر الاسلام في الأرض كافة وأن من قتل منهم دخل الجنة ومن قتل من أعدائهم دخل النار ، وأن الذين يقتلون في سبيل الله ليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ، وأن الانسان لا يموت الا اذا جاء أجله ولا يصاب بسوء ولو كان تحت ظلال السيوف ، وزاد في رغبتهم لفتح الهلال الخصيب وفارس ومصر خصب تربتها وغناها وكثرة خيراتها وجدب بلادهم واقفار أرضهم ، وساعدهم على ذلك أنهم كانوا خفيفي الأحمال يصبرون على الجوع والعطش ويستعملون الابل لاحتمالها الظمأ أياماً في الصحراء ، وذلك مما ساعدهم على سرعة التنقل ، وكانوا ماهرين في ركوب الخيل ورمي النبال والمبارزة ، واشتهر بينهم نخبة صالحة من القواد أمثال : خالد بن الوليد وسعد بن أبي

خصب البلاد المفتوحة وغناها

عبقرية القيادة

وقاص وأبي عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة والمثنى بن حارثة الشيباني وحبيب بن مسلمة الفهري وكثير غيرهم ، أما الخلفاء الراشدون الذين كانوا يشرفون عليهم فقد كانوا يضعون لهم القواعد العامة للقتال والادارة والسياسة ، كاختيار المواقع الصالحة وحفظ خطوط المواصلات وامدادهم بالجيوش وغير ذلك ، مما ساعد على سرعة الفتح ونجاحه . وساعد على ذلك أيضاً تذمر أهالي البلاد المفتوحة على حكم الفرس والروم وارتياحهم لعدل العرب وتسامحهم ، ووجود الشعور بالقرابة بين عرب الجزيرة وعرب الهلال الخصيب فاصبح فريق منهم أدلاء لهم ومحاربين معهم لعدوهم المشترك من الروم والفرس ، وكان العرب يتخذون من الصحراء خطاً لرجعتهم فكانوا يجعلونها خلفهم دوماً ، فاذا غلبوا تقهقروا اليها فلا يستطيع الفرس والروم دخولها ، حتى اذا رجع الأعداء الى أماكنهم عاد العرب اليهم ولحقوا بهم ، فكانوا يقلقون راحتهم ويطاولونهم ويصبرون على حربهم ، ولعل هذا هو السر في عجز الفرس وغيرهم عن الاستيلاء على الجزيرة في جميع أدوار تاريخهم ، يضاف هذا الى الاضطراب الذي كان مستفحلاً في انبراطوريتي الروم والفرس والتنافر بين طبقات الشعب ، والانقسامات الدينية . كل ذلك أضعف دفاعهم ووقوفهم بازاء العرب . وكانت القادسية واليرموك وذات الصواري معارك حاسمة الأولى فتحت الطريق أمام العرب للتوغل شرقاً في بلاد الانبراطورية الفارسية والثانية فتحت الطريق أمامهم للاستيلاء على سورية ومصر والمغرب والثالثة فتحت أمامهم الطريق للسيطرة

توجيه الخلفاء

قرابة العرب من أصل الهلال الخصيب

أحكام الخطط الحربية

الانقسامات الداخلية عند الروم والفرس

على البحر المتوسط وسواحله . ومما ساعدهم على هــذا الفتح عدلهم ورفقهم ، وليس أدل على ذلك من وصية أبى بكر (ر) التي وصى بها أسامة حين أرسله الى الشـــام « لا تخونوا ولا تغـــدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفـــلاً ولا شـــيخاً ولا تعقروا نخـــلاً أو تحـــرقوه ولا تقطعـــوا شـــجرة مثمرة ولا تذبحوا شـــاة ولا بقرة ولا بعـــيراً الا لله(١) ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » . وكانوا يعاملون الناس معاملة واحدة ولا يحتقرون أحداً من أهل البلاد المفتوحة ولا يتعرضون لهم في شيء من أمور دينهم وأحوالهم في مقابل ضريبة طفيفة ذكرناها وتسمى الجزية يأخذونها منهم لحمايتهم واعفائهم من الحروب ، ولذلك طالما فضلوا العرب على حكامهم الاصليين كما يتبين من قول أهــل حمص الذي يصور شعور أهل البــلاد الاصليين نحو العرب الفاتحين وهو « لولايتــكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم » .

عدل العرب.

نتائج الفتوحات.

وقد نتجت هذه الفتوحات نتائج خطيرة اهمها :ـ

(١) تكون انبراطورية عربيــة تمتد من طرابلس وبرقة حتى حدود خراسان ، ومن أرمينية الى ساحل البحر العربي وذلك مما مهد السبيل لانتشار الاسلام واللغة العربيــة بين الفرس والروم والأكراد والأتراك والبربر وغيرهم .

(٢) انتشـــار العرب في شـــمال افريقيــة وشروعهم في تعريبها . واقامة كثير من الحاميات العربية في بلاد فارس . أما العراق والشـــام ومصر فقـــد كانت مأهولة بالعرب قبل الفتح

(١) وعلى رواية أخرى الا لمأكلة .

ولا سيما الهلال الخصيب ، ولكن طالعة الفتح[1] الأخيرة حملت اليها جزءاً كبيراً من عرب الجزيرة أحلتهم محل الأقوام الأجنبية فيها . وبذلك أصبحت من صميم البلاد العربية وبدأ تأثر العرب بالمدنيات القديمة التي كانت في هذه البلاد . وكانت قد طرأت عليها موجة الحضارة اليونانية ، فرجع العرب اليها شخصيتها السامية الاصلية وذلك مما أدى الى نهضة ثقافية في العصور التي تلت ذلك .

(٣) ازدياد ثروة العرب من الغنائم العظيمة والاموال الوافرة التي غنموها في هذه الفتوحات فأثرت في رفع مستوى معيشتهم .

(٤) بناء العرب مدناً وتمصيرهم أمصاراً كالكوفة والبصرة والفسطاط ، وحفرهم القنوات كترعة أمير المؤمنين التي تصل النيل بالبحر الأحمر ومثل نهر معقل ونهر الفيض « نهر العشار » بالبصرة .

(١) الموجة الأسلامية .

أسئلة عن عهد الراشدين

١ ـ هل يمكنك أن تستنتج قواعد سياسة أبى بكر (ر) في الحكم من خطبه وأقواله ؟

٢ ـ ما حروب الردة ، وما أسبابها ونتائجها المهمة ؟

٣ ـ ما الديوان وما الدواوين التي وجدت في عهد الراشدين ؟

٤ ـ ما الطريقة التي اتبعها الراشدون في جباية الأموال للدولة وما أنواع الضرائب التي استعملوها ؟

٥ ـ تكلم بايجاز على أهم ما تميزت به سيرة عمر بن الخطاب (ر) .

٦ ـ استعرض بايجاز سيرة الامام علي بن أبي طالب (ر) منذ نشأته حتى مقتله مستخلصاً من ذلك أهم صفاته وأعماله .

٧ ـ أوضح الأدوار المهمة التي تم فيها فتح العراق واذكر أهم الحروب الفاصلة بشيء من التفصيل .

٨ ـ أوضح الأدوار المهمة التي تم فيها فتح سورية واذكر أهم المواقع الحاسمة فيها .

٩ ـ اشرح كيف تم فتح مصر .

١٠ ـ اشرح مميزات الحكم في عهد الراشدين قارناً ذلك بالأمثلة .

١١ ـ ما الأسباب المهمة في انتشار الفتح وما النتائج المهمة التي ترتبت على ذلك التوسع ؟

١٢ ـ عرف من يأتي ذكرهم وما يأتي ذكره بايجاز :ـ

(١) أسامة بن زيد (٢) مؤتة (٣) أبو عبيدة بن الجراح (٤) مسيلمة الكذاب (٥) دومة الجندل (٦) المثنى بن حارثة (٧) درفش كابيان (٨) سعد ابن أبي وقاص (٩) رستم (١٠) الفسطاط (١١) ذات الصواري (١٢) عين شمس (١٣) القادسية (١٤)صفين (١٥) أجنادين .

الباب الرابع
الدولة العربية في الدور الأموي

الفصل الاول
دور النشوء

تمهيد

أسس هذه الدولة معاوية بن أبي سفيان وهو سيد الفرع الأكبر من الأمويين • وامتدت هذه الدولة من ٤١ هـ الى ١٣٢ هـ = ٦٦١ – ٧٤٦ م • ومرت بثلاثة أدوار :

الأول – دور النشوء ، وفيه اهتم الخلفاء بتثبيت سلطانهم والتخلص من مناوئيهم • وينتهي هذا الدور بخلافة عبدالملك بن مروان (٦٥ هـ – ٨٦ هـ = ٦٨٤ م – ٧٠٥ م) •

الثاني – دور التوسع والرفاهة والرخاء ، وفيه قام الخلفاء بفتوحات عظيمة شرقاً وغرباً وشمالاً واستقرت الامور وزاد الرخاء وينتهي هذا الدور بوفاة هاشم بن عبدالملك (١٢٥ هـ = ٧٤٣ م) •

الثالث – دور التدهور والسقوط ، وفيه ضعف الخلفاء الأمويون واضطربت البلاد وقوي اعداؤهم حتى استطاعوا ازالة حكمهم سنة ١٣٢ هـ = ٧٥٩ م •

معاوية بن أبي سفيان

معاوية أمير الشام

ولي معاوية بلاد الشام في أيام عمر بن الخطاب (ر) سنة ٢١ هـ • وكان سياسياً ذا دهاء وحنكة ، يعرف الأحوال ويحسن استعمالها والأوقات ويحسن استغلالها ، وعرف كيف يستميل

سياسة معاوية

رؤساء أهل الشام بالمال وغيره • وقوي نفوذ سلطته بمحالفته القبائل اليمنية وهي ذات الأكثرية • فجعل أهل الشام حزباً قوياً يؤيده ، واتخذ مقتل عثمان سبيلاً الى نيل الخلافة ، وجاهر علياً بالعصيان ، وكان في سياسته بين اللين والشدة وكثيراً ما كان يفضل الأول على الشدة ، وقد استخلف بعد حرب داخلية فاستعمل اللين وبذل المال ولم يلجأ الى الشدة الا وقت الحاجة اليها وهو من دهاة العرب • وقد تهيأ له من أصحابه جماعة دهاة أيضاً كعمرو بن العاص فهو الذي أشار عليه برفع المصحف في حرب صفين حتى حفظ جيشه من الهزيمة المحققة ، والمغيرة بن شعبة فهو الذي استمال اليه زياد بن أبيه ، وكان من أصحاب علي (ر) • وكان بارعاً في السياسة ذا أثر عظيم في توطيد سلطان الدولة في العراق وفارس •

فتوحاته

وفي أيامه توسعت الفتوحات ففتح عقبة بن نافع تونس وأسس مدينة القيروان وبلغ سواحل المحيط الأطلسي • وحاول معاوية فتح القسطنطينية فلم يفلح ورسخ أقدام العرب في ايران ولاسيما القسم الشرقي منها • وفتح جزيرة قبرص – كما مر سابقاً – وانتظمت أمور البلاد لتفقده اياها • وبعد أن نزل له الحسن بن علي عن الخلافة بشروط اشترطا عليه عام الجماعة سنة (٤١) هـ تفرغ لأمر الخوارج وكان قد انتشر مذهبهم حتى صار خطراً على الدولة الأموية • فاستعد معاوية لكسر شوكتهم وتسكين حركتهم فتم له ما أراد •

تنظيماته الادارية

ويعد معاوية من المنظمين ، فانه أنشأ جيشاً نظامياً من أهل الشام وأجرى عليهم الارزاق الوافرة وأسس أسطولاً عدد سفنه تزيد على ١٧٠٠ سفينة لحماية ساحل الشام وساحل مصر ، لأن تلك البلاد كانت معرضة للهجمات البيزنطيين ، وأنشأ أيضاً « دار صناعة » للسفن بعكا ، وكان صناعها ماهرين من المصريين والشاميين • ورأى أن أمور الملك لا تنتظم الا بسهولة المراسلات ونقل الأخبار بسرعة بين العاصمة ودمشق والولايات ، وبين الولايات نفسها فأنشأ (البريد) •

ولما كانت مملكته مجاورة للدولة الرومية البيزنطية عني معاوية بالأبهة والفخامة والتجمل في أمور الملك ، وكان ذلك من مقتضيات المعيشة الحضرية في الشام أيضاً ، ومما اقتبسه من الدولة البيزنطية نظام الحرس والحراسة والسير في الموكب ، ولعله استفاد منهم في تنظيم « ديوان الخاتم » فكان اذا صدر أمر من الخليفة في شأن من الشؤون جيء بالأمر الى ذلك الديوان أولاً وحفظت منه نسخة فيه ، ثم يحزم بخيط ويختم عليه بالشمع بخاتم صاحب الديوان ثم يرسل به الى جهته •

عنايته بالرأي العام

وكان معاوية يهتم بالرأي العام فقرب الشيوخ وأكرمهم بالمال واسترضاهم ، وقرب الشعراء وادر عليهم الأموال العظيمة ليسترضي قبائلهم ويبث الدعاية لنفسه ، وكان يشجع على مجيء وفود من القبائل ليسمع شكواهم ويقضي حاجاتهم •

عهده ليزيد

ومعاوية أول من جعل الخلافة وراثية ، فانه لما طعن في السن جعل ولاية العهد الى ابنه يزيد وأبطل طريقة الانتخاب والشورى ، فصارت الخلافة ملكية بعد أن كانت جمهورية فأدى ذلك الى سخط كبار الصحابة ورجال القبائل الذين لم يعتادوا

الوراثة فظهرت الآثار الخطرة لذلك النظام في خلافة يزيد .

توفي معاوية بدمشق في رجب سنة ٦٠ هـ وكانت مدة خلافته ١٩ سنة و ٣ أشهر و٢٧ يوماً .

يزيد الأول

جاء يزيد الى الحكم بعد وفاة والده ، فظهرت في عصره عوامل كانت راكدة من قبل .

ثورة الحسين

فقد نشطت الحركة العلوية في العراق لترجع الخلافة الى آل علي ، وأخذ العراقيون يسعون في استرجاع نفوذ كلمتهم الذي كان لهم في خلافة علي (ر) ، ووجدت المقاومة العلوية في العراق في شخصية الحسين بن علي الفذة خير زعيم لها ، فاتصل العراقيون بالحسين ودعوه الى المجيء اليهم ، وبرغم محاولة الحسين تقوية دعوته في العراق فلم تنجح حركته ، فقد أظهر العراقيون أنهم مترددون وأثرت في فريق منهم الأموال التي بذلها الأمويون وخاف الآخرون تدابير الأمويين الفعالة لقمع الحركة ، فخذلوا الحسين وتركوه في اللحظة الأخيرة فاستشهد مع أتباعه المخلصين في كربلاء يوم ١٠ المحرم سنة ٦١ هـ/ ١٠ تشرين الأول ٦٨٠ م فكان بذلك مثلاً أعلى للثبات والتضحية الشريفة في سبيل المبدأ .

حركة ابن الزبير

ومن جهة أخرى كانت حركة ثانية في الحجاز ، اذ سخط كبار الصحابة على نظام الوراثة الذي أدخله معاوية ، واستنكروا تحرر يزيد من القيود الدينية في سيرته ، كما انهم لم يرتاحوا لانتقال مركز الحكم الى دمشق ، وكان موجه حركتهم عبدالله ابن الزبير ولكنه لم يعلن دعوته الا بعد مقتل الحسين . فاضطر

يزيد الى ارسال حملة مزقت جيش المدينة في واقعة الحرة سنة ٦٣ هـ = ٦٨٢ م ونكبت المدينة • ثم سار الجيش الى مكة فحاصروا ابن الزبير قرابة شهرين ، واحتمى هذا بالكعبة الى أن جاء خبر وفاة يزيد ، فرفع الأمويون الحصار ، وحاول قائدهم الاتفاق مع ابن الزبير وترشيحه للخلافة على أن يصحبه الى الشام ، فرفض ابن الزبير ذلك •

معاوية الثاني وانقسام الشاميين

وخلف يزيد ابنه معاوية الثاني وكان ورعاً متديناً يكره الفتن فنزل عن الحكم ، فانقسم أهل الشام الى حزبين حزب برئاسة الضحاك بن قيس الفهري وهم القيسيون يؤيدون ابن الزبير وحزب يؤيدون الأمويين وهم اليمانون أي اليمنيون •

وتعدد مرشحو الأمويين للخلافة ، وأخيراً تم انتخاب مروان بن الحكم لأنه شيخ بني أمية يومئذ ، ولأن الحال الفوضى كانت تتطلب شخصاً قوياً محنكاً •

مرج راهط وبيعة مروان الأول

وكان لابد من تصادم جماعة مروان وجماعة الضحاك سنة ٦٤ هـ فوقعت معركة حاسمة تعرف بمعركة مرج راهط ، ظفر فيها الأمويون ودحر القيسيون • وتم على أثرها بالاعتراف بمروان خليفة في الشام •

أثر وقعة مرج راهط

أن ظفر الأمويين هذا خلف مشكلة مهمة ، فان معركة مرج راهط ولدت الأحقاد بين القيسيين واليمانين ، وأدت بالتدريج الى انقسام العرب في مختلف أنحاء الانبراطورية الى

صفين متناحرين عرب الشمال (قيس) وعرب الجنوب (اليمن) الا أن الأثر السيء لهذه العصبية لم يظهر الا في دور ضعف الدولة الأموية .

مروان يثبت قدم الأمويين

وجد مروان في استرجاع الولايات التابعة لابن الزبير فبدأ بمصر وغلب عليها بسرعة . ثم توفي بعد أن ثبت عرش الأمويين وأنقذ تراثهم من الضياع ، تاركاً العرش لابنه عبدالملك .

الفصل الثاني

توطيد الدولة العربية

في خلافة الأمويين

الحالة عند مجيء عبدالملك

تولى عبدالملك بن مروان أمر الخلافة سنة ٦٦ هـ (٦٨٥ م) بعد أبيه مروان بن الحكم ، فوجد الانبراطورية العربية في اضطراب شديد يتمثل (١) في انقسام الأحزاب الأموية الى فرقتين ، فرقة تؤيد عبدالملك ، وأخرى تؤيد عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق ، وهو من الزعماء الأمويين الذين كان لهم فضل في تثبيت الحكم المرواني (٢) وفي الحركة الزبيرية التي قوي زعيمها عبدالله بن الزبير ، ودانت له الحجاز والعراق وفارس . (٣) وفي حركة الخوارج والتوابين . (٤) وفي ثورة أخرى حدثت في أواخر خلافته ، هي حركة عبدالرحمن بن الأشعث في العراق ، فعزم عبدالملك على أن يستأصل أعداءه الواحد بعد الآخر ليتمكن من تثبيت عرش الدولة العربية بعد أن زعزعت أركانه هذه الاضطرابات . فتسلح بسلاح الشدة ، واستعان عمالاً وولاة حازمين ، لتنفيذ خطته ، فأخذ يسعي في التخلص من عمرو بن سعيد بن العاص فتمكن من الفتك به وبجماعة من أصحابه ، بمؤامرة دبرها عليهم ، وبذلك صفت له الأحوال في الشام ، فوجه همه نحو العراق ، وكان فيه مصعب

التخلص من عمرو بن سعيد

ضرب الخوارج في العراق

ابن الزبير والياً لأخيه عبدالله ، وكان العراق يومئذ منشأ للثورات والاضطرابات ، فقد كان فيه الأزارقة الذين ظهروا في خلافة يزيد الأول في الأهواز والبصرة ، وعظمت شوكتهم في العراق وفارس ، واتفقوا مع ابن الزبير أول الأمر وقاوموا الأمويين بشدة ، وبعد وفاته أرسل اليهم الأمويون عبيد الله بن زياد ، ثم حاربهم المهلب بن أبي صفرة وأبناؤه ، في أيام ابن الزبير وعبدالملك ١٩ سنة • ولما ولي الحجاج أمد الملهب بجنود كثيرة حتى استطاع أن يتغلب عليهم فشتت شملهم ، وكان في العراق

التوابون

أيضاً التوابون وهم اللذين ندموا على خذلانهم الحسين وتابوا الى الله من تركهم عونه ونصرته وقرروا الانتقام من قتلته ، غير أنهم انقسموا على أنفسهم الى حزبين ، حزب برئاسة سليمان بن صرد الخزاعي وحزب برئاسة المختار بن أبي عبيد الثقفي ،

معركة المختار

فسهل على الأمويين القضاء على الحزب الأول ، بقيادة عبيد الله بن زياد • أما المختار بن عبيد الثقفي فكان مغامراً طموحاً وكان أول الأمر من أنصار ابن الزبير ، ثم خالفه وباينه فرحل الى الكوفة ، واستغل ميل العلويين وأخذ يطالب بثأر الحسين ويدعو الى محمد بن الحنفية واستمال كبار الزعماء كابراهيم بن الأشتر ، وأخذ يستعد لضرب الأمويين ، غير أنه خشي أن يقع بين ابن الزبير والأمويين ، فأخذ يصانع ابن الزبير ويداريه ، واستعد لمقابلة الجيش الأموي الذي أرسله مروان بن الحكم ، بقيادة عبيد الله بن زياد واشتبك الجيشان في معركة الخازر ، على نهر الخازر وكان على جيش المختار ابراهيم بن الأشتر فقتل فيها عبيد الله بن زياد • وبعد انتصار المختار على الأمويين لم يبق

أمامه الا طرد الزبيريين من البصرة ، واستعد الطرفان للمناجزة • غير أن أشراف الكوفة أخذوا يستنجدون مصعباً على قتال المختار، ويقولون ان المختار يريد ازالة سلطان العرب بأن يستبدل به السلطان الفارسي ، لأن المختار قرب الأعاجم ولاسيما السبئية منهم وساواهم بالعرب ، حتى صار أكثر جيشه من الأعاجم ، فجرت بينه وبين مصعب عدة وقائع ، غلب فيها عليه ، وانتقم عرب الكوفة وأشرافها من الموالي • وأخيراً تحصن المختار وأتباعه في قصره بالكوفة ، فقطع مصعب عنهم المادة والماء ، واستقتل المختار وخرج من قصره فخر صريعاً ، وقتل مصعب سائر أتباعه الذين كانوا معه في القصر ، وكان جلهم من العجم وبذلك صفا العراق لمصعب •

ضرب الزبيريين في العراق

ثم جهز عبدالملك جيشاً قوياً قاده بنفسه الى العراق واشتبك مع مصعب في معركة على نهر دجيل قرب بلد ، فانتصر عليه وقتله سنة ٧١ هـ ـ ٦٩٠ م • وكان مما ساعد عبدالملك على تغلبه عليه أنه استمال كثيراً من اتباعه ، ووعدهم بالصلات والمناصب « وأن مصعباً لم يستصحب معه القادة الكفاة أصحاب البصر بالحروب والدربة في قيادة الجند • وأنه كان قد ولاهم على الموصل وفارس والبصرة وخراسان » • ومما ساعد عبدالملك أيضاً ضعف جيش مصعب بعد حروبه مع المختار ، وكره أهل العراق للقتال لما حل ببلادهم من الخراب والدمار • وكان مصعب بطلاً شجاعاً شهد له بذلك عبدالملك نفسه • ويروى أن

عبدالملك قال يوماً لجلسائه : من أشجع الناس ؟ قالوا أنت . قال : لا ، لكن أشجع الناس من جمع في داره بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين ، يعني مصعباً . وكذلك كان ابنه عيسى ، فيروى أن مصعباً حينما كان يحارب وقد خذله أصحابه أشار على ابنه عيسى أن ينهزم فأبى وقال : « لا تتحدث نساء قريش اني خذلتك ورغبت بنفسي عنك » فقال له أبوه : اذهب أنت ومن معك الى عمك في مكة ، فأخبره بما صنع أهل الكوفة ودعني فاني مقتول . فقال : « لا أخبر عنك قريشاً أبداً ، ولكن أبتي الحق بالبصرة فانهم على الطاعة أو الحق بأمير المؤمنين » . فقال مصعب : « لا تتحدث قريش اني فررت » ثم قال لابنه : تقدم اني أحتسبك .. وتقدما وقاتلا حتى قتلا . فدخل عبدالملك الكوفة فاتحاً ، ورحب به أهلها وأقاموا له وليمة في قصر الخورنق ، ومن ثم أخذ في تنظيم شؤون العراق فولى عليه أخاه بشر بن مروان ، وأبقى المهلب لمحاربة الخوارج ، وأرسل عماله على الولايات . ثم حصر همه في محاولة القضاء على عبدالله بن الزبير في الحجاز ، فجهز الحجاج بن يوسف الثقفي في سبعة آلاف فسار بهم من العراق حتى نزل الطائف ، ونشبت المعارك بين الحجاج وابن الزبير الى أن حصره في الكعبة ثمانية أشهر ، تم له النصر عليه في آخرها سنة ٧٣ هـ = ٦٩٢ م . وقد أظهر عبدالله من ضروب الشجاعة في ثباته على الحرب ما جعله مضرب الأمثال وحديثاً للناس زمناً طويلاً . وكان موقف أمه أسماء بنت أبي بكر (ر) من المواقف الخالدة في تاريخ المرأة العربية. وبقتل عبدالله بن الزبير تخلص الأمويون من عدو قوي ، دامت

القضاء على الحركة الزبيرية

حركته نحواً من تسع سنوات • وكان من أهم أسباب خيبته فقدانه العراق ، فذلك مما أضعفه ضعفاً مادياً وأدبياً • وساعد بخله الشديد على تفرق أصحابه عنه وانضمامهم الى الأمويين ، وساعد على الغلبة عليه جلادة الحجاج ودهاؤه •

ثورة ابن الأشعث

أما ابن الأشعث فان الحجاج ارسله لفتح تركستان ، في جيش كبير من أهل العراق ، قدر بعشرين ألفاً • وكان يتبع سياسة التروية في الفتح ، ولم يرق ذلك الحجاج ، فأمره بالمضي والتوغل • فأعلن ابن الأشعث تمرده وعصيانه ، وثار معه الجند ، وخلعوا طاعة الحجاج • ولما وصل ابن الاشعث الى بلاد فارس واقترب من العراق خلع عبدالملك بن مروان ونادى بنفسه خليفة للمسلمين فبايعه الناس ونفروا اليه من كل مكان ، وكثرت جموعه ، فاحتلوا البصرة والكوفة ، وخابت محاولة الخليفة لمصالحته ، فطاوله الحجاج الى أن جاءت النجدات المتتابعة من الشام ، فالتقاه قرب الكوفة وبدأ القتال سنة ٨٣ هـ = ٧٠٢ م ، ودام نحواً من ١٠٠ يوم حتى تم الفوز للحجاج ، فهرب ابن الأشعث الى الفلوجة ومنها الى البصرة ، ثم اجتمعت حوله فلول جيشه ، واشتبك الفريقان مرة أخرى في (مسكن) على دجيل ، فدحرت جيوش ابن الأشعث ، وفر هو الى سجستان وهناك لقي حتفه • وتتبع الحجاج الزعماء الذين ناوؤوه ، فقتل معظمهم وقتل في هذه الموقعة كثير من أشراف العراق • وبذلك دانت الانبراطورية العربية لعبدالملك ، وخضعت له خضوعاً تاماً •

فانصرف الى التنظيمات الادارية والاصلاحات الداخلية ، فعزل جميع الموظفين الخائنين ، وقطع الرشوة وقبول الهدايا . وفي حدود سنة ٨١ هـ = ٧٠٠ م قام عبدالملك بسياسة نقل شاملة ، فقد كان بالكوفة والشام ومصر دواوين بالعربية ، لاحصاء الناس وأعطياتهم ، وهي التي دونها عمر (ر) كما ذكرنا . والى جانب هذه الدواوين دواوين أخرى لوجوه الأموال وواردات الدولة وحساباتها . وكانت تكتب بالفارسية في العراق وباليونانية في الشام وبالقبطية في مصر ، فأمر عبدالملك بنقل جميع دواوين الحكومة الى العربية ، وساعده على ذلك عدد كبير من شباب العرب المثقفين ، في العراق والشام ومصر ، وعهد بذلك الى سليمان بن سعد في الشام ، وأمده بالمال وأعانه بخراج الأردن سنة كاملة ، ويقدر بـ ١٨٠ ألف دينار ، فلم تنقض السنة حتى فرغ من نقله ، وأتى به عبدالملك فدعا كاتبه سرجون الرومي ، فعرض ذلك عليه ، فأحزنه وخرج من عنده كئيباً ، فلقيه قوم من كتاب الروم فقال لهم : أطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم . وفي العراق أمر الحجاج صالح بن عبدالرحمن بنقل الديوان من الفارسية الى العربية فلم يزل صالح يبذل جهوداً كبيرة حتى فرغ منه برغم محاولة الفرس اقناعه بتركه . قال أحد كتبة الفرس : « بذلت لصالح مئة ألف درهم على أن يظهر العجز عن نقل الديوان ويمسك عن ذلك فأبى ونقله » . وفي سنة ٨٧ هـ أي بعد خلافة عبدالملك أتم الأمير عبدالله بن عبدالملك نقل الديوان بمصر من القبطية الى العربية .

نقل الدواوين

تعريب السكة واستقلالها

أما النقود التي كان العرب يتداولونها حتى عهد عبدالملك فكانت بيزنطية وفارسية ، فتمكن عبدالملك أن ينقل السكة والنقود الى العربية أيضاً ، وهذا مظهر ثان لسياسة التعريب التي سار عليها عبدالملك ، وهي خطوة لازمة للدولة لاكتمال سيادتها ، لان السيادة السياسية لا تتم الا بأن يصحبها السيادة المالية • فضرب عبدالملك الدنانير والدراهم والفلوس من الذهب والفضة والنحاس ، وأمر عماله بضربها ، فضربت في دمشق والعراق ، وأنشأ الحجاج في واسط داراً للضرب جمع فيها الضرابين والطباعين فكان يضرب النقود للخليفة ، وكان يكتب عليها « بسم الله الرحمن الرحيم » « الله أحد • الله الصمد » وأمر عبدالملك أيضاً أن يصنع « الطراز » وهو الألبسة الرسمية ، في البلاد العربية وان تكتب عليها آيات من القرآن •

ونظم عبدالملك البريد لنقل الرزم والرسائل بين العاصمة والولايات •

ولاية العهد

كانت ولاية العهد في أيام عبدالملك لأخيه عبدالعزيز ، فحاول خلعه وتولية ابنه فأبى أن يخلع نفسه ولكن وفاته حلت المشكلة فعهد عبدالملك الى ابنه الوليد ومن بعده الى سليمان •

ثقافة عبدالملك ووفاته

وكان عبدالملك أديباً فصيحاً وخطيباً مفوهاً ، وله معرفة واسعة بعلوم الفقه والشريعة وقد شاب مبكراً وتوفى سنة ٨٦ هـ ٧٠٥ م وعمره ستون سنة •

الوليد

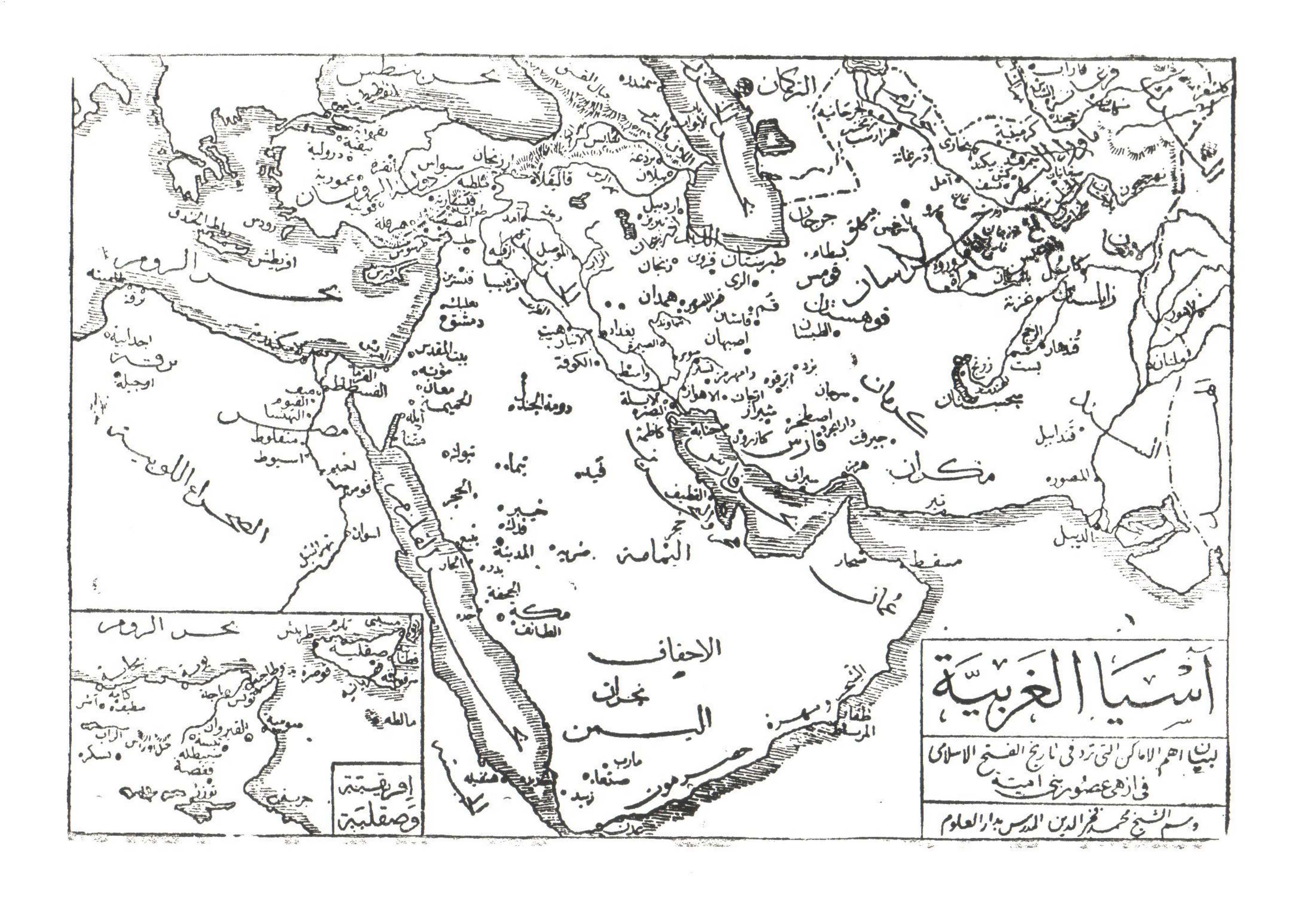
سار الوليد على خطة أبيه ، واذ كان دوره دور استقرار التفت الى العمران والفتوح • أتم الوليد فتح المغرب والأندلس في الغرب ، ووصلت جيوشه الى حدود الصين في الشرق ووسع المسجد الأموي وبناه بناءاً فنياً محكماً •

تغلغل الترف في عصر الوليد

وفي عصره قطع المجتمع شوطاً بعيداً في الحضارة ، فاعتنى الخليفة بالأبهة لاظهاره سطوة السلطان • وكان من أثر تغلغل الحضارة أن الوليد كان يلحن مع أن أباه قال « لا يلي العرب الا من يحسن كلامهم » •

من مزايا الوليد

وكان الوليد كريماً محبوباً ، اعتنى بالمرضى فانشأ المستشفيات للمجذومين واصحاب العاهات وأقام ملاجيء للعميان والمقعدين وعني عناية خاصة بتعليم القرآن •


آسيا الغربية
بيان اهم الاماكن التي ترد في تاريخ الفتح الاسلامي
في ازهى عصور بني امية
رسم الشيخ محمد فخر الدين المدرس بدار العلوم
افريقية وصقلية
بحر الروم
الاحقاف
نجران
اليمن
حضرموت
اليمامة
المدينة
مكة
الطائف
عمان
مسقط
مكران
كرمان
فارس
خراسان
قوهستان
سجستان
مصر
الفسطاط
الصحراء اللوبية
طبرستان
همذان
اصبهان
بغداد
الكوفة
البصرة
دمشق
بيت المقدس
دومة الجندل
تيماء
خيبر
فيد
برقة
صقلية

توسيع الدولة العربية

في خلافة الأمويين

تمهيد

ثبت عبدالملك بن مروان دعائم الانبراطورية العربية ، بعد حروب طاحنة في الشام والعراق وفارس ، وجهود جبارة بذلها طوال خلافته ، فلما ولي ابنه الوليد الخلافة كان الأمن مستتباً والبلاد هادئة فوجه عزمه الى الفتوحات ـ كما أشرنا اليه ـ في ساحات ثلاث .

الحرب مع البيزنطيين في آسية الصغرى

١ ـ الساحة الشمالية : وهي الساحة البيزنطية « التي كانت خاضعة للبيزنطيين الذين يطلق عليهم العرب اسم « الروم » . وكان معاوية يرسل الحملات في كل سنة الى الشمال ، وهاجم القسطنطينية مرتين بعد أن فتح عدة من المدن ورتب فيها الحاميات . وأرسل الوليد بن عبدالملك أخاه مسلمة لمحاربة الجراجمة فغلب عليهم وأخضعهم . ونقل الوليد قوماً من الزط ، من الأسرى الذين قبض عليهم محمد بن القاسم في السند ، واسكنهم بين الجراجمة . ثم عزم سليمان بن عبدالملك على افتتاح القسطنطينية ، فأرسل اليها في سنة ٩٨ هـ جيشاً كبيراً بقيادة مسلمة ، فحاصرها فيما قيل ثلاثين شهراً ، ولم يتمكن من فتحها ، فأمره عمر بن عبدالعزيز بالرجوع حالما تولى الخلافة . وقد ثبت العرب أقدامهم في أرمينية وتوغلوا في بلاد الروم « أناضول » في أزمان مختلفة .

فتح ما وراء النهر

٢ ـ الساحة الشرقية : كان العراق مركزاً مهماً لتوجيه الحملات المختلفة الى الشرق ، من أيام عمر بن الخطاب (ر) ، وزادت أهميته في أزمان الأمويين ، ولا سيما زمن الحجاج ، فانه أتم الفتوحات العربية في الشرق بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم الثقفي • فأما قتيبة فقد فتح بلخ وما حولها ، ثم فتح بخارى وسمرقند وأشروسنة وخوارزم وفرغانة من البلاد المعروفة لدى العرب باسم ما وراء النهر (جيحون) وهي جزء من تركستان الحالية • ثم عزم قتيبة ، بعد أن وطد نفوذ حكمه في بلاد ما وراء النهر ، على افتتاح الصين فاحتل كاشغر واقترب من الصين ، وبعث ملكها اليه بكثير من الهدايا • وكان الوليد قد توفي وتولى بعده سليمان بن عبدالملك ، وكان يكره قتيبة لمساعدته الوليد على خلعه من ولاية العهد ، فتوقف قتيبة عن الفتوحات ، ثم ثار عليه خصومه فقتلوه هو واخوته وأكثر بنيه ، ولما قتل قال رجل من عجم خراسان : يا معشر العرب قتلتم قتيبة والله لو كان منا فمات فينا حملناه في تابوت فكنا نستفتح به اذا غزونا • وأما محمد بن القاسم الثقفي المذكور فكان شاباً ولاه

فتح السند

الحجاج اقليم فارس في خلافة الوليد وعقد له جيشاً من ٦٠٠٠ جندي لغزو الهند ، فغزاها سنة ٨٩ هـ فاحتل الجيش في طريقه بلاداً كثيرة واشتبك مع الهنود في معركة « الديبل » العظيمة على مصب نهر السند وخندق حولها ورماها بالمنجنيق ، ورمى هيكل البد « بوذا » فذعر أهلها وهرب ملكهم وتم فتحها عنوة ودخلها منتصراً • فاختط بها للمسلمين دورهم وبنى لهم مسجداً وأنزلها ٤٠٠٠ من جنده • ثم توغل في البلاد واستولى على

أقطار أخرى منها صلحاً ، على أن يعامل أهلها معاملة الذميين وأن لا يتعرض لهياكل البوذيين ، وكان فتح محمد للسند بدء انتشار الاسلام والثقافة الاسلامية في تلك الديار • ولما مات الوليد وخلفه أخوه سليمان أمر بعزل محمد بن القاسم ، لأنه كان من قرابة الحجاج وممن أعان الوليد أيضاً على خلع سليمان وتولية ابنه ، فسجنه في واسط ثم أمر بقتله فقتل وهو يتمثل بهذا البيت :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا   ليوم كريهة وسداد ثغر ؟!

فتح شمالي افريقية

٣ ـ الساحة الغربية : وهي ميادين الفتح فى افريقية وأوربة ومركزها مصر • فتح عقبة بن نافع الفهري بلاد تونس في خلافة معاوية ، واختط بها القيروان • ولما ولي عبدالملك الخلافة أرسل حسان بن النعمان الغساني ، فحارب البربر وتغلب عليهم ، ونظم أمور تونس وشؤونها الى أن أرسل عبدالعزيز بن مروان والي مصر يومئذ موسى بن نصير لاتمام الفتوح فى افريقية ، فأخضع تونس وتوجه الى طنجة ففتحها ، واختط فيها دوراً للمسلمين ، وحصنها وولاها مولاه طارق بن زياد ، وأخضع قبائل البربر ونشر بينها الاسلام ، فكان يتقرب منهم ويتصل بهم ، ويخطب فيهم ويبذل الأموال في سبيل ذلك ، وترك موسى خلقاً كثيراً من العرب لتعليم البربر القرآن وفرائض الاسلام • ورتب أعيان التابعين لارشادهم وتعليمهم العربية • وأسس في تونس داراً لصناعة السفن ، وبلغ عدد مراكبه سنة ٨٤ هـ نحواً من ١٠٠ مركب ، وغزا بها سرقوسة من اعمال صقلية ، وساردينية ، وافتتح جزيرة ميورقة ، فاتسعت سلطته وأصبح يتلقى الأوامر

فتح الأندلس

من الخليفة نفسه في دمشق لا من عامله على مصر . اطلع موسى على اضطراب الحالة في الأندلس « أسبانية » ، باستمالته يوليان حاكم سبتة وهو عامل انبراطور القسطنطينية عليها ، ولما تأكد له ذلك وعلم انقسام أهلها على أنفسهم كتب الى الخليفة الوليد يستأذنه في اقتحامها ، وعبر مولاه « طريف أبو زرعة » في حملة استطلاعية عدتها ٤٠٠ راجل و١٠٠ فارس في أربعة مراكب ، ، فنزل الجزيرة الخضراء سنة ٩١ هـ ، فغنم ورجع . ثم عقد موسى لطارق بن زياد سنة ٩٣ هـ على سبعة آلاف من الجند ، جلهم من البربر ، وولى عليهم قواداً ورؤساء من العرب ، فنزلوا في شواطيء الأندلس ، فقاومهم (تدمير) . وكتب الى ملكه « أنه قد نزل بأرضنا قوم لا ندري أمن السماء هم أم من الأرض ؟ فأرسل الينا الأمداد ، وان أتيت يا صاحب الجلالة أنت نفسك كان أولى » . فقدم لذريق وقد ساءه اقتحام العرب ساحل الأندلس . واتفاق يوليان مع العرب . وكان موسى قد صنع سفناً كثيرة ، فحمل الى طارق خمسة آلاف جندي ، فأصبح جيشه اثني عشر ألفاً ، أكثر من نصفه فرسان . وأما جيش لذريق فكان يقدر بخمسين ألفاً الى تسعين ألفاً . ثم اشتبكوا في معركة دامت ثمانية أيام ، انحاز خلالها ابنا غيطشة الى طارق ، فكانا على جناحي الجيش الأيمن والأيسر ، وعقدت بينهم معاهدة على أن يسلم لهما طارق بعد ظفره ضياع أبيهم غيطشة وكانت ٣٠٠٠ ضيعة وكان قد اغتصب منه لذريق العرش . وبذلك هزمت الميمنة والميسرة ، وثبت القلب بعدهما ، فقد كان

فيه لذريق الا أنه تقهقر منهزماً • وتقدم المسلمون بسرعة يتعقبون فلول الجيش الهاربين ، وخسر العرب ثلاثة آلاف من رجالهم ، وغرق لذريق ، وخسر الأسبان ثلاثة أضعاف عدد المسلمين • ولما سمع الناس بالظفر والفتح أقبلوا من كل وجه نحو الأندلس ، فاحتل طارق مدينة شريش وقرمونة وأشبيلية وقد صالحه أهلها على الجزية • ثم نظم طارق جيشه وقسمه الى ثلاثة أقسام ، فاستولى قسم منه على قرطبة وفتحوا مالقة وغرناطة، ولم يلاقوا صعوبة في فتحها ، لأن سكانها كان أكثرهم من اليهود ، وقد استقبلوا الجيوش الاسلامية أحسن استقبال ، ووصل طارق الى طليطلة ، فاشترط على من بقي من أهلها تسليم السلاح والخيول • ولم يسمح لمن يريد مغادرة المدينة أن يأخذ شيئاً من ماله • أما الذين قرروا البقاء فقد حفظت عليهم أملاكهم وحريتهم الدينية في مقابل جزية يدفعونها على أن لا يشيدوا كنائس دون استئذانه ، وابقى لهم نظمهم البلدية والقضائية كما كانت • ولما مرت سنة على دخول طارق دخل موسى سنة ٩٤ هـ في ١٠ آلاف فارس و ٨ آلاف راجل • وبعد أن وطد السلطان العربي فيما فتحه طارق توجه الى أسبانية الغربية والبرتغال حتى وصل الى ماردة ، وكان فيها كثير من الآثار الرومانية من هياكل وملاعب وكنائس وحصون منيعة وبروج كثيرة • فاستولى عليها موسى بعد مقاومة من أهلها شديدة ، واشترط عليهم موسى تسليم السلاح والخيول وأموال الخزينة والكنيسة • ثم احتل موسى سلامنكا ومقاطعة كتلونيا حتى جبال البيرنة • واحتل طارق

بلنسية وشاطبة • وبعد أن فتح أسبانية توجه موسى وطارق الى الشام بدعوة من الخليفة ومعهما الغنائم العظيمة التى غنماها ، وتولى امارة الأندلس عبدالعزيز بن موسى بن نصير ، فأتم الفتوحات وعامل أهل البلاد معاملة فيها شيء من التساهل والحلم • وبعد وصول موسى وطارق الى دمشق بمدة قصيرة توفي الوليد• وتولى بعده أخوه سليمان بن عبدالملك ، وكان حاقداً على موسى فنفاه الى وادي القرى ، وهناك قضى نحبه في ضنك شديد • ولم يكن مصير طارق بأحسن من مصيره ، أما عبدالعزيز والي الأندلس فقد ثار عليه رجال سليمان وقتلوه ، وكان لذلك صدى مؤلم في الأندلس بأسرها • وكانت نكبة هؤلاء القواد العظام قتيبة ومحمد بن القاسم وموسى بن نصير وطارق من أهم الأسباب التي أدت الى ضعف الدولة الأموية في الشام ، وتوقف الفتوحات في أكثر الميادين الحربية •

علاقة العرب بالبيزنطيين

الحرب
بين العرب
والبيزنطيين

ذكرنا في بحث الفتوحات العربية على عهد الراشدين ان العرب استولوا على كثير من البلاد التي كانت تحت حكم البيزنطيين كالشام ومصر ، وانتصروا عليها في وقائع شهيرة كأجنادين واليرموك ، واستولوا أيضاً على بلاد الجزيرة وأرمينية• وتغلبوا على سواحل البحر الأبيض المتوسط الجنوبية والشرقية وعلى عدة من جزره • وفي العهد الأموى وجه العرب همتهم لضرب الروم في الشمال والغرب أي في الأناضول والقسطنطينية وافريقية ، فرتب معاوية الغزو اليها براً وبحراً • أما في البحر فقد اهتم بالأسطول وساعده على ذلك كثرة الغابات بجبال لبنان حتى جاوزت أساطيله ١٧٠٠ سفينة كاملة العدد والعدة ، ونازعوا البيزنطيين على السيادة البحرية • وأما في البر فقد رتب الشواتي والصوائف • والشواتي « ومفردها الشاتية » وهي الجيوش التي تغزو في الشتاء • والصوائف « ومفردها الصائفة » وهي الجيوش التي تغزو في الصيف • وكانت الغزوات متتابعة والحروب متصلة خصوصاً في الصيف • وكانت الثغور محفوظة من العدو بالحاميات في القلاع والحصون • وقد فكر الأمويون مراراً في مهاجمة الروم في الأناضول والقسطنطينية ، كما ألمعنا اليه سابقاً، فجرد معاوية حملته المشهورة سنة ٤٨ هـ لفتح القسطنطينية براً وبحراً بقيادة سفيان بن عوف • وكان في هذا الجيش ابنه يزيد وعبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير وأبو أيوب خالد بن يزيد الأنصاري ، فساروا حتى وصلوا الى

عهد معاوية

القسطنطينية ، فاشتبك العرب والروم ولم يتمكن العرب من فتحها لمتانة أسوارها واحراق النار الاغريقية(١) لأسطولهم • وفي أثناء الحصار توفي أبو أيوب الأنصاري ودفن خارج المدينة قريباً من السور وقبره هناك يزار حتى اليوم ، وعليه مسجد كان سلاطين العثمانيين يتوجون فيه • ولما تولى عبدالملك بن مروان الخلافة ، وكانت أمور الدولة مضطربة ، انتهز الروم هذه الفرصة فثاروا سنة ٧٠ هـ في الوقت الذي كان يتجهز فيه لحرب مصعب • وهاجموا جبل اللكام وأخضعوا جبل لبنان ، وكادوا يستولون على دمشق فاتفق مع البيزنطيين على مال يؤديه لهم كما اتفق مع حلفائهم الجراجمة على ألف دينار يؤديها لهم في كل جمعة • ثم انتظم الأمر لعبدالملك ودانت له البلاد فعاد الغزو العربي الى بلاد الروم ، ونظمت الشواتي والصوائف ، وسير ابنه للفتح • ففتحوا عدة مدن مهمة على الحدود الشمالية • وفي خلافة الوليد الأول كان مسلمة يسير الجنود الى الروم ويفتح بهم الحصون ، واستطاع أن يتوغل الى أواسط الأناضول حتى وصل الى عمورية •

عهد عبدالملك ابن مروان

ولما ولي سليمان بن عبدالملك الخلافة جهز سنة ٩٨ هـ - ٧١٦ م أخاه مسلمة بجند لفتح القسطنطينية ، وكان يرافق الجيش البري أسطول بحري قوي يمده بالمؤن ويحاصر القسطنطينية من ناحية البحر ، وأمر سليمان أخاه أن يقيم عليها حتى يفتحها ، فعبر الخليج وحاصرها وشتا بها وصاف ، ثم مات

(١) هي كرات فيها مواد ملتهبة تشتعل فوق الماء •

وهو لها محاصر . وقد كان ضيق على أهلها كثيراً حتى انهم طلبوا أن يعطوه عن كل رأس ديناراً ان رجع عنها ، فأبى الا فتحها عنوة ، فصبر أهلها على الحصار . ودام الحصار ثلاثين شهراً ، واضطر العرب الى تركها بأمر من الخليفة الجديد عمر ابن عبدالعزيز ـ كما أومأنا اليه فيما قدمنا من الأخبار ـ والظاهر أن البرد الشديد والثلوج الكثيرة وصعوبة المواصلات ، وبعد الجيش عن العاصمة دمشق ، وصعوبة امداده وتموينه وفتك عصابات البلغار ، والنار الاغريقية وأسطول الروم كل أولئك أضرت بالجيش العربي ومنعته من الفتح . وقد اتبع عمر بن عبدالعزيز طريقة اخلاء المدن الواقعة على الحدود ، فعل ذلك تخلصاً مما كان ينتابهم من شدة البرد وهجمات الروم .

الصلات المدنية

وفي أثناء حروب العرب مع البيزنطيين أيام الخلافة الأموية تأثر العرب بترفهم ومعيشتهم ، حتى نزعوا الى الترف والتأنق في الملبس والمأكل ، والتنعم بملاذ الحياة ثم شادوا القصور والمدن والمساجد . واستعمل العرب نقود البيزنطيين وقراطيسهم الى أن ضرب عبدالملك النقود العربية ، ومنع استعمال قراطيسهم . واقتبس العرب منهم شيئاً من نظم البريد ، وتنظيم الجيش وخصوصاً نظام الكراديس وبناء الأساطيل ، وكان العرب يستعينون بعمال الروم وصناعهم في مبانيهم المختلفة ، وكانت بين الروم والعرب علاقات تجارية وثيقة .

سليمان
ابن عبدالملك

وجاء بعد الوليد بن عبدالملك أخوه سليمان ، فأتم خطة الوليد في مهاجمة القسطنطينية ، وينسب اليه التنكيل بموسى بن نصير ـ كما نبهنا عليه آنفاً ـ لأنه قدم والوليد في مرضه الذي

مات فيه ، فطلب منه تأخير قدومه الى حين وفاته ليزهو بموكب القائد الظافر فلم يجب طلبه . وقد نشأ سلمان في البادية فصار أديباً فصيحاً .

توفي سليمان بعد أن عهد الى عمر بن عبدالعزيز بترغيب الفقيه رجاء بن حيوة . وكان أثر حكمه زيادة في الحزازات القبلية ، حين نكل بجماعة الحجاج القيسيين وقرب يزيد بن المهلب زعيم اليمانية وفاتح جرجان وطبرستان كما أنه لم يخفف من شدة الحجاج على الموالي والعراقيين .

عمر بن عبدالعزيز (٩٩ هـ - ١٠١ هـ)

نشأته وثقافته

ولي الخلافة بعهد من سليمان وقد عد ذلك من حسنات سليمان . وكان عمر قد نشأ في المدينة وتثقف فيها ودرس على شيوخها من محدثين وفقهاء ، فصار متديناً عادلاً .

خطبته الأولى

ولما بويع بالخلافة خطب قائلاً « أوصيكم بتقوى الله ... وأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم ... واني والله لا أعطي أحداً باطلاً ولا أمنع أحداً حقاً ... أطيعوني ما أطعت الله ، فاذا عصيته فلا طاعة لي عليكم » .

سياسته

ينتمي عمر من جهة أمه الى عمر بن الخطاب (ر) ، فكان يحاول الاقتداء به دائماً . وحاول السير بموجب كتاب الله وسنة نبيه (ص) وسياسة الخلفاء الراشدين . واتخذ من المبادىء الاسلامية وسيلة لاسترضاء الأحزاب المعادية للدولة من جهة ، ولنشر العدل من جهة أخرى ، وغايته من ذلك وضع الدولة على أساس متين .

واجتذب عمر الى نفسه الفقهاء والمحدثين واستمالهم بعد أن كان بينهم وبين بني أمية تنافر ، وأخذ يستشيرهم ويستفتيهم ، وأبعد الشعراء والمغنين والقيان عن البلاط الأموي ، فرضي الفقهاء والمحدثون والأتقياء عنه .

ادارته

واهتم بتعيين خيرة الولاة واعدلهم ، ولم يراع في تعيينهم انتماءهم الى حزب أو قبيلة بل راعى مصلحة المسلمين . وكان يطلب الى عماله الرفق بالرعية والعدل فيهم . فكتب الى والي خراسان أن لا يولي من أمراء المسلمين الا المعروف بالنصيحة لهم والتوفير عليهم وأداء الأمانة فيما استرعي ، وأن لا يكون ميله الى غير الحق ، وشجع الموظفين والولاة الأمناء على العمل والأمانة بزيادة رواتبهم وأرزاقهم . وحاول وقف التعدي ومنعه ، فبدأ ببني أمية فأنصف الناس منهم .

وكان عمر يشعر أن الحرب مع البيزنطيين ، وفي الشرق في أواسط آسية لم تكن في مصلحة الاسلام ، زيادة على أنها تكلف بيت المال وترهق المسلمين ، فأمر بوقفها من الجهتين .

سياسته تجاه الموالي

ولعل أهم مشكلة عاناها هي مشكلة الضرائب ومعاملة الشعوب المغلوبة . فقد لاحظ عمر أن السياسة العامة لبني أمية كانت تستند الى الرابطة القومية والعصبية العربية ، وأن ذلك أدى الى استهانة الأمويين بالموالى (وهم المسلمون من غير العرب) والى ارهاقهم بالضرائب أحياناً ، وأدرك أن هذه السياسة كانت تهدد الدولة بخطر جسيم ، لأنها كانت تدفع الموالي الى الثورة ، والى الاشتغال سراً وعلناً للقضاء عليها . هذا مع منافاتها للاسلام .

فحاول المساواة بين المسلمين من عرب وغير عرب ، وذلك لتكوين وحدة من عناصر الدولة المختلفة في ظل الاسلام . واهتم بانصاف الموالي خصوصاً في الناحية المالية .

ولتوضيح هذه المشكلة نرجع الى زمن الراشدين ، فقد كان نظام الضرائب الذي وضعه عمر بن الخطاب (ر) يعفي المسلمين من الجزية والخراج ، ومعنى ذلك أن انتشار الاسلام يؤدي الى قلة وارد الدولة ، وهذا هو الذي حصل حتى صار بيت المال معرضاً للافلاس . فحاول الحجاج حل الأزمة بفرض الجزية والخراج على الموالي ، فأدى هذا الى تبرم عام ومشاركتهم في ثورة ابن الأشعث . ثم حاول عمر بن عبدالعزيز وضع حل يضمن المساواة بين المسلمين ، ولبيت المال الوارد الكافي . لذلك ميّز بين الجزية والخراج فجعل الجزية ضريبة يدفعها غير المسلم (أي الذمي) . ويعفى منها حال دخوله الاسلام . أما الخراج فلم يعده ضريبة بل ايجاراً للأرض وأوجب على الزراع دفعه مسلمين كانوا أو غيرهم . وبذلك أرضى المسلمين كافة .

ثم أنه الغى الضرائب الأخرى التي ضربها من سبقه من خلفاء بني أمية ، وساوى في خراسان في العطاء بين أفراد الجيش من عرب وغير عرب كما فعل عمر بن الخطاب (ر) بعد أن كان الموالي يقاتلون من دون عطاء في العصر الأموي .

وقد أدت هذه الاصلاحات الى انتشار الاسلام بسرعة . ولكن ذلك قلل الوارد وأدى الى تبرم الولاة ورفع شكواهم الى الخليفة ، فأجابهم بقوله المشهور : « ان الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً » .

عطفه على الفقراء

ومن جهة أخرى ساعد الفقراء ولاسيما الحجاج منهم ، وأسعف المرضى بالعطايا ، وطبق هذه القاعدة على العراق وخراسان ، بعد أن كانت مقصورة على الشام .

سياسة الترضية مع الاحزاب

وحاول ترضية الأحزاب الثائرة من علويين وخوارج ، بمعاملتهم بلطف وكرم ، وبمحاولة الصلح معهم ، فخفف من سخطهم ، ولكنه لم يفلح تماماً ، لأن الخلاف بين الأمويين وخصومهم كان راسخاً قوياً واستفادت الأحزاب المعادية للدولة من تسامحه ، في نشر دعايتها على بني أمية . وقيل أن الدعوة العباسية التي قضت بعد ذلك على سلطان بني أمية بدأت في أيام خلافته . توفي عمر بن عبدالعزيز سنة ١٠١ هـ ولعله مات مسموماً . وصار مثلاً أعلى في التسامح والاحسان والعدل .

يزيد الثاني

وخلفه يزيد الثاني بن عبدالملك ، ولم يكن سياسياً حازماً ، مال الى القيسية فقويت العصبية القبلية في عصره ، واسرعت في تمزيق المملكة . وأولع هو باللهو والترف وشغل بهما عن أمور الدولة ، وقرب الجواري حتى كان فيهن من تدخلن في السياسة .

هشام ابن عبدالملك وأعماله الحربية

وجاء بعده هشام ، وكان من عظماء بني أمية ، اذ كان عملياً في سياسته قديراً . اهتم بتوطيد دعائم المملكة ، فوطد العرب اقدامهم نهائياً في آسية الوسطى ، بعد أن قمعوا ثورة عنيفة قامت فيها . وثار البربر في شمالي افريقية بزعامة الخوارج ، فأظهر هشام الحزم وأخمد حركتهم بعد جهد شاق . وتوسع العرب في عصره في الأندلس وفي جنوبي فرنسة ، ثم أن هشاماً واصل الحرب بهمة على الحدود الشمالية مع البزنطيين والأرمن .

سياسته الادارية

وحاول أن يخفف من شدة العصبية القبلية ، فسما بذلك فوق الأحزاب ولكن ولاته لم يستطيعوا مجاراته ، فاستمرت العصبية على حدتها • وباشر أعماله بشدة وأشرف على تنفيذها ، ووجد في خالد بن عبدالله القسري والي العراق شخصية قوية ، لتوطيد الحالة فيه ، ولتحسين الزراعة والتروية « الري » • وكان من اقدر ولاة العراق بعد الحجاج ثم سخط عليه فاستأصله •

اتجاهه المالي

وحاول هشام اكثار وارد الدولة بحفر القنوات كنهر المبارك وامتلاك الأراضي الواسعة والاقتصاد في النفقات ، ولكنه في حماسته هذه ارهق الرعية بالضرائب وذلك مما زاد في التبرم •

ثورة زيد

وفي عصره قام زيد بن علي بن الحسين بثورة في الكوفة ، بعد أن وعده الكوفيون بالتأييد وشجعوه على الثورة ، ولكن حزم الوالي وتخاذل الكوفيين خصوصاً الموالي منهم أدى الى اخمادها بسهولة وقتل زيد ، وكان هذا مما زاد في العناصر الساخطة على الدولة الأموية • ثم ثار ابنه يحيى بن زيد في خراسان على عهد الوليد بن يزيد وولاية نصر بن سيار فقتل وصلب جسده على باب مدينة جوزجان وسود أهل خراسان ثيابهم حزناً عليه • وبذلك جرت عادت العباسيين • والى زيد المذكور ينتسب أصحاب المذهب الزيدي باليمن •

وتوفي هشام والدولة الأموية قوية في الظاهر ، الا أن فيها عوامل ضعف داخلية ، كانت تعمل في هدفها ، فانهارت بعد سبع سنوات • وقد يظهر غريباً ولكن دراسة عوامل السقوط توضح ذلك •

الفصل الثالث

دور ضعف الدولة الأموية وسقوطها

الأمويون والعرب

جاء الأمويون الى الحكم بطريق القوة والدهاء ، ومع أنهم حاولوا ترضية خصومهم لم ينجحوا ، وبقوا في نظر فريق كبير من الأمة مغتصبين للخلافة ، كما أنهم بسياستهم العربية الخالصة أثاروا سخط الجماعات غير العربية • ولقد ظلت العناصر الساخطة تتحين الفرص وتعمل لاسقاطهم والتخلص من حكمهم •

سخط عرب العراق

وكانت الجماعات الساخطة مختلفة في وجهاتها وأهدافها ، ولم يكن يجمع بينها رابط سوى عدائها لبني أمية • فعرب العراق كانوا دائماً ينتظرون الفرصة للثورة ، لأن الأمويين سلبوهم سيادتهم التي تمتعوا بها في خلافة علي (ر) ، ولأن نقل العاصمة من الكوفة الى دمشق أضر بهم ضرراً اجتماعياً واقتصادياً • هذا الى أن كثيراً منهم كانوا يخلصون لآل علي (ر) ويرون الخلافة حقاً شرعياً لهم •

نقمة الموالي

وكان الموالي ، من أشد الجماعات تبرماً بالحكم الأموي ، لأن الأمويين لم يساووهم بالعرب ، على حين يأمر الاسلام بالمساواة بل اتخذوا سياسة عربية ، تعتمد على العرب وحدهم ، وتبعد بقية العناصر وتحتقرهم • وكان طبيعياً أن لا يساوي الأمويون الموالي بالعرب في العطاء وأن يحرموهم أياه في الأغلب الأعم ، ولقد أرهقوهم بالضرائب ، وذلك مما جعلهم

يبطنون العداء للأمويين ، ويرحبون بكل حركة موجهة عليهم ، علنية كانت ، كما في ثورة بن الأشعث ، أو سرية كما في الدعوة العباسية .

سخط الحجازيين

ونقم أهل الحجاز على بني أمية أنهم أبعدوا أبناء الأنصار وفريقاً من أبناء المهاجرين عن السلطان . وأنهم حولوا العاصمة الى دمشق . وزاد في نقمتهم شدة أساليب الأمويين في قمع حركاتهم .

موقف الفقهاء

وكان الفقهاء والأتقياء يتهمون الخلفاء الأمويين ، الا القليل منهم ، بالاهتمام بمتاع الدنيا ، وبالتساهل في أمور الشريعة الاسلامية في حكمهم ، فكان موقفهم عدائياً لبني أمية من جهة ، وباعثاً على حركات الثورة من جهة أخرى .

موقف الحزب العلوي

وكانت الأحزاب السياسية من علويين وخوارج ، ثم عباسيين من أشد العوامل خطراً ، واكثرها فعالية في قلب الدولة الأموية . فالحزب العلوي رأوا أن الخلافة هي حق شرعي لآل علي ، وأن الأمويين مغتصبون للحكم ، فثاروا ثورات عدة على بني أمية . وكانت دعوتهم مقصورة على العرب ثم وسعوها الى الموالي . ولما خابت محاولاتهم العلنية ، اهتم قوم منهم بالدعوة السرية ، وضموا تحت رايتهم أغلب الجماعات الناقمة على الأمويين ، في الأمور السياسية والاجتماعية والاقتصادية . أما

موقف الخوارج

حزب الخوارج فكان يمثل النزعة البدوية المتطرفة ، التي لا ترضى الا بخليفة مثالي ينتخب انتخاباً حراً دون التقيد بأسرة من الأسر ، وكانت الثورة على الظلم (والأمويون في نظرهم ظالمون) من مبادئهم الأساسية . فثاروا عدة ثورات عنيفة ، استمرت حتى نهاية عصر الأمويين ، وكلفتهم تكليفاً غالياً في المال والنفوس ونهكت قواهم وربكت شؤونهم .

الحزب العباسي

وأخيراً ظهر العباسون على مسرح السياسة مدعين بحق آل البيت الشرعي في الخلافة ، فنظموا حركة سرية ، استطاعت بعد ثلث قرن أن تقضي على بني أمية في الشرق •

العصبية القبلية

ومما مر يتضح أنه لم يكن يؤيد بني أمية غير قبائل الشام وقسم من القبائل المحالفة لهم ، ولكن ولاء هذه القبائل لم يصف لبني أمية وخصوصاً في العهد الأخير ، بسبب العصبية القبلية التي مزقت صفوفها • فمنذ معركة مرج راهط بدأ انقسام القبائل الى حزبين سياسيين قيسي ويمني ، يتنازعان على نفوذ الكلمة والسلطان ، وكان هذا الخلاف قليل الخطر أيام قوة الدولة ، لأن الخلفاء وقفوا بعيدين عنه وحفظوا التوازن ، الا أنه اصبح مصدر اضطراب منذ ولي سليمان بن عبدالملك ، ثم اشتد حين انجرف الخلفاء في تيار النزاع القبيلي بعد هشام ، وصاروا أشبه برؤساء الأحزاب ، واصبح سلطانهم يتوقف على تأييد أحد الحزبين لهم • وظهر هذا الانقسام في جميع أنحاء الانبراطورية ولكن أشده خطراً كان في خراسان ، لقلة عدد العرب هناك بالنسبة الى أهل تلك البلاد الساخطين ، وفي الشام حيث تمزقت صفوف الجند الشامي الذي ارتكزت عليه سلطة بني أمية •

ولعل السبب الأول لانهيار سلطان الأمويين هو ضعف المتأخرين منهم من جهة وقوة الدعوة العباسية من جهة أخرى ، ولنقصر ملاحظاتنا هنا على السبب الأول ، لأننا سنتناول السبب الثاني في محل آخر •

ضعف الخلفاء المتأخرين مشكلة العهد

لقد ضعفت صفوف الأمويين بسبب مشكلات العهد من ناحية ، وضعف أغلب الخلفاء المتأخرين من ناحية أخرى .

وذلك أن مبدأ الوراثة النبوية المتصلة بالحكم ، الذي أدخله معاوية لم يستقر ، بل كانت تولية الأخ أو أحد أفراد العائلة المالكة الكبار أمراً معترفاً به ، فأدى ذلك انقسام العائلة المالكة على نفسها ، وتنازع أفرادها على الخلافة في الدور الأخير ، حتى تعاقب أربعة خلفاء في ثلاث سنوات من هذا الدور . ومما زاد في خطر هذه الناحية عهد الخليفة الى أكثر من واحد .

وكان الخلفاء بعد هشام بن عبدالملك ضعفاء ، ولم يظهر بينهم خليفة قوي الا مروان الثاني بعد فوات أوان التدارك والتلافي .

الوليد الثاني

فالوليد الثاني بن يزيد الثاني أولع بالشراب والصيد وجمع حوله الشعراء والمغنين ، واشتهر بالتبذير واهمال مبادىء الدين كما أنه غاظ اليمانين ، فادى ذلك الى قيام ثورة عليه وقتله .

يزيد الثالث

وخلفه يزيد الثالث بن الوليد الأول وهو قائد الثورة عليه ، ويعرف بيزيد الناقص ، لأنه نقص رواتب الجند اقتصاداً في النفقة ، فنادى بمبادىء اصلاحية لاحسان حالة الرعية من عرب وموال ، ولكنه مات عاجلاً ، هذا مع انجرافه في العصبية القبلية بتقريبه لليمانية . وتلت موته أمور فوضى وخصومات على الخلافة ، تحركها اطماع الطامحين من الأمويين واطماع القبائل ورغبتها في السلطة . وفي هذه الأحوال لمعت شخصية مروان الثاني ، فاستطاع ضرب خصومه من بني أمية ، ولكنه لم ينجح في تهدئة الحالة ، وازداد نشاط الخوارج وثوراتهم وانتشرت في

كفاح مروان الثاني واخفاقه

أنحاء العراق وامتدت الى خراسان والجزيرة • وقام أحد العلويين بثورة في غربي ايران • وقد سعى مروان بنشاط في اعادة السلام للبلاد ، ورجع سلطة الأمويين • وأظهر مقـدرة نادرة وشجاعة فائقة ، فنجح في اخضاع الشـــام والعراق والجزيرة وغربي ايران ، وتراءى له النصر محققاً ، ولـكن زوبعة سوداء هبت من الشرق وهي زوبعة العباسيين ، فلم تبق لبني أمية شيئاً ولم تذر ، كما سترى في الحديث عن الدعوة العباسية •

الفصل الرابع
الحضارة العربية
والتنظيمات في العصر
الأموي

النظم الأموية
الخلافة

نشأ نظام الخلافة في المدينة نتيجة لأحوال الأمة الاسلامية الجديدة ، في حاجتها الى رئيس يحفظ لها كيانها ، ويقود جيوشها ، ويشرف على تطبيق دستورها الذي هو القرآن وسنة الرسول (ص) •

وكانت الخلافة ، في عصر الراشدين ، تستند الى الانتخاب غير المحدود ، كما في انتخاب أبى بكر وعلي (رضى الله عنهم) أو الاختيار الذي يصحبه موافقة الأمة كما في حالة عمر (ر) ، أو الانتخاب المحدود كما في حالة عثمان (ر) فقد انتخبه مجلس الشورى، ويقترن هذا الانتخاب في أنواعه ببيعة الأمة وموافقتها، وكان مبدأ الشورى أي معرفة رأي الملأ في الأمة من أهم أسس الحكم في عصر الراشدين •

الوراثة
في الحكم

ثم جاء الأمويون فكان أول تعديل أدخلوه مبدأ الوراثة أي نصب ولي عهد للخليفة ، وقد تم ذلك في عهد الخليفة الأول معاوية • ولكن هذا المبدأ كما مر بنا لم يستقر تماماً بل كان كل ما تم حصر الخلافة في البيت الأموي بوراثة غير متصلة من الأب الى الابن • وأحيا الأمويون التقاليد العربية ، واتبعوها في سياستهم أحياناً • ومن أثرها الاعتماد على ذوي الكلمة من

احياء التقاليد
العربية

رجال القبائل ، والعناية بآرائهم ومحاولة ترضيتهم • وهذا مما جعل موقف الخليفة الأموي أحياناً أشبه بموقف شيخ القبيلة العربية ، في عنايته بالرأي العام ، وفي ديمقراطيته الفردية • ووقفت المبادىء القبيلية بأزاء رسوخ مبدأ الوراثة ، لأن القبائل لم تـكن تعرف هذا المبدأ • وقسم الأمويون الانبراطورية العربية الى ولايات يختلف عدد موظفيها الرؤساء ، ولكن جرت العادة أن يكون في كل ولاية أمير يوجه سياستها الداخلية ، ويقود جيشها[١] ويعاونه على حفظ الأمن صاحب الشرطة ، وهو تحت اشرافه ، ومعه عامل خراج يشرف على جباية الضرائب • وقد تجمع هاتان الوظيفتان في يد الأمير ، ثم القاضي وهو تحت سلطة الأمير من حيث التابعية فقط •

التنظيم الاداري

وقد اختلفت التقسيمات الادارية • والأغلب فيها أن يكون العراق وايران ولاية واحدة مركزها الـكوفة • وكانا يقسمان الى ولايتين مركزهما الكوفة والبصرة • ثم الجزيرة العربية والحجاز واليمن ولاية مركزها المدينة • ومصر ولاية مقرها الفسطاط • وشمالي افريقية والأندلس ولاية تابعة لمصر أو تابعة للشام رأساً • والقسم الشمالي من العراق والشام وأرمينية ولاية • وكان للولاة سلطان واسع في ادارة ولاياتهم والتصرف فيها ، لأن الادارة الأموية كانت أقرب الى الحـكم اللامركزي • وهم يراجعون الخليفة في الأمور المهمة • ويستند التنظيم الاداري والعسكري في الدولة الى الدواوين ، وهذه بدأت ساذجة قليلة ، ثم توسعت وتعددت على حسب الحاجة ، وكانت كلمة (ديوان) تعني أول

الولايات

الدواوين

(١) يقال له « أمير على الحرب والصلاة » •

الأمر السجل ، ثم صارت تعني المكان الذي يحفظ قيد السجل أي « الدائرة » •

وكان عمر بن الخطاب (ر) أول من أنشأ الديوان في الاسلام ، اذ اتخذ سجلاً باسماء المحاربين على حسب أنسابهم ، مع بيان رواتبهم ، وهذا هو ديوان الجند ، وكان ذلك في حدود سنة ٢٠ هـ ـ كما ذكرنا ـ •

وكان الى جانب هذا الديوان بيت المـال ، حيث تودع الأموال الواردة من الغنائم ومن الزكاة • وكانت لهم دواوين بلدية ، في مراكز الولايات ، مهمتها جمع الخراج والجزية والارسال بالباقي الى المراكز ، بعد صرف نفقات الولاية • وفي العصر الأموي تعددت الدواوين في العاصمة بسبب الحاجة ، واتصـال العرب بالبيزنطيين والفرس • ومن دواوين الأمويين المهمة ما يأتي :ـ

ديوان الخراج : وهو من أهم الدواوين ، يتولى جباية الخراج •

ديوان الرسائل : يقوم بمراسلات الخليفة مع الولايات ومع الخراج •

ديوان الجند : فيه سجل أسماء الجند وأوصافهم وأنسابهم وأعطياتهم ورواتبهم •

ديوان الخاتم : فيه تحفظ نسخة من أوامر الخليفة أو رسائله بعد ختمها •

ديوان الصدقة : ينظر في موارد الزكاة والصدقات وتوزيعها على مستحقيها •

ومن أهم ما قام به الأمويون في هذا الصدد تعريب دواوين الخراج كما ذكرنا • ولنتطرق الآن الى الجيش •

الجيش

كانت الصحراء في الجاهلية خير مدرس لفن القتال ، لتعود القبائل الغزو • وجاء الرسول (ص) ففرض الجهاد لنشر الاسلام فصارت الأمة هي الجيش • وألف الجيش في عصر الراشدين من خمسة أقسام : مقدمة ، وقلب ، ومؤخرة وجناحين • ولذلك سمي الجيش بالخميس ، وكل قبيلة كانت تكون وحدة برئاسة شيخها ، ولكن قادة الجيش كانوا من كبار الصحابة ، كما مر بنا في بحث الردة والفتوحات العربية • واذا أراد الخلفاء توجيه حملة أعلنوا بها ، فيتطوع الناس للقتال ، واذا كانت الحملة بعيدة استصحب المقاتلون عيالهم ، وكان هذا يسهل عليهم الاقامة في البلاد المفتوحة •

واستفاد العرب في العصر الأموي فوائد من نظم البيزنطيين في تنظيم الجيش • وأهم تبديل حصل هو تقسيم وحدات الجيش الى فرق صغيرة متراصة ، تسمى الكراديس ، بدل نظام الصفوف المستقيمة ، مع المحافظة على الأقسام الرئيسية •

وأدخل الأمويون في الجيش شيئاً من التنظيمات زيادة على ما كان موجوداً منها في عصر الراشدين ، فكان في جيشهم عدة أصناف منها حرس الخليفة الدائمون وعددهم محدود ، وكان في العرب قبائل مستعدة دائماً للقتال ، تتسلم أرزاقاً ثابتة ، وهذا ينطبق على الشاميين • ثم قبائل تجند عند الحاجة كما في العراق •

وكان الجيش الأموي عربياً • ولكنهم كانوا يستعينون

بالموالي أحياناً • خصوصاً في الجبهة الشرقية وفي الأندلس ، وكانوا يستخدمون الموالي مشاة من دون عطاء معين الا في خلافة عمر بن عبدالعزيز كما قدمنا ذكره •

الأسطول

وبنى العرب الأساطيل في بحر الروم « الأبيض المتوسط » • فحكمت دوراً مهما في تاريخهم العسكري •

وبعد أن كان المسلمون الأولون يخشون البحر ألجأتهم الضرورة الى اقتحامه لحماية سواحلهم في مصر والشام من أساطيل البيزنطيين ، وكان انشاء هذا الأسطول في خلافة عثمان (ر) • وفي سنة ٣٤ هـ اصطدم الأسطول العربي والأسطول البيزنطي ، وكان فيه أكثر من خمسمائة سفينة في معركة حاسمة في البحر تعرف بذات الصواري فحطمه ، وانتصر عليه انتصاراً عظيماً •

وكان الأسطول الأموي يشارك الجيوش البرية في غزو البيزنطيين، وتوسع حتى شارك سنة ٧١٧ م أكثر من ١٧٠٠ سفينة في غزوة واحدة • وكان البحارة أول الأمر من سكان البلاد المفتوحة ، ثم تمرن العرب فصاروا بحارة ماهرين • وكانت وحدة الأسطول العمارة (أي السفينة) ، وتتألف من طبقتين ، السفلى للملاحين والعليا للمحاربين • وكانت السفن على أنواع : نوع كبير فيه أبراج وقلاع للدفاع ، ونوع يحمل المنجنيقات للرمي بالنفط والنار ، ونوع صغير الحركة للمناورات • والى الأسطول يرجع الفضل في استيلاء العرب على كثير من جزر البحر الرومي المذكور • وفي تحويل هذا البحر الى منطقة نفوذ عربية ، في سواحله الشرقية والغربية والجنوبية وقسم من السواحل الشمالية •

الأسطول التجاري

هذا هو الأسطول الحربي • وكان لهم أيضاً الأسطول التجاري الذي كان التجار يمتلكونه فنشر سيادة العرب التجارية في بحار الشرق بين البحر الأبيض وبحر الصين وقد بلغ اقصى ازدهاره في العصر العباسي •

هذه نظرة عجلى في النظم الادارية فان نحن دققنا النظر فيها وجدنا أنها كانت في دور نشوء ونماء طوال العصر الأموي ، وانها لم تستقر ولم تنضج الا في العصر العباسي • وهذا الوصف ينطبق على الوضع الثقافي والاجتماعي في الدولة •

النظام الاجتماعي

انقسم الناس في العصر الأموي الى عدة طبقات :ــ

طبقات المجتمع العرب

الطبقة الأولى : طبقة العرب وهم حكام المملكة ولهم السيادة فيها • وعلى رأسهم بيت الخلافة ، وسادات العرب ، ومهنتهم الحرب والسياسة وأما المهن والأعمال الكتابية فكانوا لا يحفلون بها : ويرون أن العربي خلق ليسود وغيره خلق ليخدم • ثم الموالي وعامتهم يشتغلون بالمهن والفلاحة والأعمال الكتابية اليسيرة • وقليل منهم حرروا أنفسهم للدراسات الأدبية والدينية وتركوا أثراً محموداً في هذا المضمار الثقافي •

الموالي

وقد استخف العرب بهم لمهنهم ولنسبهم وهم لا يكون لهم نسب الا بعد التحاقهم باحدى القبائل وكونهم موالي لها •

أهل الذمة

ثم أهل الذمة ، وهم غير المسلمين من أهل الكتاب أي اليهود والنصارى ومن التحق بهم من مجوس ايران ، ووثنيي البربر والبوذيين في الهند ، وهؤلاء كانوا يدفعون الجزية عن رؤوسهم ،

والخراج عن أرضهم ، ويتمتعون في مقابل ذلك بحماية المسلمين لهم وبقسط كبير من التسامح الديني ، ويخضعون في أمورهم المدنية ، ومعاملاتهم القانونية كلها لرؤسائهم الروحانيين • وقد بدأ عمر بن عبدالعزيز وضع قيود عليهم من حيث الزي والملابس ، وأراد ابعادهم عن الوظائف المهمة ، ليشعرهم أنهم أقل شأناً من المسلمين ولكن قيوده أهملت بعده • ومهما كان من الأمر فان معاملة المسلمين لأهل الذمة كانت حسنة • وكانت أعدل حقاً بكثير من معاملة الدول الأخرى للجماعات التي تختلف عنها في الدين •

الرقيق

والرقيق ـ وهم آخر الطبقات الاجتماعية ومصدرهم الأسر أو الشراء ، وكان الرقيق المجلوب من الفتوحات كثيراً ، حتى ليذكر أن موسى بن نصير ساق ثلاثين ألف أسير • ثم راجت تجارة الرقيق فيما بعد • وقد حاول الاسلام تحسين حالة الرقيق وعد اعتاق الأرقاء عملاً محموداً • ومنع بيع الأمة التي تلد لسدها فانها تصبح (أم ولد) وتعتق عند وفاة سيدها ويعد أولادها أحراراً ، وقد منع الاسلام استرقاق المسلم •

تطور العادات

وقد حافظ العرب في العصر الأموي على كثير من عاداتهم البدوية، كالكرم والمروءة والعصبية القبلية، وترفعوا عن الاختلاط بالأمم المغلوبة أول الأمر • ولكنهم تأثروا بهم بالتدريج بسبب اتصالهم بهم ، واقتنائهم لعدد كبير من الجواري الأعجميات والرقيق أثر في ذلك ، مضافاً الى الثروة في طراز حياتهم ،

التأنق

وصاروا يعنون بالمآكل وتنويعها • وبسط أغنياؤهم الموائد

الفخمة ، فكان الحجاج يقيم الولائم في شهر رمضان ، فيضع في كل يوم ألف مائدة ، على كل مائدة عشرة أشخاص وعشرة ألوان وسمكة مشوية وأرز بسكر • وكتب أحد ولاة خراسان الى عبدالملك بن مروان أن وارد ولايته لا يكفي مؤونة مطبخه •

ترف البلاط

وتتضح هذه الحالة في معيشة البلاط ، فالخلفاء الأولون مثلاً كانوا أقرب الى السذاجة ، يرتدون البياض في المناسبات المهمة كصلاة الجمعة والعيدين ، ويعنون في المساء بالاستماع الى القصص والروايات التاريخية ، والى المحفوظات الشعرية ، وكان شرابهم من عصير العنب •

ثم تطور الوضع فقد نقل التاريخ أخبار حفلات الغناء والموسيقى والرقص يقوم بها القيان ، ويجلس الخليفة وراء ستارة خفيفة يتسمع ، ومنهم من كان يجلس من غير ستارة ، كيزيد الثاني والوليد الثاني • فقد تأثروا في حفلات غنائهم وشرابهم بالفرس تأثراً ما • وبعد أن كان لنساء البلاط حرية واسعة نرى الأمويين في دورهم الأخير يقتبسون من البيزنطيين استعمال الخصيان في الحرم ، ويقربون الجواري ، ويولدونهن كما فعل الوليد الثاني • وتأنقوا في ملبسهم من الحرير والديباج ، فكان من الخلفاء كيزيد بن عبدالملك من لا يلبس القميص الا لبسة واحدة الا أن يكون القميص نادراً فاخراً ، وكان سليمان وهشام ابن عبدالملك من أكثر الناس تأنقاً في الملابس ، حتى لقد أثر أن هشاماً خرج للحج فحمل ثيابه على ستمائة جمل ، وكلف رجاله

أن يبقروا بطون الماشية عن السخال يطلبون الفراء البيض الناعمة ، وعنوا باقتناء الجواهر حتى قال مؤرخ : « انما أغلى الجوهر بنو أمية » • ويروي أن مصعب بن الزبير أهدى الى زوجته ، ثماني حبات من اللؤلؤ ، قيمتها عشرون ألف دينار • وكان الوليد بن يزيد يلبس عقود الجواهر ويغيرها كل يوم •

وكان الأمويون يرون في الأبهة وسيلة للتعبير عن سلطانهم بين الناس ، ولكن موجة الترف اقتصرت على الخلفاء ، وكبار رجالهم ، ولم تبلغ الشعب الا بصورة محدودة • وقرب الخلفاء الاطباء ، يستعينون بهم على حفظ صحتهم • وأغلب الأطباء كانوا من أهل الذمة • ومن الأطباء المشهورين الحارث بن كلدة الثقفي ، فانه درس في فارس في العصر الجاهلي وعاش حتى أدرك معاوية ، وابن أثال طبيب معاوية • وعبدالملك بن أبجر طبيب عمر بن عبدالعزيز وصديقه • ونيادوق طبيب الحجاج • وماسرجويه طبيب المروانيين •

الملاهي

ومن الملاهي التي أولع بها العرب في هذا العصر سباق الخيل ، فاهتم الأمويون باقتنائها ، وأنشؤوا ميادين لسباقها • وعني الوليد الأول عناية خاصة بجعل حلبات السباق الكبرى في رعايته • وفي حفلة سباق نظمها هشام اشترك فيها أربعة آلاف حصان • وكان من ملاهي البلاط الصيد وركوب الخيل ولعب النرد ولعبة الكرة والصولجان •

الغناء

واقتبس العرب من هذا العصر شيئاً من أساليب الغناء من

الفرس والبيزنطيين ونقلوا عنهم شيئاً من آلات الطرب وأضافوها الى ما كان عندهم •

وأكرم الخلفاء المغنين واهتم الناس ولا سيما المترفين منهم بسماع الغناء • وكان الحجاز بمركزيه : مكة والمدينة ، موطن ترف وارستقراطية ، وأهم موطن للمغنين والمغنيات ، وفيه كان المولعون يتمرنون على الغناء • واليه يفد المغنون ويعقدون حفلات الموسيقى والغناء ، وقد حث الأمويون على ذلك ليصرفوا الحجازيين عن السياسة • ولم يتخلف النساء عن الرجال في الغناء ، وكن أيضاً مثلاً بارعة في التأنق وابتكار الأزياء •

المرأة

وكان للمرأة في صدر العصر الأموي مركز حسن وحرية واسعة • فكان منهن من يعقدن المجالس الأدبية ويدعون الشعراء للمناظرة بحضرتهن ، كسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة • وكانت مكانة الأم محترمة جداً • وقد افتن النساء في ملابسهن وزينتهن افتناناً كبيراً ، فلبسن الحرير وارتدين الحلل الرقيقة ، وبرع جماعة منهن في ابتكار الأزياء وفي عقص الشعر • ولكن كثرة الجواري وانغماس الناس في الترف أدى الى ضعف مكانة المرأة بالتدريج حتى فقدت شيئاً من استقلالها في أواخر العصر الأموي •

الأندية

وفي التاريخ أشارات الى ما يشبه الأندية عندنا ، وهي في الأغلب أندية للغناء والموسيقى • ويظهر أن منها ما كان ثقافياً • ذكر عن أحدهم انه اتخذ بيتاً فيه شطرنجات وأدوات أخرى للتسلية ودفاتر فيها نبذ من كل علم ، وجعل في الجدار أوتاداً

فمن جاء علق ثيابه الخارجية على وتد منها ، ثم أخذ دفتراً أو وجد بعض ما يلعب به فلعب مع بعض الحاضرين •

الحركة الثقافية دور الانتقال الثقافي

وكما أفتن العرب في لهوهم وترفهم فكذلك عنوا بالنواحي الادبية والفكرية ، وكان العصر الأموي عصر انتقال ثقافي مثل فيه القديم الى جانب الجديد ، فكان الشعر العربي والدراسات الاسلامية الى جنب الآراء النصرانية واليونانية •

ويلزمنا ابتداءاً ملاحظة أمرين : أحدهما أن القبائل المهاجرة للأمصار نما فيها الذوق الحضري مع محافظتها على التقاليد البدوية ، والآخر أن الشعوب المغلوبة اندمجت بالتدريج في المجتمع الاسلامي وأدخلت معها تجارب وتقاليد حضارتها الخاصة فأوجدت خصباً في الفكر العربي •

أنواع الدراسات

وقد اتخذت الحركة الفكرية وجهتين : الدراسات الدينية والدراسات اللغوية ، وأعظم مراكزها المدينة موطن السلام ومركز دراسة الحديث ، والبصرة والكوفة ملتقى العرب والعجم ومركز الدراسات اللغوية وكذلك الدينية •

القرآن وعلومه

ووجه المسلمون عنايتهم أولاً الى جمع القرآن وتفهمه ، فنتج ذلك بالتدريج علم التفسير • وقد استعان المفسرون بالقصص الديني الذي عند اليهود والنصارى لشرح بعض ما ورد في القرآن • فتسرب في الطريق بعض النتائج الفكري للأمم الأخرى وامتزج بثقافتهم • ولتفسير القرآن استعين بأقوال

الحديث

الرسول وأعماله التي تتصل بالنص ، وبحث الفقهاء في سنة الرسول (ص) عن حلول المشكلات المختلفة ، فأدى ذلك الى

ظهور علم الحديث ، وحاول فريق جمع الأحاديث النبوية ، حتى ظهرت في العصر الأموي مجموعتان من أحاديث الرسول ، وضعت الأولى للخليفة عمر بن عبدالعزيز وجمع الثانية مالك ابن أنس في كتابه المعروف بالموطأ الذي اشتهر في خلافة المنصور العباسي •

الفقه

ووافق ما مر ذكره حركة أخرى هي استنباط الأحكام من القرآن والحديث يستنير بها الناس في أعمالهم ومعاملاتهم • وهكذا نشأ علم الفقه ، وبدأ ظهور المذاهب الفقهية حتى استقرت وتميزت في العصر العباسي •

مواضع الدراسة

وقد كانت المساجد مراكز الحركة العلمية ، يجلس العلماء وحولهم حلقات التلاميذ ، يتلقون عنهم العلم ، وكانت لهم كتاتيب (جمع كتاب أي مدرسة أولية) يلقن فيها الصبيان القرآن ويعلمون الكتابة وشيئاً من الأدب •

جمع الشعر الجاهلي

ولقد تطلب التفسير تخصيص معاني مفردات اللغة ، فالتجأ المفسرون الى شعر الجاهليين يستشهدون به ، لاثبات المعنى ، فأدى ذلك الى جمع الشعر الجاهلي وحفظه ، ونتج عن هذه الحاجة وعن الرغبة في حفظ اللغة البدء بكتابة المعجمات اللغوية ، فالف الخليل بن أحمد الفراهيدي كتابه الشهير المعروف « العين » فكان أول معجم في اللغة العربية •

التاريخ

وأدت دراسة الحديث والدراسة اللغوية الى نشوء علم التاريخ ، فدراسة اللغة استوجبت البحث في تاريخ الجاهلية ، وفي أنساب القبائل ، فظهرت روايات وأساطير في تاريخ العرب الأوائل ، يظهر ان قسماً منها كان

من مصادر نصرانية أو يهودية أو من نسج الخيال • ومن هذه الكتب ما كان من تأليف عرب يمانيين مثل عبيد بن شرية ، وكان معاوية استدعاه من اليمن ليحدثه عن أخبار العرب الأوائل • فلقيت أخباره رواجاً في البلاط خاصة •

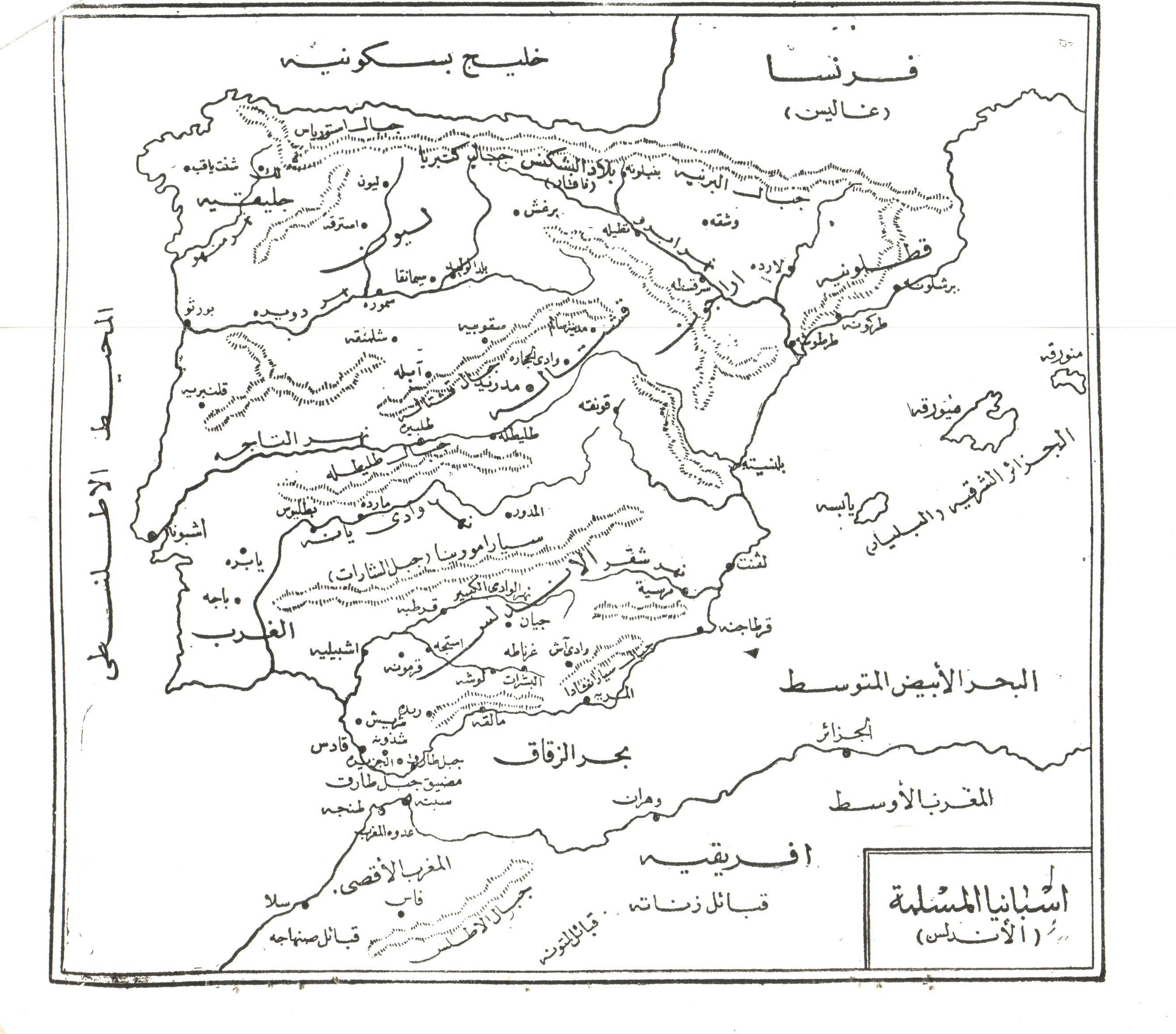
ومن ناحية أخرى ، كان الحديث يحوي مادة تاريخية غزيرة خصوصاً ما يتعلق بغزوات الرسول (ص) • وقد حاولت جماعة جمع الأحاديث التاريخية المتعلقة بغزواته وبسيرته • وظهرت كتب قليلة في الموضوع ، وهذه من أوثق الروايات القديمة ، ومنها ظهر علم التاريخ •

ولكن نتائج هذه الفعالية الفكرية كانت ضئيلة ، لأن الفقهاء حظروا تسجيل أي شيء كان المسجل عدا القرآن ، وقد ظهر أثر هذا المنع قوياً ، في حقل الدراسات الدينية التي كانت محور النشاط • ومع ذلك سجلت مجموعات صغيرة للشعر والحديث • وكانت عقبة أخرى في طريق التدوين هي ان النثر كان فناً في بدء نشوئه •

الشعر

وقد ازدهر الشعر في العصر الأموي خاصة ، وكان الناس عامة يتذوقونه ويعنون به ، ويعقدون الحلقات والمجالس لانشاده ، وكان المربد في البصرة منتدى أدبياً ، يجتمع فيه الشعراء ورواتهم ويلقون القصائد ، ويتهاجمون ويتفاخرون بمحضر جمع كبير من الناس •

وقد ساعد على هذا الازدهار عوامل متعددة ، منها تذوق الخلفاء للشعر وعنايتهم به ، لسمرهم ولغرض سياسي هو الدعاية



اسبانيا المسلمة
(الأندلس)
فرنسا
(غاليس)
خليج بسكونيه
المحيط الاطلنطي
البحر الأبيض المتوسط
بحر الزقاق
الجزائر الشرقية (البليار)
منورقة
ميورقة
يابسة
جبال استورياس
جبال كنتبريا
بلاد البشكنس
(نافار)
بنبلونة
جبال البرتيه
قطلونيه
برشلونة
طركونة
طرطوشة
لاردة
وشقة
سرقسطة
تطيلة
نهر ابره
برغش
جليقية
شنت ياقب
ليون
استرقة
بلد الوليد
سمانقا
سمورة
نهر دويره
بورتو
شلمنقة
شقوبية
مدينة سالم
وادي الحجارة
آبلة
مدريد
قلنبرية
طلبيرة
طليطلة
قونقة
نهر التاجه
جبال طليطلة
بلنسية
ماردة
بطليوس
وادي يانة
المدور
اشبونة
يابرة
باجة
الغرب
سييرا مورينا (جبل الشارات)
نهر شقورة
لقنت
مرسية
قرطاجنة
الوادي الكبير
قرطبة
جيان
اشبيلية
استجة
قرمونة
غرناطة
وادي آش
البشارات
لوشة
سييرا نفادا
المرية
مالقة
ريه
شريش
شذونة
قادس
الجزيرة
جبل طارق
مضيق جبل طارق
سبتة
طنجة
عدوة المغرب
المغرب الأقصى
فاس
سلا
قبائل صنهاجة
جبال الاطلس
قبائل التوبر
قبائل زناتة
افريقيه
وهران
الجزائر
المغرب الأوسط

لأنفسهم ، ثم أن الأحزاب السياسية كان لها شعراء مناضلون عنها ، وداعون الى مبادئها ، فنشأ من ذلك « الشعر السياسي » ومن أبرز ممثليه الكميت بن زيد ، شاعر الحزب العلوي ، والأخطل شاعر البلاط الأموي ، والطرماح شاعر الخوارج .

وكان للترف والغناء أثر بالغ في ظهور الشعر الغزلي الرقيق من حيث هو فن مستقل ، وزعيم هذا الشعر عمر بن أبي ربيعة فانه يصور ترف الحجازيين ولهوهم . ونشأ غزل بدوي طاهر ، يغلب عليه اليأس والحزن ، لتمسك أهل البادية بالعادات القبلية ، ومن زعماء هذا الغزل جميل بثينة ومجنون ليلى وكثير عزة .

ومن أنواع الشعر شعر الهجاء الذي يمثل التنافس القبلي ، ويصور العصبية القبلية ، التي كانت تمزق المجتمع الأموي ، ومن زعمائه جرير والفرزدق . وارتقى فن الخطابة في هذا العصر الى حد لم يتجاوزه العرب فيما بعد ، واستعمل لأغراض مختلفة فكانت مواعظ يوم الجمعة ، لحث الناس على التقوى ، أو لدعوتهم الى الجهاد . وكانت تلقى خطب للقواد يثيرون حماسة جنودهم ، والولاة للتأثير في الجماهير ، ولبث الدعاية ، وتعد مواعظ الحسن البصرى ، وخطب زياد بن أبيه والحجاج ، من روائع الأدب العربي وروائقه .

فن الرسائل

وتطور فن الرسائل في هذا العصر ، فقد بدأت الرسائل قصيرة دون تنميق ، ثم تطورت وصارت تميل الى الاسهاب والصنعة ، ولعلها تأثرت بمؤثرات أعجمية . وأول من أدخل اسلوب التطويل في الرسائل عمرو بن نافع كاتب عبيدالله بن زياد

ثم عبدالحميد الكاتب كاتب مروان آخر الخلفاء الأمويين .

قواعد اللغة

وعني العرب بدراسة قواعد اللغة ، وذلك لضبط القرآن ، ولظهور العامية واختلافها عن الفصحى ، ولكثرة الأعاجم وحاجتهم الى تعلم اللغة ، ثم أن ضبط الكلمات استوجب معالجة النقائص التي في الخط العربي . فوضع الحجاج علامات لتنقيط الحروف ، ليميز بين الحروف المتشابهة كالباء والتاء والدال والذال ، واقتبس من السريانية علامات لتحريك الحروف ، ليمنع الخطأ في تلاوة القرآن .

العلوم الدخيلة
الطب

وقد ظهرت في العصر الأموي أوليات للعلوم ، فقد بدأت تتسرب في العربية معلومات طبية من الفرس والروم ، ولقي الأطباء كل رعاية من ولاة الأمر .

ومما يذكر في هذا الصدد أن الوليد بن عبدالملك أمر بانشاء دور للمصابين بالأمراض المعدية ، وذلك لفصلهم عن الناس ولمعالجتهم . واعتنى خالد بن يزيد الأول بالكيمياء خاصة ، وأمر بترجمة عدة من الرسائل في الطب والكيمياء من اليونانية والقبطية . وبين التآليف رسائل في الكيمياء ينسب تأليفها اليه .

الترجمة

وقد بدأت الترجمة بصورة بطيئة وفردية في هذا العصر ، كالكتب التي ترجمت لخالد بن يزيد . ويذكر أن ماسرجويه نقل الى العربية عدة كتب منها كتب في الطب ، وترجمت أيضا كتب من التاريخ الفارسي والفلسفة اليونانية من اللغة الفهلوية أي الفارسية القديمة وكان ذلك في القسم الثاني من عصر

الأمويين ولكنها كانت قليلة • ومزية هذه الحركة أنها فتحت الباب لنشاط الترجمة في العصر العباسي •

ولعل أعظم مأثرة في الترجمة قام بها الأمويون هي نقل الدواوين الى العربية • وبذلك أغنوها بكثير من المصطلحات ودفعوا الشعوب الأخرى الى تعلم هذه اللغة والتأليف بها ، فأضفت اللغة العربية طابعاً عربياً على مختلف عناصر الحضارة ، في العصر الأموي ، وساعدت على مزج مختلف الحضارات التي اتصل بها العرب لتكوين حضارة عربية زاهرة •

العمران

تمهيد

عني الأمويون مدة حكمهم ببناء المدن وانشاء الجوامع والقصور والعمارات المختلفة ، في أنحاء الانبراطورية العربية ، وساعدتهم على ذلك الأموال التي انهالت عليهم من الفتوحات والضرائب •

أثر فنون العمارة الفارسية والبيزنطية

وقد استفادوا فوائد كثيرة من فنون البناء الأجنبية : البيزنطية والفارسية ، وكان أثر الفن البيزنطي قوياً في الشام • ولكنهم لم يقلدوا غيرهم ، بل كونوا لهم فناً خاصاً يعبر عن ذوقهم مطبوعاً بالطابع العربي • ويتمثل هذا الفن في اختطاط المدن وبناء المساجد والقصور •

وكانت مدنهم التي شيدوها على نوعين :

المدن العسكرية

١ ـ مراكز عسكرية مدنية لجيوشهم وادارتهم ، ومنها القيروان التي اختطها عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ وجعلها مدينة

حصينة ، واعتنى بتنظيم الحياة الحضرية فيها ، وبنى فيها المسجد الجامع (١) الذي لايزال قائما ، وقدتم بناؤه سنة ٥٥ هـ = ٦٧٥م.

ثم واسط وهي المدينة التي بناها الحجاج على دجلة (اذ كانت تجري مجرى دجيلة اليوم) في مكان وسط بين البصرة والكوفة. شرع في بنائها سنة ٧٤ هـ - ٧٠١ م وفرغ منها سنة ٧٦ هـ - ٧٠٥ م ، وحصنها بسور جعل له أبواباً حديداً عجيبة الصنع ، وبنى فيها قصراً فخماً اشتهر بقبته الخضراء للامارة ومسجداً عظيمـاً .

وقد بناها ليجعلها مركزاً لجيشه الشامي ، وليخلص من جو المشاغبة في الكوفة والبصرة ، ويسيطر على البلاد ، وقد عاشت هذه المدينة زهاء ألف سنة ، وقد وصفها ياقوت الحموي « وكانت وفاته سنة ٦٢٦ هـ » قائلاً « وجدتها بلدة عظيمة ، ذات رساتيق (٢) وقرى كثيرة وبساتين ، ونخيل يفوت الحصر » ولم تتدهور الا حين بدلت دجلة مجراها قرب أرض الكوت وجرت في المجرى الحالي في الجهة الجنوبية الشرقية في القرن الثاني عشر للهجرة .

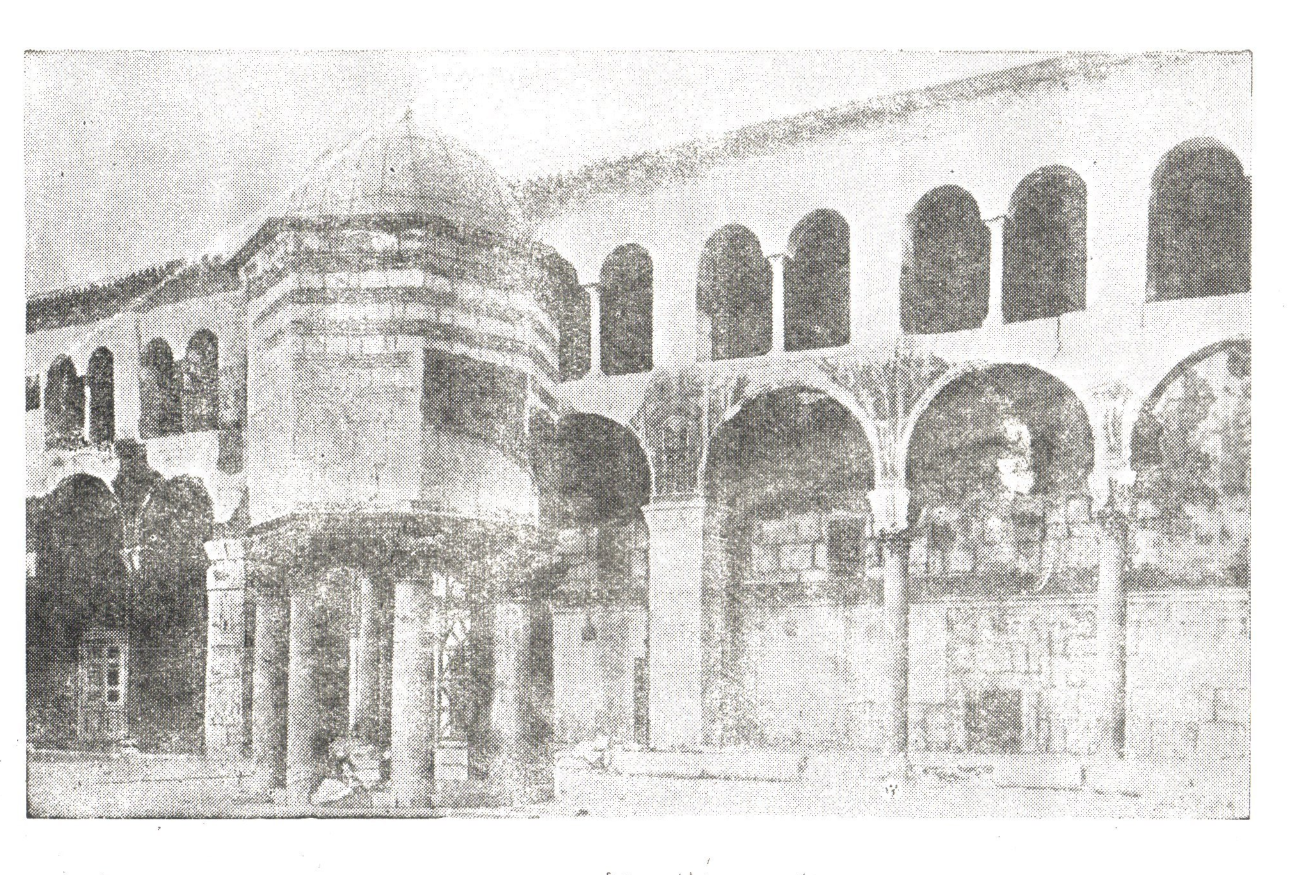
مدن النزهة

٢ - ومما شيدوه مدن للنزهة والراحة ، كالرملة التي عمّرها سليمان بن عبدالملك بفلسطين ، والرصافة التي شادها هشام في الشام غربي الرقة . وهي مشهورة بنقاوة هوائها .

واهتم الأمويون ببناء القصور حين أثر فيهم الترف ، كما أنهم أرادوا اظهار أبهة الخلافة . وعنوا ببناء الجوامع عناية فائقة، لأنها تظهر جلالة الدين ، وقوة الاسلام ومنعته .

(١) وفي هذه المساجد تقام صلاة الجمعة والعيـدين . بالاضافة الى باقي أنواع الصلوات . ويعرف المسجد الذي بناه عقبة بن نافع اليوم بأسم « مسجد القيروان الكبير » .

(٢) كل موضع فيه مزارع وقرى .



جانب من الجامع الأموي بدمشق

الجوامع
الجامع الأموي

ومن جوامعهم المشهورة : الجامع الأموي بدمشق وكان مكانه في الأصل معبداً وثنياً فحوله النصارى الى كنيسة القديس يوحنا المعمدان ، ثم جعل المسلمون نصفه جامعاً وأبقوا نصفه الآخر كنيسة . ولما كثر عدد المسلمين أخذ الوليد النصف الثاني من النصارى بعد أن عوضهم منه ، وأنشأ الكل مسجداً عظيماً احتوى على أساطين عظيمة وأعمدة جميلة ، ومحارب مزينة وقبب بديعة ، وزينه بالفسيفساء والنقوش الجميلة ، والفصوص الذهب والرخام ، واستعان بأشهر المهندسين والبنائين من فارس وبيزنطية ، ونقل مواد بنائه من مختلف البلاد واشترك أهل العراق وأهل الشام في جلب مواده من البلاد المختلفة وجعله غاية في جمال العمارة الفخمة لتكون له ميزة على معابد النصارى ، وليظهر للبيزنطيين أبهة الخلافة الاسلامية .

وقد غير عمر بن عبدالعزيز من محاسنه لكونها مذهلة للقلوب ، واحترق سنة « ٤٦١ هـ » فذهب كثير من الأعمال النفيسة التي فيه .

المسجد الأقصى

ثم المسجد الأقصى أي جامع بيت المقدس وفيه قبة الصخرة ، قائمة على دائرة ، داخلها صفان دائريان من الأعمدة . وجدرانها ومنافذها وسقفها مزينة بالفسيفساء والزخارف الزهرية ، والخطوط العربية ، بناها عبدالملك بن مروان سنة ٧٢ هـ على اثني عشر ركناً وثلاثين عموداً . أما المسجد الأقصى فكان طوله في رواية بعض المؤرخين ألف ذراع وعرضه ٧٠٠ ذراع ، وله ٣٦ باباً . وكان فيه عشرة محاريب و ٤ منابر



قبة الصخرة في المسجد الاقصي ببيت المقدس

للمؤذنين . وكانت سطوح المسجد والقباب والمنائر مكسوة بصفائح ذهب .

وعني الأمويون عناية خاصة بالمسجد الحرام في مكة ، وبالمسجد النبوي في المدينة ، وكان للوليد بن عبدالملك أكبر نصيب في ذلك .

العناية بالقصور والمتنزهات

وعنوا أيضاً بدورهم وقصورهم ففرشوا أرضها بالمرمر ، وزرعوا فيها حدائق غنّاً وزينوها بحياض بديعة .

واعتنوا بمتنزهاتهم كغوطة دمشق، فقد شقوا فيها قنوات ، حتى كانت من منازه الدنيا الاربعة(١) ، ومن متنزهاتهم الجميلة وادي العقيق في المدينة ، ومنازه الطائف .

---

(١) شعب بوان في فارس ، ونهر الأبلّة في البصرة ، ووادي الصغد بين سمرقند وبخارى ، وغوطة دمشق .

اسئلة عن الدولة الأموية

١ – ما الصفات التي تميز بها المؤسس الأول للدولة الأموية في الشام معاوية ابن أبي سفيان ؟

٢ – من القادة والولاة العظماء الذين شاركوا في بناء الدولة الأموية وتوطيد أركان ملكها ، وما نوع الخدمات التي قام بها للدولة كل واحد منهم ؟

٣ – ما التأسيسات الادارية الجديدة التي حدثت في العهد الأموي ؟

٤ – ما الدلالة التي تفيدها ترجمة الدواوين الى العربية وما قيمة ذلك ؟

٥ – ماذا تعرف عن حالة الجيش والأسطول في العهد الأموي .

٦ – على كم دور يمكن أن يقسم الحكم الأموي وما مميزات كل دور من هذه الأدوار ؟

٧ – وازن بين نظام الحكم في الدولة الأموية وعهد الخلفاء الراشدين .

٨ – اذكر بايجاز رؤوس المباحث لأهم الأعمال والاصلاحات التي اشتهر بها كل من الخلفاء الذين تأتي اسماؤهم : معاوية ، عبدالملك ، الوليد ، هشام .

٩ – ما البلدان والممالك الجديدة التي تم فتحها أيام الحكم الأموي ؟

١٠ – ارسم صورة واضحة للطبقات التي كانت تؤلف المجتمع الأموي واذكر الميزات والصفات العامة لكل طبقة .

١١ – في عهد أي خليفة بدىء بفتح اسبانية ، ومن القادة الذين تولوا أمر الفتح ،

وكيف تم لهم الفوز ؟

١٢ ـ ماذا تعرف عن مظاهر الحضارة العربية في الشام وما الأسباب والعوامل التي ساعدت على ازدهارها ؟

١٣ ـ ما عوامل الضعف والفساد التي ساعدت على سقوط الدولة الأموية ؟ اذكرها بحسب تسلسل أهميتها واشرح كل عامل منها كل الشرح مؤيدا ذلك بالأمثلة ان أمكنك ذلك ٠

عرف من يأتي اسماؤهم وما تأتي اسماؤه :

«١» عقبة بن نافع «٢» مرج راهط «٣» عبدالله بن الزبير «٤» زياد بن أبيه «٥» الموالي «٦» (٤١ هـ) «٧» (١٣٢ هـ) «٨» أهل الذمة «٩» ديوان الخاتم «١٠» القيروان «١١» أبو أيوب الأنصاري «١٢» الشواتي والصوائف «١٣» لذريق «١٤» طنجة «١٥» المختار بن أبي عبيد الثقفي «١٦» موسى بن نصير «١٧» القيسيون «١٨» قتيبة بن مسلم الباهلي «١٩» محمد بن القاسم الثقفي «٢٠» النهروان ٠

الفصل الخامس

الدعوة العباسية

انقسام الأمة

نشر الأمويون سيادة الاسلام ، ورفعوا شأن العرب ، واعتمدوا عليهم في ادارة شؤون دولتهم ، ولكنهم لم يستطيعوا توحيد صفوف الأمة العربية ، هذا زيادة على عجزهم عن التوفيق بين وجهتهم العربية ورغبات الموالي •

أثر العصبية القبلية

فالأمة العربية كانت تضعفها العصبية القبلية ، من جهة وسخط عدة من القبائل لسيادة قريش ، من جهة أخرى ، وأوضح مثال لهذه النزعة الخوارج ، ثم ان قريشاً كانت منقسمة أيضاً ، فبنو هاشم كانوا يطالبون دائماً بالخلافة لأنفسهم ، ويعدون الأمويين مغتصبين لها ، ومن هنا كانت الدعوة العباسية •

انقسام قريش

مشكلة الموالي

وكان التباين بين وجهة الأمويين العرب وطموح الموالي أخطر مشكلة سياسية اجتماعية أصابت الأمويين • فقد دخل الأعاجم في الاسلام بكثرة ، مدفوعين بعوامل مختلفة ، فمنهم من دخل في الاسلام رغبة فيه ، ومنهم من دخله تخلصاً من الضرائب الثقيلة وطمعاً في الميزات ، ولكن الأمويين استهانوا بهم ، وأبعدوهم عن الطمع في الوظائف المهمة ، وتجنبوا الاختلاط بهم ، وكلفوهم أحياناً ضرائب فوق الضرائب الأصلية• فلهذا سخطوا على بني أمية خاصة ، ثم ان منهم من كانوا يتذكرون مجد ايران ويحنون اليه •

الدعوة العلوية

بث العلويون دعوتهم بين هؤلاء الموالي وبين العرب الساخطين ، ودعوا الى المساواة وازالة الحكم الأموي ، فصارت الدعوة العلوية تمثل ثورة اجتماعية على النظام القائم • ثم ان حرمة العلويين وقوة الحزب العلوي جعلتا عناصر غريبة لا تمت اليهم بصلة تنتحل اسمهم • ومن هذه العناصر (الغلاة) ، وهم موال أسلموا اسلاماً ظاهراً ، ولكنهم حافظوا على كثيرمن مبادئهم المجوسية ، فهم جماعات تستروا بالاسلام ، وأضمروا في نفوسهم ارادة التخلص من سلطانه ، وكان بين الطامحين من حاولوا القضاء على الأمويين وتحقيق مآربهم بالدفاع عن آل البيت واعادة حقهم اليهم ، ولم يثن هؤلاء ولاوقف الغلاة تبرؤ الائمة العلويين منهم ، بل قاموا بحركات كان لها أثر عظيم في اسقاط الحكم الأموي •

الغلاة والانتهازيون

المختار

ومن هؤلاء الطامحين المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وقد ذكرنا أنه ثار في الكوفة سنة ٦٤ هـ باسم آل البيت • وكانت الكوفة ملتقى للآراء الاسلامية ، والآراء الغريبة عن الاسلام ، كما أنها كانت من مراكز الموالي الساخطين • وكان فيها فرقة من الغلاة ، تعرف بالسبئية وهم منسوبون الى عبدالله بن سبأ ، ادعوا أن جزءاً آلهياً حل في الامام علي (ر) وقالوا بحلول الجزء الآلهي في الأئمة بعد علي (ر) • وقد تبرأ الامام علي (ر) منهم وعاقبهم ، ولكنهم استمروا على آرائهم الغريبة • وثار المختار ووعد الموالي بالمساواة مع العرب ، وذلك مما اسخط عرب الكوفة ثم أنه تسامح على السبئية وحاول استمالتهم فنجح ، وكانت حركة المختار سبباً في نشوء فرقة غلاة جديدة اسمها

السبئية

الكيسانية

(الكيسانية) اعتقدوا أمامة محمد بن الحنفية ، أحد أبناء علي (ر) من غير فاطمة • وجاؤوا بآراء غريبة تبرأ منها محمد بن الحنفية نفسه • ومن الكيسانية تألفت فرقة « الهاشمية » التي قالت بانتقال الامامة من محمد بن الحنفية المذكور الى ابنه أبي هاشم عبدالله وغالت في تقديسه • فقالت أنه يحيط علماً بالأسرار الآلهية ، وأنه وحده يفهم باطن الآيات المنزلة • وكان أبو هاشم طموحاً يسعى في طلب الخلافة ، فحاول أن يستفيد من هذه الحركة ، فنظمها وبث الدعاية الى نفسه في الأمصار والأقطار •

الهاشمية

انتقال الامامة الى محمد بن علي العباسي

ومن عقائد الهاشمية أن الامامة تنتقل من الامام الى تلميذه الروحي الذي يتعلم منه الأسرار الآلهية ، ولا يشترط انتقالها من الأب الى الابن • ويروى أن أبا هاشم عبدالله هذا أوصى بالامامة بعده الى محمد بن علي بن عبدالله بن العباس ، تلميذه الروحي ، وأوصى دعاته بالدعوة اليه • فتلقب محمد بالامام وكان ذلك في أواخر خلافة سليمان بن عبدالملك ، ومن هنا تفرعت الدعوة العباسية •

الحميمة

وكان محمد بن علي يقيم في الحميمة ، وهي قرية نائية في شرقي الأردن ، وكانت مركزاً مناسباً للامام لانها بعيدة عن رقابة الأمويين ، واقعة على طريق الحج ، وفي طرق « المواصلات » وذلك مما يسهل للامام الاتصال بدعاته •

محمد بن علي ينظم الدعوة العباسية

ويعد محمد بن علي العباسي المنظم الأول للدعوة العباسية، وواضع أسسها ، فهو الذي بعث أول الدعاة الى خراسان وقال له « الطف بمضر » • وساعده على محاولته تسامح عمر بن عبدالعزيز ، حتى قيل أن الدعوة بدأت في خلافته كما ذكرنا سابقاً • ونحن نرى أن خلافة عمر بن عبدالعزيز كانت برهة

نشاط وليست بدء الدعوة ، وذلك أنها بدأت قبل ذلك • وقد استفاد محمد بن علي من تنظيمات الهاشمية ومن دعوتهم ، كما أنه استغل اسم العلويين ودعوتهم بالوجه العام ، فأوصى دعاته أن يبثوا الدعوة الى آل بيت النبي في الظاهر ، والى بني العباس منهم في السر ، وأن يبينوا للناس أنهم يريدون رجع العدل ، وتحقيق مبادىء الدين ، وتخليص الأمة من ظلم بني أمية ، أوصاهم بذلك ليستميلوا به كل متبرم وناقم وساخط •

مراكز الدعوة العباسية
العراق

واختار محمد بن علي ، أشد البلاد سخطاً على الأمويين ، وهي العراق وخراسان ، ففي العراق كان الموالي الساخطون من جهة ، ومنهم الغلاة ، ومن أخرى القبائل العربية ، التي ترى أن الأمويين سلبوها سلطانها ، وتمتعوا بواردات بلادها وخيراتها ، وحرموها أياها ، هذا زيادة على الشيعة المخلصين لآل البيت ، الذين فهموا الدعوة على أنها لآل علي ، فجعل محمد بن علي الكوفة مركز الدعوة العباسية أول الأمر ، وفيها كان يقيم رئيس الدعوة ، ومنها يبعث دعاته ، الى أنحاء العراق وخراسان • وكان آخر رئيس للدعوة في الكوفة (أبو سلمة الخلال) الذي صار فيما بعد وزير أبي العباس أول خلفاء بني العباس ، ولكن العباسيين لم يطمئنوا الى الكوفة كثيراً ، لأنها كانت موالية لآل علي ولأنها قريبة من واسط مركز الجند الأموي في القسم الشرقي من انبراطوريتهم ، فحولوا عنايتهم

خراسان

بالتدريج الى خراسان ، لأنها بعيدة عن الشام ، ولأن العرب فيها قليل ثم انهم لم يتحمسوا للدعوة ، ولا لاسقاط الأمويين كالموالي ، مع أن أهل خراسان كانوا من الموالي المتبرمين ، وبينهم

من كان يحلم برجع مجد ايران • هذا وخراسان أرض بكر لم تكن فيها دعوة سابقة ، كالدعوة العلوية ، وذلك مما جعلها مستعدة للانضمام ، الى كل حركة ترمي الى القضاء على الأمويين ، يتضح هذا من وصية تنسب الى محمد بن علي وولده ، أوصى بها دعاته قال : « أما الكوفة وسوادها فشيعة علي (ر) وولده، وأما البصرة وسوادها فعثمانية (نسبة الى الخليفة عثمان (ر)) وأما الجزير فحرورية (أي خارجية) ، وأما أهل الشام فليس يعرفون الا آل أبي سفيان وطاعة مروان ، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر (رضي الله عنهما) ، ولكن عليكم بخراسان ، فان هناك العدد الكثير ، وهناك قلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل ، ولم يقدح فيها فساد ، و (هم) ما يزالون يذلون ويمتهنون ، ويظلمون ويكظمون ، ويتمنون الفرج ويؤملون » •

لقد مرت الدعوة العباسية من حيث أحوالها وأساليبها بدورين رئيسين :

دور الكتمان في الدعوة

الدور الأول ـ دور الكتمان ، والعمل في السر ، وينتهي سنة ١٢٧ هـ ، وكان عامة الدعاة فيه فرساً ، أما دور العرب فيه فضعيف • وكانوا يجوبون البلاد متنكرين يظهرون بأنهم باعة أو تجار ، سائرين على حسب وصية محمد بن علي « ادعوا الناس في رفق وستر » •

ويتصلون بالامام العباسي سراً في الحميمة أو في موسم الحج • وقد أبدوا من الثبات والمواظبة مع الاضطهاد الذي أصابهم ما يدعو الى الاعجاب بهم • وقد استغلوا انصراف عرب خراسان الى الخصومات فيما بينهم ، وكانوا يدعون كل فئة من الساخطين الى مبادىء وآراء تناسب عقليتهم وشكواهم •

بدأ هذا الدور والكوفة هي المركز ، وانتهى وقد توسعت الدعوة في خراسان حتى فاقت العراق في الأهمية •

دور الجهر

والدور الثاني – هو دور العمل العلني ، ودور استعمال العباسيين القوة في مكافحة الأمويين وينتهي سنة ١٣٢ هـ ، بهدم السلطان الأموي • وبطل هذا الدور ابراهيم بن محمد بن علي الامام فقد خلف والده في تنظيم الدعوة •

رأى ابراهيم الامام توسع الدعوة في خراسان وقوتها ، وأن الوقت حان لتنظيم صفوف الأتباع ، والوثوب ببني أمية ، فعهد الى مولاه أبي مسلم الخراساني عبدالرحمن « وقيل اسمه عثمان » عام ١٢٨ هـ ليقوم بتلك المهمة • وقد قام أبو مسلم بجهود كبيرة لتنفيذ خطته ، ولكننا مع قدرنا لجهوده ، لا نرى أن ننسب اليه كل شيء ونغفل الجهود العظيمة الهادئة التي جهدها من كان قبله ، من الدعاة الذين مهدوا له الطريق في أخطر الأوقات •

أبو مسلم الخراساني

جهود أبي مسلم ودعوته

كان أبو مسلم ذكياً حازماً ذا أناة شديد الحذر ، أبدى مقدرة فائقة في التنظيم ، وبث في الحركة نشاطاً قوياً واضحاً ، فبدأ يتعرف مواطن الدعوة واتباعها في خراسان ، ونظم أمرها بنصبه داعية يمثله ، في كل منطقة من مناطق ايران ، ونجح في التأثير في الجماهير الايرانية نجاحاً حسناً ، مستنيراً في ذلك بأساليب من سبقه فقد أكد أن الدعوة هي لأفضل آل البيت • وانها تستهدف تحقيق العدل ، ورفع الظلم عن الموالي ودفعه ، والى المساواة بين المسلمين • وجعل عند الكثيرين منهم آمالا في احياء مجد فارس ، وبعث الدين المجوسي • وأبيات نصر بن سيار توضح موقف الخراسانيين من العرب في

أتباه الدعوة أحسن توضيح منها :ـ

قوماً يدينون ديناً ما سمعت به
عن الرسول ولا جاءت به الكتب
فمن يكن سائلاً عن أصل دينهم
فان دينهم أن تقتل العرب

وجعل أبو مسلم الناس يأملون ظهور المنقذ الذي سيملأ الارض عدلاً ، واستطاع أن يستميل نبلاء الفرس ، بوعده أياهم بتوسيع سلطتهم وتميزاتهم • وقد استغل الخصومة التي بين القبائل القيسية واليمانية في خراسان وشجع عليها ، وتجنب أول الأمر التعاون العلني بينه وبين أحد منهم أياً كان ، ففتح له المجال للسير بمهمته • وكان اعتماده على الموالي ، لأنه كان يعرف أن العرب بصورة عامة لم يتحمسوا للدعوة ، فلذا كان همه اذكاء نار الخصومة بينهم • فلما شعر العرب أخيراً بخطره وحاولوا التعاون بعضهم مع بعض ، نجح في اذكاء الأحقاد واثارة الحسد والخصومة بينهم فحال دون اجتماع كلمتهم •

بدء الثورة

ولما شعر أخيراً بتوطيد مركزه ، وبكثرة اتباعه ، دعاهم للتجمع قرب مرو (عاصمة خراسان) سنة ١٢٩ هـ ، وأظهر الحلف مع اليمانية ليبقى على انقسام العرب ، وتوجه نحو مرو سنة ١٣٠ هـ فأخرج نصر بن سيار والي بني أمية منها ، كل ذلك والخليفة مشغول بقمع الفتن • ولم يستطع تلبية نداءات واليه على خراسان ولااجابة استغاثته •

تغلب العباسيين في خراسان والعراق

وبعد فتح مرو بدأ النزاع المسلح بين العباسيين والأمويين ، ووكلت قيادة الجيش العباسي في خراسان الى قحطبة بن شبيب الطائي ، وأخفقت جهود نصر في صد قحطبة فهرب ، وتوفي

سنة ١٣١ هـ • وانقلب أبو مسلم على حلفائه اليمانيـة فنكل بزعمائهم وتخلص منهم • وأخضع قحطبة سائر خراسان وتقدم الى شمالي ايران وغربيها فأخضع مراكزها المهمة كالري وهمدان ونهاوند ، وصار يهدد العراق • ثم أرسل أحد ابنيه الى شمالي العراق ، وسار هو نحو الكوفة فاصطدم جيشه وجيش ابن هبيرة والي العراق ، قرب الكوفة ليلة ٨ المحرم سنة ١٣٢ هـ - ٢٧ آب ٧٤٩ م فكان الغلب والظفر للجيش العباسي برغم مقتل قائده ، فاضطر ابن هبيرة الى التسحب الى واسط • ودخل الجيش مدينة الكوفة وفيها بويع لأبي العباس عبدالله بن محمد بن علي فانه خلف أخاه ابراهيم في تنظيم الدعوة العباسية • وهذا هو مبدأ الدولة العباسية • ولابد لنا هنا من الاشارة الى أن عامة القواد الذين قامت على اكتافهم الدولة العباسية كانوا عرباً أمثال قحطبة ابن شبيب الطائي وابنيه الحسن وحميد ، وعبدالله بن علي ، وأبى العون الذين هزموا جيوش الأمويين في العراق وخراسان والشام ومصر وثبتوا الحكم العباسي •

معنى انتقال الحكم الى العباسيين

انتصر العباسيون على بني أمية ، فحلت عائلة عربية محل أخرى ، في حكم الانبراطورية العربيـة ، ولكن اعتمـاد العباسيين على الفرس في دعوتهم ، وتأكيد الوصية في أمر الدين أديا الى تطورات سياسية اجتماعية جديدة •

مشاركة الموالي في الحكم

فقد اشرك العباسيون غير العرب في الحكم ، وساووهم بالعرب ، فصارت دولتهم أممية اسلامية بعد أن كانت عربية أموية من قبل ، وقربوا الفرس من بين عناصر المملكة ، بصورة خاصة ، وسموهم الشيعة والأنصار ، واعتمدوا عليهم ، ولكنهم لم يهملوا العرب • فقد ظلوا يتمتعون بمقام كبير في الدولة ، وكونوا

حزباً يقابل الحزب الفارسي فيها ويناوؤه ، وبقيت اللغة العربية لغة السياسة والعلم والثقافة ، كما بقي الاسلام دين الدولة •

عناية العباسيين بالمظاهر الدينية

واهتم العباسيون بالمظاهر الدينية ، وادعوا أنهم جاؤوا لاحياء سنة الرسول (ص) وحفوا أنفسهم بالفقهاء واستشاروهم ، وكانت غايتهم الاستفادة من الدين لتقوية مركزهم السياسي وأضفوا على خلافتهم صبغة دينية مقدسة •

تأكيد مبدأ الوراثة في الحكم

وأكد العباسيون مبدأ الوراثة في خلافتهم ، لأنهم استندوا الى القرابة من الرسول (ص) في الوصول الى الحكم ، فأهملوا الرأي العام ، وحكموا حكماً استبداديا مطلقاً لا أثر فيه لديمقراطية الأمويين العربية ، ولا لمبدأ الشورى الاسلامي •

نقص تنظيم الوراثة

ولكنهم أخطؤوا في تنظيم الوراثة ، بأن لم يقتصروا على جعل العهد لواحد ، بل كانوا يعهدون أحياناً الى اثنين أو ثلاثة من أبنائهم ، فكان ذلك آونة مصدر مشكلات وفتن ، كما حصل بين الأمين والمأمون والمسترشد وأخيه •

انتقال العاصمة الى العراق

وانتقلت العاصمة من الشام الى العراق ، فأدى ذلك الى زيادة التأثير الفارسي في المجتمع والادارة ، وزاد الاختلاط بالأعاجم في هذا الدور ، مع علمنا أنه بدأ في أواخر العصر الأموي •

استمرار الحياة العامة

ولكن يجب أن لا نظن أن سقوط الأمويين ، ومجيء العباسيين معناه زوال عصر ، ومجيء عصر جديد • فالتبديل هو مجرد انتهاء أسرة ، وحلول أسرة محلها في الحكم • أما الحياة العامة فكانت في العصر العباسي استمراراً للعصر الأموي •

في الثقافة

فالعباسيون استندوا الى تراث الأمويين الثقافي ، ووسعوه في الترجمة والتأليف والاقتباس ، وساروا فيه بخطوات سريعة لم تكن ممكنة لهم ، لولا جهود الأمويين من قبل •

في النظم

واستمرت النظم الأموية في الضرائب والادارة ، والجيش والدواين في العصر العباسي ، ثم حصلت فيها تطورات بمرور الزمن اقتضاها تطور الحضارة وتبدل الأحوال ، فأدخل العباسيون نظام الوزارة مثلاً ، وأكدوا مركزية الحكم أكثر من الأمويين ، ونظموا البريد .

التحزب السياسي الجديد

وفي ختام هذا المدخل الى تاريخ العباسيين نذكر أن التحزب السياسي أصابه تطور محسوس به ، فقد حل النزاع بين العلويين والعباسيين ، وكلاهما من آل البيت ، محل النزاع بين هاشم وأمية . ثم أن العصبية القبلية خفت ، وصار النزاع بين السلطان العربي والقوميات الأعجمية ، ولاسيما الفارسية وذلك مما كان له أبلغ أثر في تطور التاريخ العربي .

الباب الخامس

الدولة العربية

في العصور العباسية

تمهيد

بويع أبو العباس عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن لعباس في ٢٦ من شهر ربيع الاول سنه ١٣٢ هـ الموافق ١٣ كانون الأول سنة ٧٤٩ م • وببيعته بدأت الدولة العباسية ، التي عاشت ما ينيف على خمسة قرون ، بعد أن مرت بادوار مختلفة ، حتى أسقطها هولاكو المغولي سنة ٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م •

العصور العباسية

ويمكننا تقسيم هذه الأدوار الى خمسة أعصر من الناحية السياسية ، ومن ناحية العناصر الحاكمة :

الأول

١ ـ العصر العباسي الأول : وفيه أنشأ العباسيون دولتهم وثبتوها ، ويتصف هذا الدور باشتراك الفرس والعرب في الحكم وفي الجيش ، وبأثر العادات الفارسية في المجتمع ، وبحركة ترجمة للعلوم الأجنبية ، شعبية ورسمية ، حركة لم يسبق لها مثيل • وفي هذا الدور كان الخلفاء أقوياء سيطروا على شؤون الدولة • وينتهي هذا الدور بوفاة المأمون بن الرشيد سنة ٢١٨هـ •

الثاني

٢ ـ والعصر العباسي الثاني : ويبدأ بمشاركة الأتراك للعرب وحلولهم محل الفرس ، وفي الحكم وفي الجيش ، وكان ذلك أزمان المعتصم والواثق والمتوكل ، مع محافظة الخلفاء على السلطة • ثم قوي نفوذ كلمة الترك واستبدوا بأمور الخلفاء ، وجرى نزاع على السلطة بينهم وبين العرب استمر واتصل ـ الا

في فترة انتعاش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري أيام المعتضد وابنه المكتفي ـ حتى انتهى بتسلط الأتراك . وتسلم رئيسهم الذي تلقب بأمير الأمراء للسلطة . وينتهي هذا العصر بالفتح البويهي للعراق سنة ٣٣٤ هـ . وفيه نقلت العاصمة من بغداد الى سامراء ، وتضعضعت المؤسسات الادارية وتقلصت سيادة الخلافة ، وقلت الواردات ، وبالرغم من ذلك كان هذا العصر عصر ازدهار الحضارة العربية وبلوغها أوج عظمتها ونضجها .

الثالث

٣ ـ والعصر العباسي الثالث : وهو عصر البويهيين وهم قبائل ايرانية بدوية متأخرة في الثقافة والحضارة ، حكموا في العراق مدة تزيد على قرن ، وقد بعثوا الأهواء الطائفية وشجعوا على الانقسامات الدينية ، فتأخرت الحالة الاجتماعية ، وسلبوا الخليفة كل حق وسلطان ، فلم يبق له الا الاسم . وينتهي هذا الدور بالفتح التركي السلجوقي للعراق سنة ٤٤٧ هـ .

الرابع

٤ ـ والعصر العباسي الرابع : وهو عصر الأتراك السلاجقة الذين حكموا البلاد قرناً واحداً ، وفيه استمر الانحلال الاداري ، وسيطرة الجيش على الشؤون العامة للبلاد ، كما كان في العصر البويهي . ويتميز هذا الدور بظهور الكليات أي المدارس الكبيرة كمدرسة الامام أبي حنيفة للحنفية ، والمدرسة النظامية للشافعية . وينتهي هذا الدور بانتعاش الخلفاء ، وكفاحهم للتخلص من السلاجقة حتى نجحوا في ذلك .

الخامس

٥ ـ والعصر العباسي الخامس : وهو الفترة الأخيرة . وفيها جرت محاولات قوية لاستعادة عز الخلافة ، وقد لمعت خلالها شخصية الناصر لدين الله . وظهرت فيها الجامعة العظيمة المعروفة بالمدرسة المستنصرية . ولكن الضعف وصل بالدولة وبالعالم

الاسلامي حداً لم تجد معه المحاولات شيئاً ، فلم تقاوم الدولة العباسية ولا غيرها من دول الشرق زوبعة المغول فدمرتها ، ثم بلغت جيوش المغول فلسطين ، وضربت الحضارة الاسلامية والخلافة في الصميم ضربة حاسمة قاصمة .

ولنتطرق الآن الى كل عصر بايجاز .

الفصل الأول

العصر العباسي الأول

أبو العباس سياسته

لما بويع أبو العباس[1] بالكوفة ـ كما قدمنا ذكره ـ خطب في مسجدها ، وأعلن أن العباسيين طلبوا الخلافة ، معتمدين على حق مشروع ، حصل لهم في قرابتهم من الرسول (ص) ووعد الناس بالسير على وفق الشرع الاسلامي ، وبشر الكوفيين خاصة والعراقيين عامة ، بانتقال السلطان الى أيديهم ، واعترف بجهود الخراسانيين في تأسيس الدولة الجديدة .

وكان أبو العباس سياسياً محنكاً ، واسع الأفق في الخلافة، أظهر قابلية في مدة حكمه القصيرة واستوزر أبا سلمة حفص بن سليمان الخلال المعروف بوزير آل محمد ، وكان أبو العباس يميل الى اللين يصحبه الحزم في سياسته ، ويلجأ الى السيف عند الضرورة .

وجد أبو العباس نفسه في وضع خطر ، فمروان وجيوشه في الشمال ، وابن هبيرة بجيشه القوي في واسط ، ومركز الخليفة ضعيف في الكوفة ، والعلويون في وضع يخشى منه . ولكنه جد واجتهد في دفع هذه الأخطار .

---

(١) لقب بالسفاح عبدالله بن علي عم أبي العباس . لكثرة سفكه لدماء الأمويين ، وأطلق أبو العباس على نفسه لقب (السفاح) في خطبته الافتتاحية ويقصد به (الكريم الذي يسفح المال سفحاً) .

التخلص من مروان الثاني

فوجه الجند بقيادة عمه عبدالله بن علي الى مروان الأموى ، ووقعت في ١١ من جمادي الآخرة سنة ١٣٢ هـ = ٢٥ كانون الثاني ٧٥٠ م معركة بين الجيش العباسي والجيش الأموي على نهر الزاب الكبير ، وكانت معركة حاسمة انتهت بانتصار العباسيين • وقد كان للعصبية القبلية في الجيش الأموي ، ولضعف معنويته ولنهك الحروب الكثيرة اياه أثر في هزيمته • وأضحى مروان شريداً يتنقل بين مدن الشام ثم هرب الى مصر، وهناك قتل في آخر سنة ١٣٢ هـ في قرية بوصير • وكنا ذكرنا سير قحطبة بن شبيب في جيشه نحو الكوفة ومحاربته لابن هبيرة والي العراق من قبل مروان على مقربة منها ودحره اياه حتى التجأ الى واسط •

القضاء على ابن هبيرة

ثم أرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر الى واسط ، وكان يحاصرها الحسن بن قحطبة وقد خلف أباه ، لاخضاع ابن هبيرة، وقد أظهر أبو جعفر حزماً وقابلية عسكرية ، واستطاع تفريق صفوف ابن هبيرة بالوعود ، وتمكن من التغلب عليه •

ثم تعقب العباسيون ، ولا سيما عبدالله بن علي الذي صار والي الشام بعد ذلك ، فلول الأمويين وبقاياهم ، ونكلوا بهم في كل مكان وهرب منهم من استطاع الهرب •

قتل الخلال

ثم تخلص أبو العباس من وزيره أبى سلمة الخلال ، فقد بدأ يؤامر بأبي العباس ويدس عليه ويفاوض العلويين ليبايع أحدهم • ويروى أن قتله كان على يد رجل من رجال أبى مسلم بايعاز من أبى العباس •

استرضاء العلويين

وحاول أبو العباس استرضاء العلويين ، وخصوصاً آل الحسن ، فأكرمهم وعاملهم باللطف والدهاء ، وقد نجح في تهدئتهم مدة خلافته •

بناء الهاشمية

وكان أبو العباس يخشى الكوفيين وفتنتهم ، فبعد بنائه الهاشمية على مقربة من الكوفة بنى هاشمية أخرى بجوار الأنبار وجعلها عاصمته ، ثم انه ولى أقرباءه وكبار رجال الدعوة على الولايات ليضبط المملكة .

وفي عصره أدخلت الوزارة في نظم الدولة أول مرة ، وكان أبو سلمة المذكور آنفاً أول وزير له ، ولكن الوزارة كانت في مرحلة أولية في عصره ، واستمرت تنمى وتنتظم حتى نهاية العصر الأول .

ولاية العهد

توفي أبو العباس وقد تخلص من الأمويين . ووضع أسس الدولة العباسية وثبت قواعدها وعهد الى أخيه أبى جعفر ثم لابن أخيه عيسى بن موسى ، ولعله كان يخشى الفتن والأخطار فعهد الى الاثنين ، ولكنه أعاد بذلك غلطة الأمويين .

أبو جعفر المنصور
وجهوده في تثبيت دعائم الدولة

تمهيد

أبو جعفر المنصور عبدالله بن محمد بن علي ، ثاني الخلفاء العباسيين والمؤسس الثامن للدولة العباسية ، وموطد أركانها . ولد بالحميمة سنة ١٠١ هـ ومات سنة ١٥٨ هـ في الحجاز بجوار مكة حاجاً .

ثورة عبدالله ابن علي

تولى الخلافة بعد وفاة أخيه أبي العباس سنة ١٣٦ هـ ، والدولة تهددها الأخطار من ثلاث نواح : من عمه عبدالله بن علي ، ومن أبي مسلم الخراساني ، ومن العلويين . أما عبدالله ابن علي فكان عاملاً على الشام ، وكان يدير أمر جيوش الدولة ، من الخراسانيين والشاميين وأهل الجزيرة . ولاه أبو العباس قبيل وفاته ، ليغزو بهم الروم ، فلما توفي أبو العباس شرع ينافس المنصور ويعلن طمعه في الخلافة ، فرجع بمن معه من الجيوش ، وبايع لنفسه ، فكثر اتباعه ومؤيدوه ، ولاسيما أهل الشام ، لعلهم يستعيدون نفوذ كلمتهم وسلطانهم . فأرسل اليهم المنصور جيشاً بقيادة أبي مسلم الخراساني ، وكان لا يبالي أيهما قتل ، فأيهما خذل فهو ظفر للمنصور . وكان أول عمل عمله عبدالله تخلصه من اكثر الجيش الخراساني ، الذين كانوا معه مخافة أن ينحازوا الى أبي مسلم ، ثم عسكر بعد ذلك في مدينة نصيبين ، غير أن أبا مسلم أظهر له أن وجهته دمشق وبذلك احتال عليه ، فأخرجه من مركزه الحربي الحصين وعسكر فيه . ودامت الحرب بينهما نحواً من ستة أشهر ، وكان الظفر في آخرها لأبي مسلم الخراساني ، وفر عبدالله الى البصرة مع أنه كان يعيب على مروان

فراره بعد موقعة الزاب • وكان في البصرة أخوه سليمان بن علي أميراً عليها ، فأقام عنده متخفياً ردحاً من الزمن • ولما علم المنصور بذلك أمر باشخاصه اليه، وآمنه على حياته ، غير أنه حبسه الى أن مات سنة ١٤٧ هـ • اشتهر عبدالله هذا بأنه هو الذي هزم مروان آخر خلفاء الأمويين ، كما اشتهر بقضائه على من بقي من الأمويين ، وتنكيله بهم وتقطيعه فيهم ، وقد كان لهم منه يوم عصيب بنهر أبى فطرس بالشام ، حيث تتبع من كان هناك ، من أبناء الخلفاء وغيرهم فقتلهم جميعاً ، ويروى أنه عمد الى قبور بني أمية فنبشها • واستحق بذلك كله لقب السفاح •

التخلص من أبي مسلم

فأما أبو مسلم فقد أصبح له سلطان نافذ ، وكلمة مطاعة • نقض على كثير من الزعماء ، الذين لهم فضل كبير في تأسيس الدولة العباسية ، كسليمان بن كثير وهو أحد شيوخ الدعوة العباسية • وكان المنصور حاقداً على أبى مسلم ، يرى فيه خطراً يهدد الدولة ، ولذلك كان يحرض أخاه أبا العباس على اغتياله وقتله ، وكاد يوافقه لولا خوفه من الخراسانيين • فلما تغلب على عبدالله بن علي في نصيبين رأى المنصور الفرصة سانحة للتخلص منه ، فصمم على الفتك به فكتب اليه : « اني قد وليتك مصر والشام فهما خير لك من خراسان ، فوجه الى مصر من أحببت وأقم بالشام حتى تكون بقرب أمير المؤمنين ، فان أحب لقاءك أتيته من قريب » • فلما وصل اليه الكتاب غضب وقال : هو يوليني الشام وخراسان لي !• وعقد النية على الذهاب الى خراسان ، فرأى المنصور أن يستعمل الدهاء ، فتوجه الى المدائن وكتب اليه أن يقدم عليه هناك ، فلم يمتثل الأمر ، وجرت بينهما مكاتبات لم تجد نفعاً • وأخيراً أرسل اليه يتهدده بقوله « ••• ولو

خضت البحر لخضته ولو اقتحمت النار لاقتحمتها وراءك حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك » • وقطع المنصور آخر أمل لأبى مسلم في خراسان ، اذ ولى عليها عاملاً آخر ، فلم يجد أبو مسلم بداً من النزول على ارادة أبى جعفر ، فتوجه اليه ، ولما وصل الى حلوان ، أمر المنصور الناس وبني هاشم أن يستقبلوه ، فلما بلغ المدائن دخل على المنصور وسلم عليه ، فأمره أن يستريح ليلة ثم أمر رئيس الشرطة أن يهيىء في صباح اليوم الثاني أربعة من رجال الحرس ، وأمرهم ان يكونوا خلف الرواق ، فاذا صفق خرجوا فقتلو أبا مسلم • فلما دخل أبو مسلم على الخليفة في الرومية وهي من أعمال المدائن ودارت بينهما مناقشة طويلة قال أبو جعفر : أخبرني عن نصلين ، حصلت عليهما في جملة ما غنمت ، من متاع عبدالله بن علي ؟ فقال : هذا أحدهما • فقال المنصور أرنيه • فاستله أبو مسلم وناوله اياه ، فهزه المنصور ووضعه تحت فراشه • عمل ذلك ليأمن من فتكه به • ثم قال له معاتباً : اخبرني عن تقدمك اياي في الطريق • فقال : كرهت اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس • ثم سأله عن سبب اصراره على الذهاب الى خراسان • فقال : خفت أن يكون داخلك شيء مني • ثم قال له : ألست الكاتب الي تبدأ بنفسك ؟ والكاتب الي تخطب أمينة بنت علي ؟ ما دعاك الى قتل سليمان بن كثير الخزاعي مع أثره في دعوتنا ، وهو أحد نقبائنا ، قبل أن ندخلك في شيء من هذا الأمر ••• لقد ارتقيت لا أم لك مرتقى صعباً • فاخذ أبو مسلم بيد الخليفة

يقبلها ويعتذر . وصفق المنصور فخرج اليه الرجال الذين وراء الرواق ، وقتلوا أبا مسلم[1] . وقبل هلاكه قال له : استبقني لعدوك . فقال المنصور : وأي عدو أعدى لي منك ؟ . وفرق الجمع الذين أتوا معه وأعطاهم جوائز ، وأرسل بجوائز أيضاً الى القواد الذين في جيشه . وأرضى جميع الجند ، وبين للناس سبب قتله له ، في خطبة القاها عليهم . وبموته استراح أبو جعفر من عدو خطر . فأبتدأ سلطانه الحقيقي واستقلاله التام بأمور مملكته .

ثورات فارسية

كان أبو مسلم يحسن الفارسية ويعتمد على الخراسانيين ، حتى كان له منهم جيش كبير ، وكانت جماعات من الفرس تنظر اليها نظرها الى المنقذ الذي يحررها ، وعده فريق منهم خليفة زرادشت أو نبياً أرسله زرادشت ، كما انه اكتسب احترام جماعات أخرى بانتسابه الى آل البيت ، وادعائه بأنه من نسل العباس عم النبي (ص) وذهب قوم الى عده إلهاً . فلما قتل قالوا : انه لم يمت ، وانه سيعود ويملأ الأرض عدلاً . كما ملئت جوراً ، ويعيد دولة المجوس ، ويزيل ملك العرب. وحصلت بعد مقتله سلسلة حركات دينية سياسية ، تقوم كلها على مبادىء فارسية ، ولها صلة بدعايته . وقالت جماعة بامامة ابنته فاطمة . وأراد غيرهم أن يثأروا له من المنصور ، فثار سنباذ في خراسان ، وأخبر اتباعه أن أبا مسلم لم يمت ، وأنه تلا اسم الله الأعظم ، فصار حمامة بيضاء وطار . وجاهر سنباذ بعدوانه للعرب فاعلن أنه يريد الذهاب الى الحجاز ، ليهدم الكعبة ، فاحتل نيسابور والري ، واستولى على خزائن أبى مسلم ، وتقدم نحو همدان ، فأرسل اليه المنصور جيشاً ، فغلب عليه ، وحصلت ثورات أخرى

---

(1) وذكر مؤلف المجموع اللفيف أن المنصور قتله بيده .

مشابهة لتلك ، في بلاد ما وراء النهر ، وثار الراوندية ، وكانت منهم فرقة يعدونه ربهم ، الذي يطعمهم ويسقيهم ، وأن أبا مسلم نبيه ورسوله ، وحدثت ثورات أخرى في خراسان ، أخمدها المنصور . ثم رأى أن يبني لنفسه حصناً عظيماً ، يلتجيء اليه عند حدوث ثورات عظيمة ، فانتقل الى أرض بغداد بالجانب الغربي منها وشرع في بناء مدينة السلام .

العلويون

وأما العلويون فكان أشهرهم يومئذ الامام جعفر الصادق ، ولكنه كان يوصي أصحابه بالاخلاد الى السكينة ، وعبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب وابناء محمد وابراهيم . وكان محمد ويلقب بالنفس الزكية ، طامعاً في الخلافة ، وذكر جماعة أن بني هاشم انتخبوه للخلافة ، وبايعوه في آخر ايام الأمويين .

ثورة محمد النفس الزكية

فلما تأسست الدولة العباسية امتنع عن بيعه أبي العباس والمنصور ، ثم استتر وأخذ يبث الدعاية الى نفسه . ولما عجز المنصور عن العثور عليه أمر بحبس بني الحسن وأخيهم لأمهم محمد[1] بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، في المدينة ، ثم حملهم معه الى العراق مقيدين بالاغلال ، بعد حجه سنة ١٤٤ هـ ، فحبسهم في قصر ابن هبيرة شرقي الكوفة ، ثم جد في طلب محمد ، فالتجأ محمد الى الثورة ، واتفق مع أخيه ابراهيم أن يثورا في يوم واحد ، الأول في المدينة والثاني في البصرة ، فثار محمد في أول رجب سنة ١٤٥ هـ وآزره كثير من العلويين وآل عمر بن

---

(١) أمه السيدة فاطمة بنت أبي عبدالله الحسين بن الامام علي بن أبي طالب (ر) كانت أولاً زوجة الحسن بن الحسن .

الخطاب وآل الزبير وسائر قريش وأبناء الانصار • ودارت بين الطرفين مكاتبات طويلة لم تؤد الى الصلح • فأرسل المنصور اليه ولي عهده عيسى بن موسى ، في جيش عدته ، على ارجح الروايات ، ٤ آلاف فارس والفا راجل ، وتبعه محمد بن قحطبة ، في جيش كثيف ، وكان لا يهمه أيهما قتل : ولي عهده عيسى بن موسى ، فيتخلص منه ويبايع لابنه محمد ، أو محمد النفس الزكية ليتغلب عليه ويخمد ثورته • ثم ضرب المنصور الحصار الاقتصادي على خصمه ، فقطع عن المدينة ما كان يردها ، من الاقوات والميرة ، من الشام ومصر • وتم عزل المدينة عن الخارج حين حفر النفس الزكية خندقاً حولها • ولما وصل عيسى بن موسى ، وهو من كبار رجال بني هاشم ، استطاع أن يستميل جماعة من القرشيين والعلويين من اتباع النفس الزكية ، فضعضع بذلك جيشه ، وزاده ضعفاً الخطبة التي القاها هو نفسه على جيشه وبين لهم فيها قوة خصمه واستعداده ، وقال لهم فيها : من أحب المقام فليبق معي ، ومن أحب الانصرا ف فلينصرف • فضعضعت عزائم جنده وتسللوا من جيشه ، ولم يبق معه الا شرذمة يسيرة ، ظل يقاتل بها حتى قتل في ١٤ شهر رمضان سنة ١٤٥ هـ • وظهرت الأعلام السود على المواضع العالية من المدينة • وعلى منارة المسجد النبوي ، فاستسلم المحاربون عن ذلك الى جيش بني العباس •

قيام ابراهيم

وأما اخوه ابراهيم فلم يستطع الثورة في البصرة في اليوم الذي اتفقا على الثورة فيه ، لمرض أصابه ، ولأن المنصور أفسد عليه خطته ، باضطراره محمداً الى الثورة ، قبل الوقت المعين • فثار

ابراهيم في أول شهر رمضان سنة ١٤٥ هـ ، وانضم اليه كثير من العثمانيين والزبيريين ، واستولى على البصرة وما جاورها وعلى الأهواز ، واخضع مدينة واسط • ومالأه أهل السواد وكاتبه اهل الكوفة ووعدوه المساعدة والثورة معه • ثار ابراهيم قبل مقتل اخيه بنحو من اسبوعين ، فاضطرب المنصور اضطراباً شديداً ، لانه لم يكن عنده الا قوة عسكرية قليلة تقدر بـ ٢٠٠٠ ولما انتصر عيسى بن موسى على النفس الزكية وقتله ارسل المنصور اليه ان يتوجه حالا الى البصرة ، لاخماد ثورة ابراهيم ، فسار موسى اليه فلقيه في جيش يقدر بـ ١٥ الفاً عند باخمري على مقربة من الكوفة وهناك قتل ابراهيم في ٢٤ ذي القعدة سنة ١٤٥ هـ • وعند ذلك صفا الجو للمنصور ، وشرع في اتمام بناء بغداد ، وكان قد وقفه خلال الثورة واقسم الا ينام على فراش ، ولا يبدل ثيابه السود الا بعد الظفر •

تنظيمات المنصور الادارية

الوزارة

وانصرف الى تنظيم الانبراطورية ، وتدبير أمور المملكة الادارية ، وكان يشرف عليها بنفسه ، ولذلك لم تكن للوزير في أيامه أهمية تذكر ، ومن أشهر وزرائه أبو أيوب المورياني ، والربيع ابن يونس ، وكانت اليه الحجابة أيضاً ، والحاجب يتولى الاذن في زيارة الخليفة • أما الجيش فقد نظمه وجعله صنفين من العرب والفرس ، ليوازن بين عنصري الدولة الرئيسين ، وكان اعتماده على الخراسانيين • وقد فرق الجيش الى أحزاب ، لئلا يجتمعوا عليه ، وليتمكن من ضرب بعضها ببعض • وجعل للجيش معسكرين الأول في بغداد الغربية (مدينة السلام) ، والثاني في الرصافة ، فان فسد عليه أهل جانب ضربهم بالجانب الآخر ،

الجيش

وكان المنصور يستعرض جيشه دوماً ، ومن أعظم قواده العرب عيسى بن موسى ومعن بن زائدة الشيباني •

العمال

وكان المنصور يهتم بعماله ويرقبهم ويحاسبهم بمداقة واستقصاء ، ويعني بحفظ الأمن وضمان العدل ، وتنظيم الادارة حتى أثر عنه أنه قال : ما كان أحوجني الى أن يكون على بابي أربعة نفر ، لا يكون على بابي أعف منهم • قيل له : يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال : هم أركان الملك ، ولا يصلح الملك الا بهم ، كما أن السرير لا يصلح الا بأربع قوائم ، ان نقصت واحدة تداعى • أما احدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم • والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي • والثالث صاحب خراج ، يستقصي ولا يظلم الرعية ، فاني عن ظلمها غني • والرابع صاحب بريد يكتب الي بخبر هؤلاء على الصحة • وكان يعنى باختيار عماله من العرب والموالي ، وهو أول من استخدم الموالي وقربهم ، وقد جعل كثيراً من أقربائه ولاة على الأمصار المختلفة •

القضاء

وفصل القضاء عنهم ، وصار يولي قضاة الأمصار من قبله • وعنى

البريد

بأمور البريد خاصة ، ليطلع على أحوال الولايات في انبراطوريته الواسعة ، وكان صاحب البريد يكتب اليه بأعمال الولاة والقضاة ، والأسعار وواردات الدولة ، وكان أصحاب البريد يتصلون بالخليفة رأساً ، ولا يخضعون للولاة • وكان المنصور مشهوراً بميله الى الاقتصاد في النفقات ، حتى امتلأت خزائن الدولة من الأموال ، كان يعطي العطايا الجزيلة ، اذا كان في اعطائها الحزم والنفع ، ويمنع اليسير منها ، اذا كان ذلك تضييعاً وتبذيراً ، ومع كثرة ما أنفقه في بناء بغداد وفي حروبه ، فقد ترك لابنه المهدي

تحصين الحدود

ثروة عظيمة . وكانت حدود الانبراطورية العربية محفوظة ، والغزوات في عهده بين العباسيين والبيزنطيين مستدامة ، وقد عني بتحصين حدود مملكته التي تواجه البيزنطيين ، فبنى مدينة مرعش والمصيصة ، ثم حصن ثغور الجزيرة[1] ولاسيما ملطية ، وأسكنها ٤ آلاف مقاتل ، وشحنها بالسلاح ، وبنى مدينة الرافقة على الفرات ، وبنى مدناً أخرى في شمالي غربي بحر الخزر ، ومنها المحمدية ، وملأها من المقاتلة أيضاً ، ونظم أحوال افريقية بعد اخماد ثورات الخوارج والبربر ، وحاول استرجاع الأندلس فلم يفلح .

بناء بغداد

واشتهر المنصور ببنائه بغداد ، بناها لأنه لم يكن مرتاحاً الى الهاشمية لانها قرب الكوفة ، ولا الى هاشمية الانبار ، ولأنه أراد لنفسه مكاناً يكون مقراً لملكه ، ومعسكراً لجيشه معاً ، فاختار موقع بغداد كما ذكرنا آنفاً ، بعد أن ارتاد عدة أماكن في العراق ، وشرع في انشائها سنة ١٤٥ هـ = ٧٦٢ م ، وفرغ منها سنة ١٤٩ هـ = ٧٦٦ م ، وأطلق عليها اسم « مدينة السلام » . جمع اليها الصناع والفعلة ، من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط والبصرة ، ووضع حجر الأساس منها ، حين وضع أول لبنة بيده وقال : « بسم الله والحمد لله ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » ، ثم قال : ابنوا على بركة الله . فاشتغل في المدينة زهاء ١٠٠ الف عامل نحواً من ٥ سنوات ، وجعل عليها أربعة مشرفين من العمال ، منهم الامام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي . وانما اختار المنصور موقع بغداد لأسباب عدة منها :

---

(١) وهي المدن الواقعة على الحدود الشمالية للعراق .

١ ــ أنه كان على جانبي دجلة مناطق زراعية عامرة ، فان أجدب جانب اعتمد الناس من سكانها على الجانب الآخر •

٢ ــ وقوعها في وسط العراق بين البصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله ، على مقربة من البر والبحر والجبل •

٣ ــ وقوعها على الطريق التجارية ، فتأتيها الميرة في السفن الفراتية ، والقوافل ، من مصر والشام في البادية ، والآلات من الصين في البحر ، ومن الروم والموصل في دجلة •

٤ ــ وموقعها الحربي بين أنهار ، فلا يصل اليها العدو الا على جسر أو قنطرة ، فاذا قطعت لا يستطيع العدو الوصول اليها •

٥ ــ وطيب هواء المحل ، وجودة أرضه ، وقلة البق فيه •

ويختلف العلماء في اسم بغداد فمن قائل أنه فارسي ومن قائل أنه آرامي معناه (بيت الغنم) أي « الحضيرة » وسنشرح في فصل الحضارة العباسية هندسة بغداد وكيف أحاط بها المنصور الأسوار المنيعة ، وجعلها حصناً حربياً حصيناً •

محمد المهدي

وخلف المنصور ابنه محمد المهدي ، وقد استقرت الأحوال ، وأخمدت الفتن ، فحاول ترضية مختلف الجماعات المتبرمين بحكم المنصور ، ليجمع الشمل ويوحد الأمة ، ولذلك تساهل مع العلويين وأحسن معاملتهم •

سياسة الترضية

ورجع الأموال المستصفاة ، والمصادر عليها الى أصحابها ، وأطلق المسجونين في جرائم سياسية ، وحاول استرضاء العلويين ، فأطلق المسجونين منهم وأكرمهم ، وأجري عليهم الأرزاق . وترضى أهل الحجاز بتوزيع الأموال الكثيرة فيهم ، واصطفى منهم فرقة حرس خاصة به ، ورجع اليهم جرايات الحبوب من مصر ، بعد أن قطعت في حكم المنصور ، وأكرم أهل بيته ، وعامة المهاجرين والأنصار .

وأظهر المهدي اعتماده على الفقهاء ورجال الدين ، فجمعهم حول نفسه ، ليقوي مركز الخلافة وليحقق العدل . وحاول انصاف الرعية ، فكان يجلس لسماع شكاواهم من الموظفين ، وهذا ما كان يسمى بالنظر في المظالم . ويروى أنه أنشأ ديواناً خاصاً بهذا الشأن وهو « ديوان المظالم » . واهتم المهدي بمقاومة الحركات الفارسية التي كانت تهدد الدين ، كحركة الزندقة وثورة المقنع .

الزندقة

أما حركة الزندقة ، فقد قام بها جماعة من المجوس ، حاولوا نشر آرائهم وعقائدهم ، ودسوا على الاسلام دسائس ، وهاجموه بمختلف الطرق ، يرومون بذلك زعزعة أسسه وضرب الخلافة ، ورجع المجد المجوسي ، وقد توسعت حركتهم بسبب الهدوء في عهد المهدي ، وفتح العباسيين المجال للفرس ، فشمر المهدي لهم ورتب موظفاً خاصاً لطلبهم ولمطاردتهم ، يدعى « صاحب الزندقة » . وأوصى الفقهاء بالرد عليهم . وكانت حركة الزندقة جزءاً من نزعة عامة ، عند الشعوب الأعجمية ، تعرف بالشعوبية ، وهي تعبير عن القوميات الأعجمية ، في مقاومتها للسيادة العربية ، فانها تنكر على العرب كل فضل وتتطرق الى

الحط من شأنهم ، وأثرت كثيراً في تشـــويه الأدب والتاريخ العربي ، وحاولت أن تنسب الحضارة والنظم الى أصول أعجمية ، لتجرد العرب من كل مزية • وقد أوضح الجاحظ ذلك بقوله : « فانما عامة من ارتاب بالاسلام انما جاء هذا عن طريق الشعوبية ، فاذا أبغض شيئاً أبغض أهله ، وان أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الاسلام ، اذ كانت العرب هي التي جاءت به وكانوا السلف » • وقد تصدى أدباء العرب وكتابهم ومتكلموهم للرد على الشعوبية •

ثورة المقنع

وأما ثورة المقنع فحدثت سنة ١٥٩ هـ ـ ١٦٣ هـ ، وقام بها رجل خراساني ، كان قصاراً ، وكان يقنع وجهه لئلا يراه الناس في صورته فسمي « المقنع » ، وادعى الربوبية • وكانت حركته تمثل ثورة القومية الايرانية على الحكم العربي ، ولحركته صلة وثيقة بدعاية أبي مسلم • وقد حالف الترك ولقي نجاحاً كبيراً ، في ما وراء النهر ونواح من خراسان حتى قضى عليه المهدي •

الحرب مع البيزنطيين

واهتم المهدي بتحصين حدود المملكة ، وبوضع الحاميات فيها • وقاتل البيزنطيين بهمة ، وتوغلت جيوشه في بلادهم حتى انقرة ، وقد جهز حملة كبيرة سنة ١٦٣ هـ وقادها بنفسه ، يصحبه ابنه هارون ، وهاجم بلادهم وافتتح حصوناً مهمة • وبعد سنتين قاد هارون حملة جديدة ، وفتح عـــدة حصون ، وتوغل حتى البوسفور ، واضطر الانبراطورة أغسطة (المعروفة باسم ايريني) الى طلب الصلح ودفع الجزية • وغنم المسلمون غنائم عظيمة من هذه الغزوة •

التنظيم الاداري

ولما كان عهد المهدي عهد هدوء واستقرار تطورت المؤسسات الادارية ، فرسخ نظام الوزارة ، وتوسعت سلطة الوزير • ونظم

المهدي الخراج في العراق ، بأن جعل الزارع يدفع جزءاً من الحاصل ، بدل الطريقة القديمة ، وهي دفع ضريبة نقدية على مساحة الأرض . ونظم الدواوين والعمل فيها .

العناية بالمرضى والمسجونين

وعبد طريق الحج ، وبنى فيه البرك والحياض ، وعني بأمر المرضى والمسجونين ، فأجرى عليهم الأرزاق ، وانشأ دوراً للمرضى ، ورتب الرواتب للعميان والمجذومين والضعفاء .

ولاية العهد

توفي المهدي ، بعد أن نجح في اقنـاع عيسى بن موسى ، بالنزول عن الخلافة ، ولـكنه لم يتعظ بما في تعديد ولاية العهد من خطر ، فنصب لها ابنه موسى وجعلها بعده لأخيه هارون .

أثر الترف

وفي عهد المهدي ظهر الميل الى الترف في البلاط ، وتغلغل في المجتمع ، وبان تأثير الحرم في السياسة في عهده ، فقد كان لزوجته الخيزران صوت مسموع في أمور الدولة .

الهـادي

وخلفه ابنه موسى الهادي ، وكان قوي الشخصية ، معروفاً بالجود والميل الى الادب ، واهتم باظهار أبهة الخلافة ، تعبيراً عن قوتها وسلطانها . وحاول منع تدخل الحرم ، فأجبر أمه الخيزران على ملازمة دارها ، ومنعها من التدخل في السياسة والادارة . واتبع مع العلويين سياسة الشدة ، فلما ثاروا سنة ١٦٩ هـ نكل بهم ، في وقعة (فخ) بين مكة والمدينة .

وأراد الهادي خلع أخيه هارون من العهد ليبايع لابنه ، وضيق عليه الا أن أخاه تمسك بحقه ، يعضده في ذلك يحيى بن خالد البرمكي . وكاد الهادي يبطش بعصبة هارون الا أن المنية عاجلته . ويظهر أنه اغتيل فقتـل ، والأرجح أن ذلك كان بمؤامرة الخيزران به مع مواطأة البرامكة لها دفاعاً عن هارون وغضباً لسلطانها المفقود .

الرشـــيد

فكرة عن الرشيد

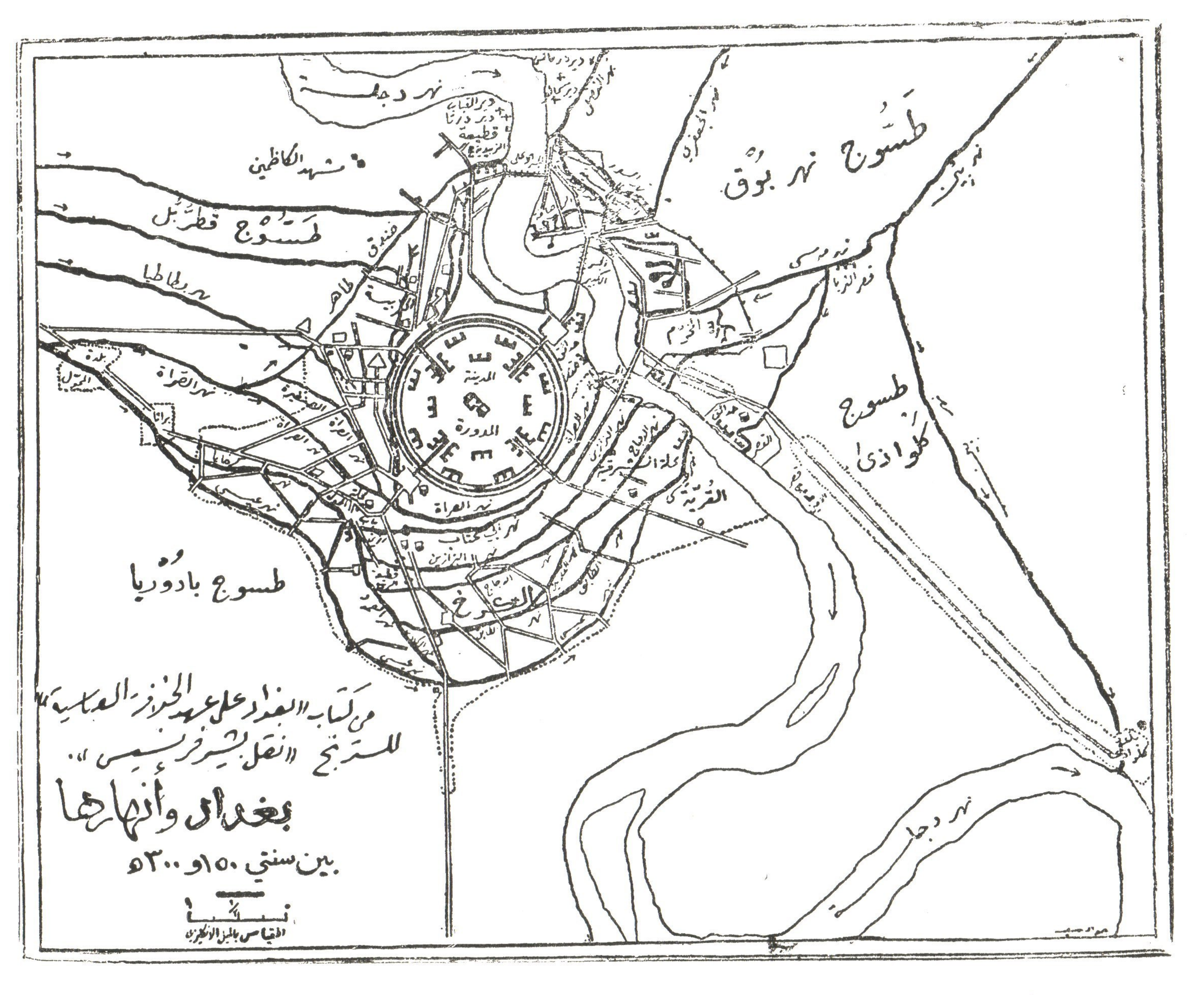
كانت بيعة الرشيد ظفراً لحزب البرامكة ، لذلك اعتمد الرشيد عليهم ، وأعطاهم سلطات واسعة ، والرشيد أوسع خلفاء بني العباس شهرة وابعدهم صيتاً ، وقد جعل كتاب الأغاني وكتاب ألف ليلة وليلة من عهده عهداً ذهبياً ، وأخذ القصاص يرمزون الى كل خليفة عظيم باسم هارون الرشيد •

ذكر عنه أنه كان شديد التدين كثير الحج ، يستمع الى نصائح الوعاظ والزهاد ، وهو بذلك يمثل الاهتمام بالدين ، بكونه خليفة المسلمين • وينسب اليه تشجيع العلماء وتقريبهم ، والاقبال على نقل الكتب ، من اليونانية والسريانية الى العربية ، وهو بذلك قد نشط حركة الترجمة وعضد النهضة الثقافية •

ثم انه يمثل ترف عصره خير تمثيل ، فيبدو بلاطه مثال الأناقة ، تعقد فيه المجالس الرائقة للغناء والشراب • وكان في كرمه خير مشجع للمغنين والشعراء ورجال الأدب والعلم • وكان يعنى بشؤون المسلمين ويتفقدهم ، ويظهر قوة وقابلية سياسية ، وان كان يقصر في ذلك عن جده المنصور •

اتفاق البرامكة والخيزران

ولقد ورث الرشيد مملكة ثابتة الأسس مستقرة ، ولكنه قصر في اعتماده الزائد على البرامكة ، ورجعت الخيزران الى التدخل في السياسة ، وحالفت البرامكة ، فنجحوا في السيطرة على الأمور الى حد كبير حتى وفاة الخيزران سنة ١٧٣ هـ واستمر نفوذ كلمتهم قوياً حتى سنة ١٨٧ هـ ، وسنعود لتوضيح ذلك • ولننظر الآن في مشكلات الدولة الداخلية •



طسوج نهر بوق
طسوج كلواذى
طسوج قطربل
طسوج بادوريا
مشهد الكاظمين
نهر دجلة
نهر بطاطيا
نهر الصراة
المدينة
الدورة
الكرخ
القرية
نهر عيسى
نهر الدجاج
نهر البزازين
من كتاب «بغداد على عهد الخلافة العباسية»
للمستر لسترنج «نقل بشير فرنسيس».
بغداد وأنهارها
بين سنتي ١٥٠ و ٣٠٠ هـ
المقياس بالميل الانكليزي

الفتن الداخلية

حدثت في عهد الرشيد ثورات ، فقسم منها كان نتيجة لظلم عماله ، والقسم الثاني قام به العلويون والخوارج . ومع أن الرشيد كان يهتم بشؤون رعيته لم يشرف على العمال بصورة كافية ولم يحاسبهم كما ينبغي لمثله ، وذلك مما جعل فريقاً منهم يسيئون معاملة الرعية ، ومن هؤلاء علي بن عيسى بن ماهان ، فقد ولي خراسان مدة عشر سنوات (١٨١ هـ – ١٩١ هـ) فظلم الناس وأخذ أموالهم ، ولم تفد شكواهم اياه عند الرشيد فثاروا مع رافع بن الليث سنة ١٩١ هـ ، وقد ظهرت الروح القومية الفارسية في هذه الثورة ، وكنا أشرنا اليها في خلافة أبيه المهدي . ولم تهدأ الثورة برغم عزل الوالي المذكور ، وكانت خطرة بحيث أن الرشيد خرج بنفسه لقمعها فتوفي قبل أن يحقق غايته . وثار أهل اليمن سنة ١٧٩ هـ لظلم الوالي لهم واستمرت الثورة تسع سنين .

ثورة رافع ابن الليث

الثورة في شمال افريقية

واشتعلت الثورة في شمالي افريقية (تونس) ، وكان الخوارج يقودونها ، ولم يستطع قواد الرشيد وولاته تهدئة الاضطراب ولا ضرب الفتنة ، ثم تمكن صاحب الشرطة هناك ، وهو ابراهيم بن الأغلب التميمي ، من ضبط الأمور ، والتزم أن يدفع مائة الف دينار كل سنة الى بيت المال بشرط أن يجعل امارة المغرب وراثية لأبنائه ، فوافق على ذلك الرشيد سنة ١٨٤ هـ = ٨٠٠ م وتأسست امارة الأغالبة وأصبحت مستقلة في أمورها الداخلية .

الأدارسة

ونجح ادريس بن عبدالله العلوي ، وقد كان هرب من وقعة فخ ، في تأسيس مملكة العلويين الأدارسة المستقلين في المغرب

الأقصى (مراكش) سنة ١٧٢ هـ = ٧٨٨ م وأعلن نفسه خليفة ، ولم تفد محاولات الرشيد للقضاء على مملكة الأدارسة هذه .

ثورة يحيى ابن عبدالله

وحدثت مشكلات أخرى للرشيد مع العلويين ، فقد بدأ الرشيد حكمه باتباع سياسة لينة معهم ، قصد بها ترضيتهم ، بعد شدة الهادي ، ويظهر أن العباسيين اتبعوا مع العلويين سياسة الشدة حيناً واللين حيناً آخر ، لأنهم كانوا يشعرون برابطة القربى من جهة ، ولكنهم يريدون حفظ الخلافة على أنفسهم من جهة أخرى ، فهم يلينون حين لا يرون خطراً عليها ويشتدون اذا لاحظوا أن العلويين يهددونهم . ففي سنة ١٧٦ هـ ثار يحيى ابن عبدالله ، أخو النفس الزكية ، ببلاد الديلم (في الجنوب الشرقي من بحر قزوين) ، وكثر أتباعه فاضطرب الرشيد ، وسير اليه الفضل بن يحيي ، وقد نجح الفضل ببذل المال في اضعاف حركة يحيي ، وتمكن من اقناعه بترك السلاح ، بعد أن حصل له أماناً من الرشيد ، ولكن سوء تصرف البرامكة أدى الى نكبة يحيي ، ويظهر أن البرامكة كانوا يبثون العداوة بين العلويين والعباسيين ، وقد قسوا على العلويين حتى لقد اهدوا الى الرشيد في يوم نوروز[1] رأس أحدهم في طبق . وسعوا سعياً منكراً في قتل موسى بن جعفر بالسم ، ولعل الرشيد استحل قتل جعفر البرمكي لقتله للعلويين .

ثورة الخوارج في الجزيرة

وفي سنة ١٧٨ هـ ثار الخوارج بقيادة الوليد بن طريف الشاري في الجزيرة (شمالي العراق) فاستولوا عليها ، ثم بسطوا سلطانهم على أرمينية وأذربيجان ، وصاروا يهددون شمالي

(١) عيد من أعياد الفرس المشهورة ، ومعناه « اليوم الجديد » .

العراق • وبعد زمن استطاع الرشيد اخماد حركة الوليد • ومما يذكر هنا أنه حين قتل الوليد تولت أخته الفارعة القيادة محله ، وكانت أديبة شاعرة ، وذلك مما يدل على ما كان للمرأة العربية من قابلية ومزايا • ولننظر الآن في أمر البرامكة •

البرامكة قبل خلافة الرشيد

فالبرامكة أصلهم من بلخ ، وهم من أشراف الفرس ، انضم جدهم خالد الى الدعوة العباسية ، وكان من كبار رجالها ، واسندت اليه مناصب مهمة ، خصوصاً ولاية الأمور المالية ، في خلافة أبي العباس حتى ولي الوزارة ، وأصبح من مستشاري المنصور • وولي عدة ولايات في خلافة المنصور والمهدي • ولما أراد المنصور الاستفادة من آجر ايوان كسرى في بناء بغداد نصحه خالد بأن لا يهدم الايوان ، فقال له المنصور : (أبيت الا الميل الى آبائك العجم) • وذلك يدل بوضوح على ظهور نزعة البرامكة الفارسية • وعين المهدي يحي بن خالد كاتباً لابنه الأمير هارون ، ووقف يحي بجنب الرشيد في محنته أيام خلافة الهادي – كما ذكرنا قبلا – • فلما ولي الرشيد أكرمه وقربه ، وجعل له الاشراف على الدواوين كافة • وقرب الرشيد أولاد يحي ولاسيما الفضل وجعفر • وكان الفضل جدياً بطبيعته قديراً في الادارة ، اعتمد عليه والده كثيراً في ادارة المملكة معه • أما جعفر فكان أديباً ظريفاً ، وكان الرشيد يوده كثيراً ، وجعله نديمه ، فكان له تأثير قوي في الرشيد •

البرامكة في عهد الرشيد

نكبة البرامكة

ولقد نجح يحي بمعونة ولديه ، في السيطرة على شؤون الدولة نجاحاً كبيراً ، وأدخل البرامكة أعوانهم وأنصارهم في الوظائف ،وبذروا أموال الدولة ليودهم الناس وليكونوا لهم حزباً

يؤيدهم ، حتى صاروا مضرب المثل في الكرم ، كل ذلك من مال الدولة أي أموال المسلمين . وسعوا في ابعاد ذوي الشخصيات العظيمة ، كالفضل بن الربيع عدوهم الأكبر ، وعلي بن عيسى بن ماهان . وحاولوا تنحية العرب المقربين عن الوظائف المهمة ، فحدا ذلك العرب وخصوم البرامكة الشخصيين على التحزب والتأليب عليهم والسعي في القضاء عليهم بكل طريقة . ثم أن الرشيد خاف على سلطانه منهم ، فلقد سيطروا على أموال الدولة وحجزوها عنه واحتجنوها . وظهرت منهم أهواء سياسية تخالف مصلحة الدولة ، فقد اتهم بعضهم بمحاولة الخروج في خراسان ، واتهموا بالزندقة وبالتعصب للفرس ، فأخذ يشذب نفوذ كلمتهم وتدرج في ذلك عدة سنين ، ثم نكبهم بعد ذلك سنة ١٨٧ هـ ، بعد أن أضعفوا الدولة وخلخلوا بنيانها . وقد اخترع الفرس قصة العباسة نكاية في العرب وانتقاماً من الرشيد ، مع أن العباسة كانت زوجاً لمحمد بن صالح العباسي والي البصرة ، ولما توفي عنها تزوجها ابراهيم بن صالح بن علي العباسي .

الحروب مع البيزنطيين

وعني الرشيد بقتال البيزنطيين ، وحروبه معهم تظهر قوة الاسلام وجهاد خليفته لاعلاء شأنه . وقد اضفت هذه الحروب بهاءاً خاصاً على حكمه . فاهتم بتحصين حدوده ، وقاد كثيراً من الحملات بنفسه ، وأرغم أيريني بعد أن نكثت عهدها في أواخر سني والده على دفع الجزية سنة ١٨٣ هـ . ثم ولي نقفور أمر البيزنطيين سنة ١٨٧ هـ فقطع الجزية وكتب رسالة يتحدى بها الرشيد ، فأجابه على ظهرها برسالته المشهورة « بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم ، قد

قرأت كتابك والجواب ما تراه دون ما تسمعه » • وتقدم في جيشه حتى دحر البيزنطيين ، وفرض عليهم الجزية • ولما نقض نقفور الصلح ثانية هاجمه الرشيد سنة ١٩٠ هـ على رأس جيش ضخم ، وافتتح عدة حصون مهمة ، ومزق جيش البيزنطيين وفرض الجزية عليهم ، مضافاً الى جزية شخصية على الانبراطور وابنه • وكانت هذه الحادثة قمة غلبات العباسيين على البيزنطيين •

أسطورة

غلا غرابة اذن في أن ذاع صيت الرشيد الى الغرب ، حتى اخترع مؤرخ شارلمان انبراطور الفرنجة وراهب افرنجي قصة حصول مراسلة ومهاداة ، وعقد معاهدة بين الرشيد وشارلمان ، وكان الغرض منها اعلاء اسم شارلمان وادعاء أن الرشيد منحه السيادة على الأراضي المقدسة ، وهو ادعاء باطل لا قيمة له مطلقاً ، الا أنه يدل على شهرة الخليفة ، وعلى عظمة بغداد وحضارتها بالقياس الى مدن الغرب المتأخرة الجاهلة الضيقة يومئذ •

ولاية العهد

وحاول الرشيد تنظيم العهد ، فأخطأ خطأً كبيراً ، اذ عهد سنة ١٧٥ هـ الى الأمين وعمره خمس سنوات ، وذلك بتأثير أمه زبيدة وأخواله الهاشميين ، واصبح الأمين رمز آمال الجماعة العربية • ثم عهد سنة ١٨٣ هـ الى المأمون ، وأمه جارية باذغيسية ، وكان للبرامكة وجماعتهم من الفرس يد في بيعته • وأخيراً عهد لابن ثالث له هو القاسم الملقب بالمؤتمن • وأراد تأكيد عهده ، فحج سنة ١٨٧ هـ وعلق نسخة من عهده في الكعبة • ولم يكتف بالعهد بل قسم ادارة الانبراطورية بين أبنائه الثلاثة • وقد أدى هذا الى بذر الشقاق والفتنة بين أبنائه كما سترى •

العلماء في عصر الرشيد

واجتمع في عصر الرشيد زمرة كريمة من العلماء والأدباء الأعلام منهم سيبويه والكسائي في علم النحو، وأبو يوسف القاضي في الفقه، وأبو عبيدة في الاخبار، والأصمعي في اللغة والادب، وأبو عبيد في الحديث، وأبو هذيل العلاف وابراهيم النظام في علم الكلام، واسحق بن ابراهيم الموصلي في الغناء، وسفيان الثوري في الزهد، وأبو نواس وأبو العتاهية في الشعر.

وفاته

توفي الرشيد سنة ١٩٣ هـ وهو في حملته على رافع بن الليث، ودفن بطوس، وأصبح عهده عنوان مجد بغداد، ورمز حضارة العباسيين وعصرهم الذهبي.

الأمين والمأمون

الأحوال المحيطة بالأمين

عهد الرشيد الى أبنائه الثلاثة الأمين والمأمون والمؤتمن، ويهمنا منهم في هذا البحث الأمين والمأمون. وقد أعطى الرشيد المأمون سلطة واسعة في ولايته الشرقية خراسان، وجعله شبه مستقل عن أخيه، وبذلك أوجد مشكلة في الدولة، لأن الأمين كان يريد أن تكون سيادته كاملة على أجزاء المملكة على حين كان المأمون يحرص على الاستقلال، فلم يكن بد من الاصدام بينهما.

واستغلت الأحزاب السياسية هذا الوضع، فقد كان في الدولة جماعتان تتنازعان على السيادة: الجماعة العربية التي سخطت لتسلط الفرس، والجماعة الفارسية التي كانت تحاول رجع مجد فارس وضرب السيادة العربية، فالتفت الجماعة الأولى، وعلى رأسها الفضل بن الربيع، حول الأمين، والتفت الجماعة الثانية وعلى رأسها الفضل بن سهل، حول المأمون وهذا عقد المشكلة، وصبغ الخلاف بين الأخوين صبغة عامة، وجعله رمز

خلاف بين عنصري الدولة المتنازعين . يضاف الى ذلك ما ذكرنا اطماع رجال البطانة الشخصية ، ورغبة كل منهم في تقوية كيان مرشحه ليكون له نفوذ الكلمة .

كل هذه العوامل جعلت الخلاف محتوماً بين الأخوين .

سياسة الأمين

لقد كان الأمين يرغب أول الأمر ، في تشذيب سلطان أخيه ، وجعله تحت حكمه ، وكان يرغب أيضاً في أن يعهد الى ابنه ، ولعله لم يرد خلع المأمون . وقد حاول الأمين الحصول على ذلك بالتدريج ، فجرت مفاوضات ومراسلات بين الأخوين ، استمرت حتى سنة ١٩٥ هـ . وفيها حاول الأمين أن يقنع أخاه ، بضرورة قبول اشرافه عليه ، ولكن المأمون أبى وتمسك ببنود العهد ، يحثه على ذلك الفضل بن سهل مشاوره ، ومعتمده في هذه المحنة .

النزاع بين الأخوين

فلما خابت المفاوضات بايع الأمين لابنه من بعده ، برغم كونه طفلاً ، وخلع المأمون ، ولجأ الطرفان الى السلاح . فاستمرت الحروب بينهما حتى سنة ١٩٨ هـ ، وأنتهت بظفر المأمون وبمقتل الأمين بأيدي الفرس ، مع أن جيش المأمون كان أقل عدداً وعدة من جيش أخيه . ويعود ظفر المأمون الى براعة قواده ، وخاصة طاهر بن الحسين ، الذي ظهرت مواهبه العسكرية ، ثم طاعة جنده ونظامهم ، بخلاف جند الأمين الذين لم يكونوا يعرفون الطاعة ولا يفكرون الا في المال . ثم ان جند المأمون كانوا متحمسين يدافعون عن أمانيهم الفارسية ، على حين كان جند الأمين لا تحدوهم فكرة ولا مبدأ . وأخيراً نذكر سبباً مهماً

هو اعجاب جند الأمين بكثرته واعتداده بنفسه ، وذلك مما جعل قواده يهملون احكام الخطط الحربية .

شخصية الأمين

يتهم المؤرخون الخليفة الأمين ، بالضعف وبقلة الثقافة والانغماس في الملاذ ، واهمال شؤون الدولة ، ولكن المستقصي للكتب التاريخية يرى أنه درس على خيرة علماء عصره ، كالأصمعي والكسائي ، وأنه كان شديد الاهتمام بشؤون الدولة ، ذكياً رحيماً يشجع على الأدب . ولكن بطانته كانت تستهويها الأنانية والطمع ، ولم تؤيده كما فعل اصحاب المأمون .

الاتحاد الفارسي في بلاط المأمون

كان مقر المأمون في اثناء النزاع مع أخيه في مرو عاصمة خراسان ، وسط أنصاره الفرس . فلما أفلح على أخيه لم يرجع الى بغداد ، واعتمد على وزيره الفضل بن سهل ، فصار له الأمر الأعلى في الدولة . وكان الفضل يمقت العرب ويحلم برجع مجد ايران ويسعي في تقوية نفوذ كلمة الفرس ومركزهم ، فنشأ عن هذه الأوضاع أن رأى العرب في مقتل الأمين خيبة لآمالهم ، وخافوا أن تنتقل السيادة الى الفرس . وتمرد أهل بغداد على المأمون أيضاً ، لهجره مدينتهم واستبداله بها مرو في خراسان ، وشعروا أن السلطان خرج من أيديهم وسخطوا تسلط الفرس .

الثورات العلوية على العباسيين

ومن ناحية أخرى استغل العلويون الحال الفوضى القائمة ، والانقسام الحاصل في المملكة ، على أثر النزاع بين الأخوين ، ودعوا الى نشر العدل ، والى تولية أفضل آل البيت ، وقاموا بثورات ، في مختلف أنحاء الجزيرة العربية ، وكانت الثورة العلوية في العراق أخطر هذه الثورات . وقد انضمت الى حركتهم جماعات

مختلفة ، منهم من انضم لاخلاصه الحب لآل علي ، ومنهم من انضم لاستنكاره السياسة الفارسية ، ومنهم من انضم لضجره من الحال الفوضى • واستمرت الثورات حتى سنة ٢٠٠ هـ • ثم أخمدت ، بعد أن أظهرت مدى تبرم الناس بالأوضاع القائمة يومئـــذ •

العهد للرضا

ثم حصلت حادثة فريدة في تاريخ العباسيين ، هي عهد المأمون سنة ٢٠١ هـ للامام « علي الرضا » بالخلافة من بعده ، واتخاذه الخضرة شعاراً للدولة ، بدل السواد شعار العباسيين ، وقد حسن له الفضل بن سهل ذلك • وهنا نذكر أن الخضرة كانت يومئذ شعار الفرس ولو ادعوا أن المأمون اختار الخضرة لكونها لون لباس أهل الجنة ، كما جاء في القرآن ، وكان البياض شـــعار العلويين •

ويظهر أن المأمون أراد بذلك ان يسترضي العلويين ويجتذب الخراسانيين ، فقد صاروا يميلون الى آل علي ، ولـكن الفضل بن سهل كان يسعى في اضعاف العباسيين ، فقصد بانجاح الفـكرة خلق الفوضى في صفوفهم ، لأنهم لن يقبلوا انتقال الخلافة الى غيرهم ، وهذا في نظره خطوة واسعة في تدمير سلطان العباسيين ورجع السيادة الفارسية •

ثورة البغداديين وتعديل المأمون لسياسته

وكانت النتيجة الأولى لهذه البيعة أن ثار البغداديون ، الذين خافوا أن يزول سلطان العباسيين ، وكانوا ساخطين جداً لجعل الحسن بن سهل والياً عليهم • فخلعوا المأمون وبايعوا لعمه ابراهيم ابن المهدي • ولم يطلع المأمون على هذا الحادث حتى سنة ٢٠٢ هـ • والسبب في ذلك هو أن الفضل بن سهل كان يخفي الأخبار عن المأمون ، ليتسلط هو على الأمور ، فيسير قـــدماً في سياسته

الفارسية . فلا غرابة ان اختلف مع علي الرضا ولي العهد ، الذي كان يريد مصلحة الدولة . ولم يجرؤ أحد على توضيح حقيقة الوضع ، وانتشار الحال الفوضى والثورات ، سوى الامام علي الرضا . وعند ذلك قرر المأمون الرجوع الى بغداد ، خوفاً من حرب أهلية ثانية ، كما أنه أراد أن يتخلص من النطاق الفارسي المضروب حوله . ومعنى ذلك أيضاً أن يحول العهد الى بني العباس . ولذلك تخلص من الفضل بن سهل أولاً ، ثم من علي الرضا ثانياً ، وهو في طريق رجوعه . وبعد وصوله الى بغداد بقليل وذلك سنة ٢٠٤ هـ ترك الخضرة ورجع الى السواد شعار العباسيين .

تقريب آل طاهر

ولكن المأمون لم يستفد من تجربته مع بني سهل ، ولم يقدر تضارب المصلحة بين العباسيين والفرس ، بل قرب عائلة فارسية أخرى وهم آل طاهر ، واعتمد عليهم في الادارة ، فقد ولى طاهر بن الحسين على خراسان سنة ٢٠٥ هـ ، وولى ابنه عبدالله على مصر والمغرب سنة ٢٠٦ هـ . وسرعان ما أدى طموح طاهر وميله الفارسي الى انفصاله عن الخلافة سنة ٢٠٧ هـ . ولكنه مات فجأة ، ولعل ذلك كان بتدبير من المأمون ، الا أن سلطان آل طاهر القوي جعل المأمون يولي ابنه طلحة مكانه ، فتأسست امارة فارسية مستقلة هي الامارة الطاهرية في خراسان .

وهدأ عبدالله بن طاهر الثورات التي كانت منتشرة في الشام ومصر ، وأعاد السكينة الى البلاد ، ولما توفي أخوه طلحة سنة ٢١٣ هـ عينه المأمون لولاية خراسان مكانه .

ثورات في مصر

وحصلت في مصر ثورات عنيفة اقتصرت على العرب أول الامر ، ثم شارك فيها الأقباط أيضاً ، وكان سببها ظلم عمال المأمون ، وارهاقهم للناس بالضرائب . ولكنها أخمدت بعد أن

أظهرت للخليفة خطر السياسة المالية المعوجة وجعلته يفكر في الاصلاح .

الحرب مع البيزنطيين

ولما هدأت الأحوال هدوءاً نسبياً اهتم المأمون بقتال البيزنطيين ، الذين استغلوا الخلاف بين الأخوين للتعدى على أرض المسلمين ، فقاد الحملات بنفسه الى أرضهم ، وكسر شوكتهم . وحصن الحدود الاسلامية ، وفكر في اعداد خطة غرضها فتح بلادهم بالتدريج ، والقضاء على دولتهم ، فعاجلته المنية قبل البدء بمشروعه .

تنشيط الحركة العلمية

وتستند شهرة المأمون الى تنشيطه للحركة العلمية في عصره ، وهي حركة ترجمة للكتب العلمية والفلسفية من اليونانية بالدرجة الاولى . وقد بدأت هذه الحركة في زمن المنصور وحض عليها الرشيد . فلما جاء المأمون أظهر ميلاً خاصاً الى تنظيمها وتوسيعها ، فأنشأ بيت الحكمة للترجمة ووضع فيه خزانة كتب ومرصداً فلكياً ، وجمع فيه مهرة المترجمين لنقل الكتب من اليونانية ، ولاسيما كتب الفلسفة والمنطق .

وكان المأمون واسع الثقافة ، حر الفكر ، فشجع العلماء على المناظرة والمناقشة ، وحثهم على التأليف ، حتى ازدهرت الحركة العلمية في عصره . ومما يذكر هنا أن المأمون اعتنق مذهب المعتزلة ، وهم فرقة قالت بحرية الارادة واعتمدت على العقل في اثبات أصول الدين .

نهاية العصر السياسي الأول

عهد المأمون بالخلافة الى أخيه أبى اسحق المعتصم . ويعد حكمه خاتمة العصر العباسي الأول ، لعدة أسباب منها أن هذا العصر هو عصر اشتراك العرب والفرس في الحكم ، فلما جاء المعتصم قرب الترك وأبعد الاثنين . ثم أن العاصمة العباسية

انتقلت بعد المأمون الى سامراء فبقيت مقراً للعباسيين مدة تزيد على نصف قرن ، كما أن الجيش أصبح بعد المعتصم هو المسيطر على شؤون الدولة ، بعد أن كان الموظفون الاداريون ، وعلى رأسهم الوزير ، هم الذين يسيرون أمور الدولة من قبل .

وهكذا يتضح أن حكم المأمون هو خاتمة فترة خاصة في تاريخ العباسيين .

الفصل الثاني

العصر العباسي الثاني

دور السيطرة التركية

تمهيد

كان العصر العباسي الاول ـ الذي يبدأ من تأسيس الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ وينتهي بوفاة المأمون سنة ٢١٨ هـ ـ يتميز بتعاظم نفوذ كلمة الفرس بوجه خاص ، كما شرحناه في الفصل السابق • وكان الخلفاء العباسيون في هذا الدور أقوياء ، ولذلك بقي للعرب سلطان عظيم في الدولة ، ولاسيما في زمن المنصور والرشيد والأمين • فلما ولي المعتصم قرب عنصراً آخرهو العنصر التركي • وتمكن أن يسيطر على شؤون الدولة الى مدى بعيد •

الخلفاء والاتراك

ويبدأ هذا الدور سنة ٢١٨ هـ وينتهي بمجيء البويهيين سنة ٣٣٤ هـ • وخلفاؤه على قسمين فالمعتصم والواثق والمتوكل كانوا أقوياء وأكثر من جاء بعدهم كانوا ضعفاء ، عدا ولي العهد الموفق والمعتضد والمكتفي ، فلم يكن لهم من الأمر شيء • ولم يبق للعرب مدة حكمهم نفوذ كلمة ولا سلطان في الدولة ، حكم بعد المتوكل أربعة خلفاء مدة ٩ سنوات (٢٤٧ هـ ـ ٢٥٦ هـ) ، كانت الدولة خلالها في حيرة واضطراب شديد ، واستبد الاتراك بالسلطة ، وصار بأيديهم نصب الخلفاء ، فلم يكونوا ينصبون الا الضعفاء منهم ، الذين يمكن استغلالهم في مصالحهم • فأما الاقوياء

منهم فكانوا يقاومونهم ، ويثورون عليهم ، وأدى هذا الأمر الى اهمال شؤون التروية ، وزيادة العسف في الجباية • وحاول جماعة من الخلفاء استعادة السلطان العربي وأبهة الخلافة ، فكان المهتدي مثلاً يقاوم الأتراك بنفسه ، ويعلق القرآن في عنقه ، ويستفز العامة ويبيحهم دماء الأتراك وأموالهم • ولم ينجح الخلفاء الا في المدة المحصورة بين ٢٥٦ هـ و٢٩٥ هـ اذ انتعشت الخلافة ، وتقوت بسبب الجهود الكبيرة التي بذلها الموفق أخو الخليفة المعتمد ، ثم ابنه الخليفة المعتضد ، وحفيده المكتفي ، كاخمادهم ثورات الزنج والقرامطة ، فأصبح للخلافة سلطان في العراق والجزيرة وغربي ايران والشام ومصر ، وكانت نتيجة ذلك أن أصلحت نظم التروية وشؤونها ، ووسعت والزراعة ، ونظمت الجباية وقل العسف فيها •

وتظهر قوة الخلافة في تقلص نفوذ كلمة الأتراك ، واشتداد النزاع بينهم بحيث لم يتمكنوا أن يمنعوا الخليفة المعتمد من ترك سامراء ، والرجوع الى بغداد • أما سبب ضعف الأتراك في هذه الفترة فيرجع الى انقسامهم على أنفسهم ، وتحريض فرق الجيش بعضهم على بعض • وافلاس بيت المال بسبب أطماعهم • غير أن الخلافة بدأت في الانحطاط بعد المكتفي ، وانقسمت الأحزاب الى قسمين أحدهما موال للمقتدر والآخر يؤيد ابن المعتز ، وتدخل الجيش مرة أخرى في السياسة ، واستولى مؤنس المظفر التركي على أمور الدولة ، وتمكن أن يخلع الخليفة المقتدر سنة ٣١٧ هـ • ثم يرجعه مرة أخرى ، فتدخل الجيش أيضاً وقتل المقتدر سنة ٣٢٠ هـ ، وبقتله ازداد نفوذ كلمة الجيش ولم يتمكن أحد صد تياره ولا وقفه عند حده ، فاضطربت الأمور في الداخل •

انفصال الولايات

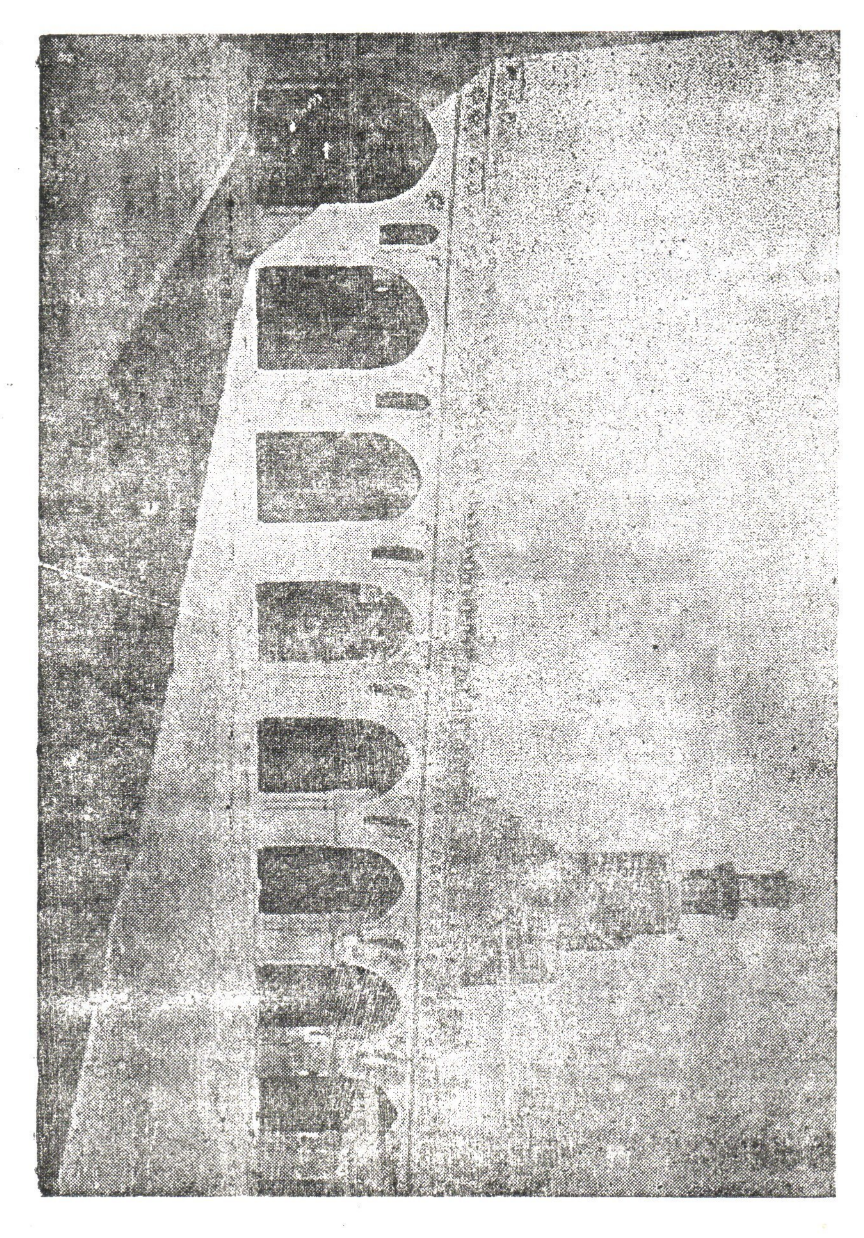
وفي دور السيطرة التركية ، تم انفصال ولايات مهمة من الانبراطورية ، وتأسيس دول مختلفة كالدولة الطولونية في مصر ، والصفارية في فارس من ايران ، والدولة السامانية في بلاد ما وراء النهر . وكانت هذه الدول تعترف غالباً بالخليفة العباسي وتذكر اسمه على المنابر . وقد ظهر الزيدية في طبرستان وجرجان ولكنهم لم يعترفوا بالخليفة العباسي ، وظهرت الدولة اليعفرية باليمن . ولم يبق بيد الخليفة سنة ٣٢٤ هـ الا البلاد الواقعة بين بغداد وواسط .

أمير الامراء

وفي هذا الدور أيضاً ظهر صاحب الزنج في البصرة والأهواز وقوي أمره وعاث وأفسد . وظهر بعده القرامطة واشتدت شوكتهم ، وأصبحوا خطراً كبيراً على الدولة . وتجرأ الروم على مهاجمة الثغور الاسلامية . وفي آخر هذا الدور حدث منصب « أمير الأمراء » لابن رائق رئيس الأتراك ، فاستولى على الأمر ، وانتقلت السلطة اليه ، في الادارة والجيش والامور المالية ، وضرب اسمه على النقود . وذكر في الخطبة بعد الخليفة . ثم اشتد النزاع بين زعماء الأتراك الطامعين في امارة الأمراء ، فمهد الطريق لمجيء البويهيين . واليك شيئاً عن حال الأتراك والخلفاء وأهم الأحداث في هذا العصر .

الأتراك

١ ــ الأتراك : عنصر من أواسط آسية ، كان يجلب من بلاد ما وراء النهر ، كفرغانة وأشروسنة والصغد والشاش ، ولم يكن الأتراك أمة متحضرة ، ولذلك سماهم الجاحظ « بدو



جامع ابن طولون مؤسس الدولة الطولونية بمصر

العجم » ، وكانوا شجعاناً يميلون الى الحرب والقتال ولا يميلون الى الحرف ، كالزراعة والصناعة ، ولا الى الثقافة ، وكانت تغلب عليهم الغلظة والفظاظة ، وقد جلبوا الى بغداد رقيقاً يباعون ويشترون • وأولع المعتصم بشرائهم وجمعهم قبل أن يتولى الخلافة ، وكان يوجه في كل سنة أناساً يشترون له منهم ، من جهات سمرقند ، حتى اجتمع في أيام المأمون منهم نحو من أربعة آلاف غلام ، فلما ولي المعتصم الخلافة البسهم أنواع الديباج والمناطق الذهب ، وأفردهم بالزي عن سائر جنوده • وكان عبدالله بن طاهر يرسل اليه في كل سنة ألفي غلام تركي ، يجعلهم جزءاً من خراج خراسان • وقيل أنه اجتمع لديه سبعون ألف انسان منهم •

سبب استخدام الأتراك

ولعل استخدام المعتصم للأتراك بهذه الكثرة راجع لكونهم أخواله ، ولأنهم شجعان ، أراد أن يتخلص بهم من نفوذ كلمة الفرس ، الذي بلغ درجة كبيرة في خلافة المأمون ، ولاسيما بعد نكبة أخيه الأمين • فلم يأمن المعتصم الفرس الحنقين على العباسيين ، من جراء فتكهم بالبرامكة ، وببني سهل ، وببني طاهر بن الحسين ، كما لم يطمئن المعتصم الى العرب ، وزاد في عدم ثقته بهم ما رآه من التفافهم حول العباس بن المأمون ، الذي كان ينزع نزعة عربية • وسبب آخر هو أن المعتصم حين ولي الخلافة كانت ثورة بابك تهدد الدولة ، وخطر البيزنطيين قد استفحل ، ولذلك أراد أن يعتمد على عنصر حربي آخر ، يستطيع أن يجعله ركناً تقوم عليه دولته ، فاستخدم الأتراك ، وأحلهم محل الفرق الفارسية والعربية ، وصار لهم شأن في السياسة في خلافة الواثق ، وسيطروا على الأمور الادارية والسياسية في

خلافة المتوكل ، واحدث ذلك مشكلات كبيرة للدولة ، كان من جرائها انحلال سلطان الخلافة ، وتقلص الانبراطورية ، والتجرؤ على اغتيال الخلفاء وقتلهم وعزلهم وتعذيبهم وسمل عيونهم لـكيلا تصح خلافتهم ، ودامت غطرستهم حتى مجيء البويهيين •

المعتصم

٢ ـ المعتصم : كان جندياً شجاعاً ، قيل أنه لم يكن في خلفاء بني العباس قبله أشجع منه ، ولا أتم تيقظاً في الحروب ، ولا أشد قوة • وكان قليل الثقافة ومع ذلك فقد ساند المعتزلة وقاوم مخالفيهم •

ومن أهم اعماله :ـ

بناء سامراء

أ ـ بناؤه مدينة سامراء واتخاذها معسكراً له ، وعاصمة بدلاً من بغداد ، وسنذكر شيئاً عنها ، في بحث الحضارة العباسية• بناها على جانبي دجلة معسكراً لجنده من الأتراك ، على بعد ١٢٠ كيلو متراً ، شمالي بغداد ، وذلك لأن بغداد ضاقت بهم ، وأساؤوا الى البغداديين وآذوهم واصطدموا معهم ، فخشي المعتصم الفتنة ، كما أنه أراد أن يبعدهم عن ترف بغداد • وقد افردهم عن غيرهم، ولم يسكن في جوارهم الا الفراغنة ، ولم يحتج الى أسوار قوية كالتي بناها المنصور ببغداد وذلك لقوة الدولة يومئذ •

اخماد ثورة بابك الخرمي

ب ـ اخماد ثورة بابك الخرمي : والبابكية جماعة من الفرس ، ويطلق عليهم (المحمرة) ، ثاروا على الدولة للقضاء على السلطان العربي والدين الاسـلامي لأنه هو الذي قضى على دولتهم ، ونقل ملـكيتهم الى العرب ، واشتدت حركتهم في خلافة المأمون • وعندما تولى المعتصم كان أمرهم قد عظم جداً ، في

منطقة أذربيجان وأرمينية والجبال ، حتى غدا جيش بابك بين ٢٠٠ ألف و٣٠٠ ألف جندي ، وبلغ من قوته أنه صد عدة جيوش أرسلها اليه المأمون ، واستطاع أن يدمر حصوناً عباسية كثيرة ، غير أن المعتصم بعد أن ولي الخلافة قرر القضاء عليه والتخلص منه ، فأرسل اليه أعظم قواده الأفشين سنة ٢٢٠ هـ ، فحاصره مدة طويلة حتى غلب عليه سنة ٢٢٢ هـ ، ودخل المسلمون مدينة بابك المعروفة بالبذ وأسروه وجيء به الى سامراء فقتل فيها وصلب •

قمع ثورة الزط

ج ـ اخماده ثورة الزط : وأصلهم من السند ، واشتهروا بتربية الجاموس في جنوبي العراق • وكانوا يعيشون عيشة منحطة ، اضطرتهم الى الثورة ، فعاثوا وأفسدوا في جنوبي العراق ، بحيث انقطع عن بغداد كل ما كان يحمل اليها من البصرة في السفن ، فأرسل اليهم المعتصم قائده العربي عجيف بن عنبسة ، وتشدد في حربهم حتى طلبوا منه الأمان ، فنقلهم الى بغداد فخانقين ثم اسكنهم على الحدود البيزنطية ، وكانت عدتهم نحواً من ٢٧ ألفاً •

قتل الأفشين

د ـ تخلصه من الأفشين : ظهر للمعتصم سنة ٢٢٥ هـ أن قائده العظيم الأفشين يؤامر بسلامة الدولة ، ويحاول الذهاب الى أشروسنة بلاده الأصلية ، وأن اسلامه كان ظاهرياً ، لأنه كان يحن للمجوسية ويتعصب لها ، ويسعى في استرجاع مجده ، وازالة سلطان العرب والاسلام ، فقبض عليه وسجنه حتى مات •

الحرب مع البيزنطيين

هـ ـ اشتهاره بمحاربته البيزنطيين مذ كان مع أخيه المأمون ، وقد اشتدت هجماتهم على البلاد الاسلامية في أثناء حرب بابك

الخرمي ، وكثر تخريبهم وتدميرهم في أرمينية ، والمدن الواقعة على الحدود ، فلما فرغ المعتصم من حرب بابك وجه همه لضرب البيزنطيين ، فاستنفر سنة ٢٢٣ هـ الاستنفار العام ، فنفرت اليه العساكر ، من جميع أنحاء البلاد العربية ، وتحرك من سامراء بجيش ضخم جداً ، وقصد به تيوفيل بن ميخائيل انبراطور الروم ، فأخلى هذا انقرة ، وركز قواته في عمورية ، وقاومهم البيزنطيون بكل شدة • وأخيراً قرر قائدها الاستسلام للعرب ، فانتقم العرب من الروم انتقاماً شديداً ، وغنموا غنائم كثيرة جداً •

عناصر الجيش

و ـ أن جيش المعتصم كان يتألف (١) معظمه من الأتراك (٢) ومن الفرق العربية القديمة (٣) ومن فرق المغاربة وهم من عرب مصر من اليمانين والقيسيين (٤) ولم يهمل الفرس جميعاً ، بل كان منهم في جيشه فرق خراسانية فيها جنود من خراسان ومن سائر أنحاء بلاد الفرس (٥) من المتطوعة الذين كانوا ينضمون الى جيشه تدفعهم الحماسة الدينية والرغبة في الأجر والثواب •

الواثق

٣ ـ الواثق : وهو أبو جعفر هارون ، بويع بالخلافة بعد وفاة والده المعتصم سنة ٢٢٧ هـ = ٨٤٢ م وظل خليفة حتى سنة ٢٣٢ هـ = ٨٤٧ م • وكانت خطة أبيه ابعاد الجيش التركي من السياسة ، غير أن الواثق خالف هذه الخطة فأشركهم في سياسة الدولة ، وفي الادارة ، فجعل منهم الولاة على البلدان المختلفة ، فعظم نفوذ كلمتهم • وقد ارتكب الواثق خطأ آخر حين لم يعين ولياً من بعده ، بل ترك الأمر فوضى ، وبذلك فتح المجال

للأتراك ، للتدخل في أمر اختيار الخليفة ، حتى صار ذلك سابقة أدت الى نكبة كثير من خلفاء بنى العباس •

ويمكن أن نجمل أعمال الواثق عدا ما مر بما يأتي :ـ

أ ـ أيد المعتزلة واضطهد غيرهم فهو بذلك كأبيه وعمه المأمون •

ب ـ قوى حركة الترجمة ونشر العلوم بين الناس •

ج ـ تساهل على العلويين وأحسن معاملتهم وأجزل لهم العطاء •

د ـ حدثت في عهده ثورات بين عرب الجزيرة ، حتى ولوا على أنفسهم خليفة منهم ، غير أنه أرسل جماعة من قواده من الأتراك فغلبوا عليهم وأخمدوا حركتهم • وثار قوم من العرب والنصارى في أرمينية فأرسل اليهم حملة أخضعتهم ، وثار الخوارج في ديار ربيعة ففلح عليهم كذلك •

هـ ـ حصلت على عهده مفاداة بين أسرى المسلمين وأسرى البيزنطيين •

و ـ أسقط شيئاً من الضرائب عن التجارة ، وكان كريماً ، يساعده على ادارة الدولة وزيره الأديب المشهور محمد بن عبدالملك الزيات ، وقاضي قضاته أحمد بن أبي داود •

٤ ـ المتوكل : وهو جعفر بن المعتصم ، بويع له بالخلافة سنة ٢٣٢ هـ = ٨٤٧ م بعدوفاة أخيه الواثق ، وقتل سنة ٢٤٧ هـ = ٨٦١ م • والظاهر أن رؤساء الأتراك هم الذين اختاروه للخلافة ووافق عليه رجال البطانة من عرب وترك • وكان حازماً المتوكل

يميل الى الشدة والقسوة والكيد في بعض الأحيان . ويمكن اجمال أعماله بما يأتي :ـ



المتوكل على الله

حبه للبناء

أ ـ كان يحب العمارة ، ومن آثاره فيها قصور كثيرة في سامراء ، وصفها البحتري في شعره وذكرت في عدة كتب ، واشتهر ببنائه مدينته المعروفة بالمتوكلية ، في شمالي سامراء . ولا يزال كثير من آثارها وأطلالها ماثلاً ، وقد أنفق أموالاً عظيمة في ذلك .

اضطهاده للمعتزلة

ب ـ اضطهد المعتزلة ، واستعان بالفقهاء الذين كان الحزب العربي قد التف حولهم ، وذلك ليستميل الى نفسه الرأي العام . واضطهد في سبيل ذلك أهل الذمة .

تقييده لأهل الذمة

ج ـ اضطهد الذميين بأن فرض عليهم أن يلبسوا لباساً خاصاً ، وأن يشدوا الزنانير في أوساطهم ، ومنع استخدامهم في

الوظائف وأذن لهم في أن يركبوا البغال والحمير ، دون الخيل والبراذين[1] . وفرض عليهم ضريبة العشر على منازلهم . ويظهر أنه اتخذ هذه التدابير ليكتسب محبة العامة ، ولعله فعل بهم كل هذه التشديدات لئلا يتمكنوا من مساعدة البيزنطيين والتجسس لهم .

سياسته العربية

د ـ اتبع المتوكل كما ذكرنا ، سياسة عربية ، وكان يسعى في تقريب العرب ، وابعاد الأتراك ، لأنه أدرك ان أسلافه استعانوا بالفرس فخسروا ، واستعانوا بالأتراك فطغوا عليهم واستبدوا ، ولذلك أراد أن يعتمد على العنصر العربي ، فانتقل الى دمشق ، واتخذها عاصمة له ، وعزم على المقام بها ونقل دواوين الملك اليها ، ولبث فيها اكثر من شهرين ، فأجبره الأتراك على تركها لما لاحظوه من احداق الخطر بهم . فلما رجع الى سامراء لم يرتح الى وضع الأتراك فيها ، فعزم أن يبني لنفسه مدينة شمالها فأمر ببناء المتوكلية التي فيها اليوم الجامع المعروف بأبي دلف ، وهو احد جوامع المتوكل . وشرع يقاوم الأتراك ويحاول التخلص منهم بالتدريج ، فقتل أعظم رؤسائهم وهو ايتاخ ، وكان يدير أمور الجيش والمغاربة والأتراك والموالي والبريد والحجابة ودار الخلافة ، ويشرف على بيوت الأموال . وتشدد المتوكل على الأتراك ، واستبد بهم ، وقرب الى نفسه العرب وأدخل في الجيش فرقة عربية ، فاستطاع زعماء الأتراك أن يتصلوا بابنه المنتصر ، ويوغروا صدره على أبيه ، وقرروا التخلص منه ، بعد أن أوشك سلطانهم ان يزول ، فقتله جماعة منهم وعلى رأسهم

ضرب الأتراك

---

(١) نوع من الخيول التركية ، كبيرة الجسم ، ثقيلة الحركة وتستخدم للحمل ونقل الأثقال .

وصيف وبغا ، وكان قتله هتكاً لحرمة الخلافة وفاتحة عهد جديد في التعدي على الخلفاء بضروب من الاهانات المختلفة .

ولاية العهد

هـ ـ وكان في سنة ٢٣٥ هـ = ٨٥٠ م قد عهد بالولاية من بعده لأبنائه الثلاثة : المنتصر والمعتز والمؤيد ، وقسم الانبراطورية بينهم . وفي سنيه الأخيرة قرب ابنه المعتز وأبعد المنتصر فأوغر فعله صدر المنتصر عليه ، فاستغل الأتراك ذلك كما ذكرنا آنفاً .

و ـ وفي خلافته حدثت عدة ثورات في أذربيجان ، وفي سجستان وحدود الحبشة ، وحمص وأرمينية ، فاخمدها جميعاً ، ورجعها الى حظيرة الخلافة .

ز ـ وكان بين العرب والبيزنطيين على عهـــده شيء من الحروب في البر والبحر . وتبادل الأسرى ، وكان الروم هم المغيرين ، اذ كانوا أقوى من العرب في هذا العهد .

المعتمد

وهو أحمد بن المتوكل ، بويع له بالخلافة بعد أخيه المعتز ، من دون عهد سابق سنة ٢٥٦ هـ = ٨٧٠ م ، وظل خليفة حتى سنة ٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م . وقد أشرك معه أخاه الموفق ، ولاه العهد وأمر الجيش والجزيرة العربية والعراق والأهواز وفارس والثغور والعواصم ، فاستطاع أن يسيطر على الأتراك وقوادهم . وكان قائداً بارعاً وسياسياً محنكا . وقد أشرنا الى نعشه الخلافة في أول الفصل . وفي خلافة المعتمد حدثت ثورة الزنج وثورة الصفارين بايران ، واستقلال أحمد بن طولون بمصر وبرقة والشـــام ، وظهور الدولة السامانية في بلاد ما وراء النهر ، كما أومأنا اليه من قبل . ونحن مكتفون بذكر خلاصة حركة الزنج ، لما لها من الأهمية في هذا العهد .

الموفق

ثورة الزنج

الزنج هم العبيد السود ، الذين كانوا يستخدمون في المزارع في سهول البصرة . استخدمتهم الطبقة المثرية من أصحاب الأملاك

الواسعة ، وأكثرهم من زنوج الصومال ، وكانت لهم أهميـة خاصة ، فقد كانوا ماهرين في جمع السباخ والأملاح ، لجعل الأرض صالحة للزراعة ، ولذلك كثرت المتاجرة بهم ، غير أن أحوالهم المعاشية ساءت وتأخرت ، فدفعتهم حالتهم هذه الى الثورة على سادتهم لتحرير أنفسهم ، ودامت ثورتهم من سنة ٢٥٥ هـ الى سنة ٢٧٠ هـ قادهم فيها رجل ظهر بينهم مدعيـاً العروبة والنسب العلوي ، وكان مغامراً طموحاً ، ادعى ان الله أرسله لانقاذ هؤلاء العبيد المظلومين ، وانتشالهم مما هم فيه من سوء الحال ، ووعدهم أن يجعلهم طبقة مثرية يمتلكون العبيد والأموال والمنازل ، فاستجاب له كثير من الزنوج ، وانضم اليهم العبيـد الآبقون (الهاربون) ، وحالفهم الأعراب الساخطون على الدولة العباسية ، وأحسن صاحب الزنج هذا استغلال رأي الخوارج في الخلافة ، ونشره بين اتباعه ، وهو أن الخلافة يتولاها أفضل المسلمين ، ولو كان عبداً حبشياً . وثاروا في المنطقة التي بين شط العرب الحالي وواسط وانتصروا عدة انتصارات متوالية . وبنى صاحب الزنج لنفسه مدينة حصينة قرب البصرة سماها « المختارة » ، واحتلوا اقليم فارس والأهواز ، وكثر تخريبهم وتدميرهم في جنوبي العراق ، فتوجه اليهم الموفق بنفسه ، غير أنه في هذه الحالة العصيبة ، كانت جيوش الصفارين تهدد بغـداد فاستعد الموفق لحربهم وواقعهم بين واسط وبغداد ، فغلب عليهم ، ثم تفرغ لضرب الزنج ، وكانوا قد تغلبوا على واسط واقتربوا من بغداد أيضاً ، فأرسل الموفق ابنه المعتضد لمحاربتهم في أسطول نهري كبير ، فانتصر عليهم أيضاً ، وسار الموفق الى الأهواز فأنقذها منهم ، وجمع الذخائر والمؤن واجتمع مع ابنه وقواده

للاستيلاء على المختارة • وكان الزنج قد حصنوها تحصيناً عجيباً ، ولكنها سقطت سنة ٢٧٠ هـ بعد حرب دامت من ٢٦٧ هـ الى ٢٧٠ هـ ، فشتت الموفق قوات الزنج ، وتمكن من قتل صاحبهم وأسر قواده وقتلهم بعد أن خربوا البصرة ، وعاثوا في الأرض وأفسدوا • وأكثروا فيها التدمير • وبذلك أخمد ثورة ، ظل خطرها في تزايد أكثر من ١٤ سنة ، وقد ساعد الموفق على اخمادها مهارته الحربية وبراعته في القيادة ، والحصار الاقتصادي الذي ضربه على أعدائه والامداد الكثيرة التي جاءته من سامراء والشام والبحرين • وكذلك ساعدته الأموال الوافرة التي كانت تتوارد عليه • وكان لخيانة اتباع صاحب الزنج وانحياز ابنه وكثير من قواده المشهورين الى الموفق ، وحسن معاملة الموفق لهم أكبر أثر في الغلبة على صاحب الزنج واخفاق حركته ، وتعاظم هيبة الخلافة •

المعتضد وانتعاش الخلافة

٦ ـ المعتضد : وهو أحمد بن الموفق ، ولي العهد بعد وفاة أبيه الموفق سنة ٢٧٨ هـ ، وبويع له بالخلافة بعد وفاة عمه المعتمد سنة ٢٧٩ هـ • ودام حكمه الى ٢٨٩ هـ • وكان شجاعاً كأبيه ويفوقه في براعته السياسية • أعاد للخلافة هيبتها واخمد الثورات الداخلية وحركات الأكراد في الشمال ، والأعراب في الوسط ، وقمع الخوارج في الجزيرة ، وضم الى مملكته منطقة الجبال ، وتخلص من الدولة الصفارية ، ونجح في تحسين صلاته بالدولة الطولونية ، وخضع له أميرها • ونظم الضرائب وأكد الأمر باتباع العدل في الجباية ، حتى بلغت الواردات شيئاً كثيراً • قيل انه ولي الخلافة وليس في بيت المال شيء ومات وفيه عشرة ملايين دينار • وكان مولعاً بالبناء بنى ببغداد الشرقية قصر الثريا

والفردوس في أعلى شارع المستنصر الحالي ، وبدأ ببناء التاج جنوبه ، ومن أعماله انه ضرب القرامطة في العراق ضربات قوية ، أخمدت حركتهم •

القرامطة

والقرامطة (جمع القرمطي نسبة الى حمدان قرمط زعيمهم) ظهروا في العراق والشام والبحرين واليمن ، وكانوا جميعاً يستغلون اسم العلويين الناقمين على العباسيين ، لبث مبادئهم السياسية • وقد نجح حمدان قرمط ، في بث آرائه في السواد ، مستفيداً من ضعف الخلافة العباسية ، واضطراب أمرها ، وانصرافها الى حرب الزنج • وكثر أتباعه من أهل السواد ، وانضم اليه فريق من العرب ، وعين ١٢ نقيباً لتنظيم دعوته ، وقد نظم مالية الدعوة تنظيماً جيداً ، فكان يأخذ من كل منتسب ديناراً ، وفرض عليهم ضرائب مختلفة منها ضريبة الفطرة ، وهي درهم على كل فرد ، وضريبة الهجرة وهي دينار على كل بالغ ، وفرض عليهم خمس أموالهم • ومن أجل ذلك أحصى أموالهم احصاءاً دقيقاً ، وتدرج بذلك الى تأسيس اشتراكية في الأموال بينهم • ولما كان هدفه قلب نظام الحكم كان يأمر اتباعه بالاكثار من شراء الأسلحة استعداداً للثورة ، وقد استغل القرامطة الدين لبث دعوتهم ، فكانوا يظهرون لكل جماعة بما يعجبهم من آراء ، غير أنهم حينما قويت حركتهم أجاز حمدان قرمط لهم بعد سنة ٢٧٦ هـ ترك الفرائض الدينية ، وحلل لهم قتل اعدائهم ، فاختاروا لهم دار هجرة قرب الكوفة • وانتشرت الحركة القرمطية في اليمن وجنوبي ايران ، فهناك لقيت نجاحاً باهراً ، والغريب أن الدعاة هناك كانوا يقولون للناس : ان الله غضب على العرب لأنهم قتلوا الحسين ، وأن الله يحب شعب

الأكاسرة الذين ايدوا حقوق الامام دون غيرهم ، وكانوا يقولون لهم : أن تعاليم محمد فيها شيء كثير من الخطأ • وكثرت ثوراتهم في العراق فكانوا يحرقون المنازل ويقتلون المسلمين ولا يترددون في قتل النساء والأطفال ، غير أن المعتضد أخمد ثوراتهم المختلفة ، وتجددت هذه الثورات في خلافة المكتفي والمقتدر ، وكان نصيبها الخيبة أيضاً • ولعل أهم أسباب خذلانهم الخلاف بين رجالهم من القرامطة واختلاف الجماعات التي انضمت اليهم في الأهداف، وقد سهل القضاء عليهم قوة المعتضد وهيبة الخلافة في عهده • أما أسباب قيامهم فترجع الى أمور ، منها سياسية دينية حيث كانت العناصر الأجنبية تكره العرب وسيطرة دينهم عليهم ، ومنها مادية نتجت عن كره الناس للعباسيين لأنهم لم يحققوا لهم الرفاهية والسلم ، والى جانب ذلك مساعدة العامية والجهل على قبول مختلف المبادىء ،كما ساعد التباين الاجتماعي والاقتصادي على احداث مثل هذه الحركات •

المقتدر وانتكاس الخلافة

٧ ـ المقتدر : ومن خلفاء هذا الدور المقتدر بالله بن المعتضد ، بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه المكتفي سنة ٢٩٥ هـ وظل خليفة الى سنة ٣٢٠ هـ ، بويع له يوم كانت الخلافة قد استعادت هيبتها بفضل المعتضد وأبيه الموفق كما ذكرنا سابقاً • وكان الجيش معتزلاً للسياسة تاركاً التدخل فيها ، غير أن الخلافة في عهده انتكست مرة أخرى ، وتكرر الانقسام بين رجال الادارة من كتاب[١] ووزراء وتدخل الجيش في السياسة ، فكان ذلك ايذاناً بخضوع البلاد لاجنبي آخر من آل بويه • وسبب ذلك ضعف المقتدر وتأثير النساء في الحكم ولاسيما السيدة شغب أمه ، ونشاط القرامطة وافلاس بيت المال ، والارتباك المالي • وقد ظهر

(١) انظر فصل الحضارة العباسية في معنى الكاتب •

ضعفه في كثرة من عزل من الوزراء ، وما كانوا يقـدمونه من الرشوات له ولأمه ولخدمه . وكان أخطر رجاله مؤنس المظفر المقدم ذكره ، وكان القائد العـام للجيوش ، وكان يتدخل في تعيين الوزراء وعزلهم . وفي زمن المقتدر تقدم القرامطة نحو بغداد فصدوا عنها سنة ٣١٦ هـ . وساءت العلاقة بين مؤنس والخليفة ، حتى تمكن مؤنس من خلعه سنة ٣١٧ هـ ونصب أخيه القاهر ، ثم أعيد المقتدر الى الخلافة ، وتوترت العلاقة بينه وبين مؤنس ، فاستولى مؤنس على جميع الأمور ، وأسند الحجابة الى ابن رائق أحد رؤساء الأتراك وقد ذكرناه . وساءت الحالة بين مؤنس والخليفة ثانية ، حتى تمكن مؤنس من قتلـه سنة ٣٢٠ هـ . وكان عهده عهد أبهة تتمثل في استقبال وفود الروم ببغداد . وقد كان له ١١ ألف مملوك . وولي بعده خلفاء ضعفاء لا سلطة لهم حتى دخلت بغداد في حوزة البويهيين سنة ٣٣٤ هـ .

الفصل الثالث

العصر العباسي الثالث

البويهيون

البويهيون الديلم

بنو بويه ويعرفون أيضاً بـ (البويهيين) كانوا أسرة فارسية تنتسب الى رجل اسمه (بويه) ، وكان صياداً فقيراً من الذين يسكنون ساحل بحر قزوين ، فلما اشتهر أبناؤه انتسبوا الى الملوك الساسانيين • كما تصنع كثير من الأسر الحاكمة •

وقد نبغ بنو بويه في أواسط القرن الرابع للهجرة ، مع اليقظة الفارسية العامة في بلاد ايران ، في السياسة والأدب والقومية ، وكانوا أتباعاً للدولة الزيارية التي اسسها مرداويج الذي أراد أن يحيي رسوم الدولة الفارسية ودينها المجوسي ، ثم انفصلوا عنها لقوتهم وطموحهم وأسسوا دولة تعرف بدولة الديلم وبدولة بني بويه •

والديلم من سكان الجبال في شمالي ايران ، اسلموا قبيل القرن الثالث للهجرة وشاع الاسلام فيهم على يد جماعة من العلويين الزيديين ، كانوا يناوئون العباسيين على ما أشرنا اليه •

ظهور البويهيين على مسرح التاريخ

وأول من اشتهر من بني بويه علي وحسن وأحمد أبناء بويه • بدؤوا بالظهور سنة ٣٢٠ هـ = ٩٣٢ م ، فاستولى علي بن بويه على مقاطعتي فارس وكرمان ، وبعد مقتل مرداويج سنة ٣٢٣ هـ استولى على اصفهان والري ، وتعاون هو وأخوه ،

فاستولوا على الأهواز ، واستمر شأنهم على التعاظم ، وملكهم على الاتساع ، بعكس حال الدولة العباسية ، فقد استولى على ادارتها الأمراء من المماليك الأتراك المتحكمين المستبدين ، ونازعهم على امارة الأمراء فيها بيت عربي هم بنو حمدان(١) ، وزعيمهم ناصر الدولة بن حمدان فلم ينجحوا . وأخذ البويهيون يسملون أعين الخلفاء الذين لا يريدونهم ، فيكون المسمولة عيناه أعمى ، والأعمى لا يستحق الخلافة في الشريعة الاسلامية ، فيسقط حقه في الامامة الى آخر عمره .

دخولهم العراق

وبينما كانت الدولة العباسية في اضطراب شديد ، والأمراء في نزاع مبيد ، كاتب أحد أمراء العراق أحمد بن بويه وأطمعه في العراق . فزحف من الأهواز الى العراق ، في جيش من الديلم ، والمماليك والأتراك المجندين ، فاحتل بغداد سنة ٣٣٤ هـ في عهد الخليفة المستكفي بالله ، فأظهر الخليفة السرور بقدومه، وولاه الامارة وتقبل منه المبايعة بالخلافة ، وكتب له عهداً بالولاية لتكون شرعية ، ثم خلع عليه خلعة سنية ولقبه (معز الدولة) ، ولقب أخاه علياً (عماد الدولة) ، وأخاهما الحسن (ركن الدولة) ، وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم .

حالة الخلافة في ظل البويهيين

ومن ذلك العهد ابتدأ حكم البويهيين في العراق ، وامتدت سلطتهم على الدولة العباسية . وكان الحكم ينتقل من أحدهم الى الآخر بطريق الوراثة ، وكان الخليفة مجبراً على امضاء ذلك ، على حسب ما يريد الأمير المتسلط منهم ، مع أنهم كانوا يتدخلون في انتخاب الخليفة تدخلاً يجعله منصوباً لا منصوصاً عليه ، ويأخذون أمواله أحياناً . وقد ضعف الخلفاء في أيام بني

---

(١) وكانت الموصل مركز امارتهم ، ثم أسسوا امارة حلب .

بويه أفحش الضعف ، واضطهدوا كثيراً لان بني بويه كانوا لا يعترفون بخلافتهم وامامتهم ، لأنهم كانوا من الزيدية . فكان ابقاؤهم على الخلافة تمويهاً على الرعية وتسييراً للأمور . وقد استأثروا بالأموال وجعلوا للخليفة اقطاعاً يسيراً يعيش منه ، ولكنهم كانوا ينقصون من ذلك الاقطاع ويتعدون على حرية الخليفة . وكانت أسماء الأمراء البويهيين تذكر بعد أسماء الخلفاء في خطب الجمعة ، وقد استطاعوا أن يضربوا الطبول في أبوابهم ، في أوقات الصلوات ، وان يحذفوا لقب « أمير المؤمنين » من السكة . وكانت هذه تميزات الخليفة وحده .

الخلافة تصبح مؤسسة دينية

ولم يبق للخليفة من الحكم الا تعيين القضاء وأصحاب الصلاة والخطباء وقوام المساجد . وهذا هو الذي حفظ على الخليفة نفوذ كلمته الديني ، فصار يؤكده ويسعى في تثبيت مركزه به ، ويتهدد البويهيين ويجدد سلطتهم ، وقد ساعده ذلك على استرجاع سلطته في دور ضعفهم . وحافظ الخليفة أيضاً على احترام الرأي العام وتأييده ، وهو مما جعل البويهيين يحسبون للخلافة حسابها حتى في دور قوتهم .

ايقاد البويهيين للفتن المذهبية

وفي عهد بني بويه زادت الفتن المذهبية في العراق ، بما كانوا يبثونه من شقاق بين الأمة ، وينصرون فريقاً على فريق آخر ، تدليساً بالعصبية المذهبية والغيرة الدينية . ونشأ من ذلك تنابذ العلماء ، وتأليف الكتب التي جعلت من العصبية المذهبية باباً الى تقبيح سير الرجال العظماء . ولجأ الفريقان المتخاصمان ، الى العلوم العقلية كالمنطق والكلام والفلسفة ، لتأييد آرائهم ، فحدثت نهضة علمية عقلية ، وكثرت التصانيف فيها ، وفتح المجال للمناظرات الدينية ، وأسست داران مهمتان للعلم احداهما بالبصرة ، وفيها كان اخوان الصفاء يجتمعون ويؤلفون (رسائلهم) ،

والأخرى ببغداد أسسها أحد وزراء بني بويه ، ثم انشئت ثالثة بالبصرة أيضاً • وظهر في أيام بني بويه فن السعاية أي السباق في الركض ، وفن المصارعة •

اضطراب الادارة البويهية

وكانت الادارة في أيام بني بويه سيئة ، والمالية مضطربة ، فلذلك كثرت الضرائب والمكوس والمصادرات ، وثار الناس مراراً على الظلم الذي لحقهم من ذلك ، وانكسرت سدود الأنهار كسد النهروان ، فلم يعدها أحد الى حالتها الأولى ، وانما كانت تصلح اصلاحاً ضعيفاً ثم يتطرق عليها الخراب • وثبتت في زمنهم عادة اخراج الجند للناس من دورهم واحتلالها ، فلم يك حكمهم احتلالاً واحداً بل احتلالين ، وذلك مما زاد سخط الناس عليهم • وتجرأت العامة لما رأت الحال فوضى ، وأخذت عصابات العيارين منها تعبث بالأمن وتنهب القوافل ، وتهاجم دور الأغنياء والمثرين في بغداد نفسها ، فاختل الأمن وضؤلت التجارة •

عضد الدولة

وكان الأمير عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه أعظمهم ، فقد اهتم بعمارة البلاد والأمن واصلاح الأنهار ، ونشر العلم ، وأسس مارستاناً (مستشفى) في الجانب الغربي (١) من بغداد على دجلة سمي بالمارستان العضدي نسبة اليه ، وأوقف عليه أوقافاً للنفقة عليه • وكان هو طموحا ، فجعل الخليفة يلقبه بلقبين : « عضد الدولة وتاج الملة » • وحاول التقريب بين بيته وبيت بني العباس ، بأن زوج ابنته بالخليفة الطائع لله ليتم استيلاء بني بويه على الخلافة • ولكن الطائع خاف العاقبة فلم يولدها ولداً •

تدهور البويهيين

وكان عدة أمراء بني بويه وملوكهم الذين تحكموا بالخلافة وحكموا في العراق (١٢) أميراً وملكاً ، وكان متأخروهم يلقبون

---

(١) جانب الكرخ •

بالسلاطين أحياناً ، وآخرهم الملك الرحيم ، قبض عليه طغرلبك السلجوقي سنة ٤٤٧ هـ ـ وسنذكره بعد قليل ـ واعتقله في احدى القلاع ، ثم توفي فيها أو قتل ، وبذلك انقرضت الدولة البويهية •

وقد ارتكب البويهيون خطأ العباسيين ، في اكثارهم من العناصر الأجنبية التركية في جيشهم ، فكان ضعف ادارة الأمير منهم سبباً في ظهور أطماع الطامعين من مماليكهم الأتراك ، وبث الشقاق بين الناس والخراب والفساد في البلاد •

ومما بناه بنو بويه دار المملكة بشرقي بغداد[1] على دجلة عند الصرافية الحالية وكانت بلاطاً عظيماً • وقد شق اليها عضد الدولة نهراً من الخالص ، وألحق بها بستاناً من شماليها يعرف بالزاهر • وبنى معز الدولة داراً واسعة قوراء فخمة ، كثيرة المرافق في باب الشماسية على دجلة في الموضع المعروف اليوم بالصليخ ، وشيد لها مسناة عظيمة • وكانت هذه العمارات من أعاجيب المباني في ذلك العصر •

(١) جانب الرصافة •

الفصل الرابع

العصر العباسي الرابع

السلاجقة

أصل السلاجقة

وهم من الترك ، كانوا يسكنون في بلاد ما وراء النهر وأواسط آسية ، وكانوا كثيري العدد ، لا يدخلون تحت طاعة سلطان ولا ملك ، واذا هجم عليهم من لا يقدرون على رده دخلوا الصحاري فلا يصل اليهم أحد ، ثم أسلموا ، ولكنهم كانوا يغيرون على ما جاورهم من البلاد ، التابعة للدولة الغزنوية ، وسلطانهم يومئذ محمود الغزنوي ، وتفرق كثير منهم في البلاد ، فمنهم من قصد بلاد الجبال غربي ايران ، ومنهم من قصد شمالي أذربيجان .

بدء سلطانهم

وانتقلت زعامة من بقي في ما وراء النهر الى طغرلبك ، فاصطدم هو والغزنويون سنة ٤٢٩ هـ وغلب عليهم ، واستولى على طوس ونيسابور . وبعد ذلك اتصل بالخليفة القائم بأمر الله طالباً اليه أن يفوض اليه حكم ما فتحه من البلاد ، ليكون حكمه شرعياً ، فأجابه الخليفة الى طلبه وبعث اليه بالتقليد والعهد .

دخولهم العراق

ولما اشتد اضطراب الحال في العراق ، وعجز بنو بويه عن الادارة والعمارة ، وزادت الفتن المذهبية ، وكثر اضطهاد المماليك للخليفة القائم بأمر الله ارسل الى طغرلبك رسولاً ، يستنجده ويستقدمه الى العراق ، فزحف بجيشه غرباً ودخل بغداد في ١٦ من شهر رمضان سنة ٤٤٧ هـ واعتقل الملك الرحيم وقضى على البويهيين .

حالة الخلافة في ظل السلاجقة

وهكذا بدأ حكم السلاجقة بالعراق ، وثبت لقب السلطان لهم ، وانتقلت الخلافة من حماية الى أخرى • والفرق بين الحكمين هو أن السلاجقة كانوا يعترفون بامامة الخليفة ، وأعادوا لقب « أمير المؤمنين » الى النقود ، الا أن الشعب لم ير راحة ولا فرجاً ولا خيراً في الاحتلال الجديد • وقد عد السلاجقة الخلافة مؤسسة دينية بحتة ، فحفظوا على أنفسهم السلطة الدنيوية ، كما كان الوضع في العصر البويهي، ولكنهم لم يتدخلوا في استخلاف الخلفاء الا بعد يقظتهم ، أعني يقظة الخلفاء ، واحترموا الخلافة ، ولم يحصل منهم تعد على أموال الخليفة كما كان يحصل أيام البويهيين الا نادراً •

أما نفقات الخلافة فكانت على الطريقة السابقة من تخصيص ضياع في البلاد بالخليفة ، يستوفي وارداتها وحاصلاتها • فكان ذلك معرضاً للزيادة والنقصان ، باختلاف الملوك والسلاطين من بني سلجوق ، وبحسب الرضا والغضب منهم •

وقد سمح السلاجقة لخلفاء بني العباس ، باتخاذ الوزراء ، ولكن السلاطين أنفسهم أو وزراءهم هم الذين كانوا ينتخبون أولئك الوزراء ، في أكثر الاحيان ويعزلونهم حينما يشاؤون • وكانت تولية القضاة وموظفي القضاء ، على جاري العادة ، من شؤون الخلفاء ، واستقل الخلفاء في استيفاء الجزية من أهل الذمة ، وضربوا ضريبة على السلاطين المتأخرين سميت (مال المبايعة) يأخذونها في مقابل العهد اليهم بالسلطنة •

العباسيون والفاطميون

وفي أوائل حكم السلجوقيين حاول الفاطميون أن يبسطوا سلطتهم على العراق وما جاوره ، فاستطاعوا أن يخطب باسمهم عدة أشهر في العراق وبغداد خاصة ، وقطعوا ذكر الخلافة

العباسية ، ولكن السلجوقيين أعادوا الحالة كما كانت ، وأضافوا الى ذلك أن انتزعوا بلاد الشام من الدولة الفاطمية واتباعها • وبقي النزاع بين الدولتين متمثلا في الحرمين بالحجاز ، فكل منهما كانت تسعى في أن يذكر اسمها على منابر مكة والمدينة ، ثم انفض النزاع عن فوز الدولة العباسية وزوال الدعوة الفاطمية عن تلك البقاع • وكان ذلك مما زاد في نفوذ كلمة الخلفاء الدينية ، واعترف لهم أمير المغرب والأندلس يوسف بن تاشفين من المرابطين بالخلافة ، وطلب الى الخليفة المستظهر بالله عهداً بالبلاد التي تحت حكمه، فأجابه الى ذلك ولقب « أمير المسلمين » ، وخطب على منابر المغرب والأندلس باسم الخليفة العباسي بعد انتزاعها من ملوك الأطراف •

ضعف السلاجقة

وأحسن عهود السلاجقة بعد حكم مؤسس الدولة السلطان طغرلبك ، هو عهد السلطان ألب أرسلان وعهد ملكشاه ، فقد بلغت المملكة أوجها في الفخامة والقوة وأبعد مداها في الاتساع • ثم ظهر التنازع بالسلاح على السلطة بين أمراء السلاجقة • وأخربت الحروب البلاد ، وفشا نظام الاقطاع والأتابكية • فالاقطاع يومئذ كان تولية السلطان أحد أمرائه قطراً من الاقطار يستقل فيه ، بشرط أن يدفع خراجاً سنوياً ، يتفق عليه الطرفان ، كما كانت عليه امارة بني مزيد الأسديين بالحلة • والأتابكية هي اسناد تربية ابن من أبناء السلطان الى أتابك أي « أمير والد » لينشئه تنشئة عسكرية ادارية •

الصليبيون

وفي أثناء النزاع والحروب القائمة بين السلاجقة على عهد الخليفة المستظهر بالله العباسي ، بدأت الحروب الافرنجية المعروفة بالحروب الصليبية ، فظهر عجز السلطان السلجوقي عن انقاذ

البلاد الشامية من الصليبيين • أما المستظهر بالله ، فلم يكن له قوة بالبداهة على دفعهم ، وبذلك ثبت أقدام الصليبيين في تلك البلاد ، وصاروا يتهددون العراق من الشمال والغرب ومصر من الشمال والشرق •

الباطنية

وفي ذلك العصر أيضاً تفاقم أمر الباطنية وهم المعروفون بالحشيشيين والاسماعيلية في ايران والشام خاصة ، واستولوا على كثير من قلاع البلاد الاسلامية هناك ، فزادوا شواغل السلاطين عن التجرد للصليبيين •

الفتوة

وظهر نظام الفتوة بصورة مذهب اجتماعي ، وصنفت فيها كتب تذكر فضائلها وقوانينها ، ودخل فيها كثير من الأشراف ، الا أن الخلفاء قاوموها خوفاً من اختلاط الدعوة الفاطمية بها ، لتوهم بعض الصلة بين الاثنتين ، ولكنها ظلت كامنة تظهر عند اللين وتستخفي عند الشدة ، حتى استفحلت في عهد الناصر لدين الله •

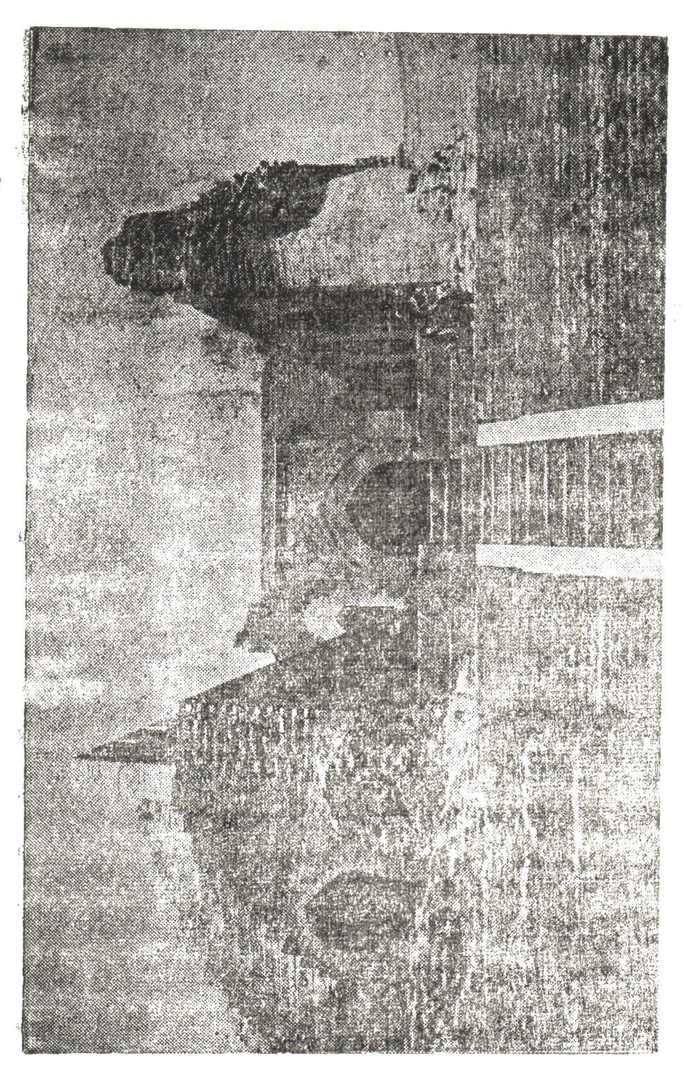
الخلفاء والدين

ومما يجب أن يذكر في هذا العصر أن خلفاء بني العباس منذ أواخر العصر البويهي شعروا ببعدهم عن آداب السنة ، وتقصيرهم في أمور الشريعة ، فبدلوا سيرهم ومالوا الى الزهد والعبادة والرجوع الى قوة الاسلام الكامنة ، حتى ظهر فيهم الخليفة المسترشد بالله ، فانه كان يعتقد في نفسه القدرة على اعادة مجد الخلافة العباسية ، واصلاح البلاد الاسلامية • فأخذ يجند الجنود ويحصن بغداد بالسور ويباشر الحروب بنفسه ، بعد أن نسيها الخلفاء مدة طويلة ، ولم يلبث أن اصطدم هو

النزاع بين الخلفاء والسلاجقة

والسلاجقة ، من أجل التحرر والاستقلال ، وخرج الى حربهم في بلاد ايران ، فأسروه ودسوا عليه قوماً من الباطنية ، فقتلوه ومثلوا به تمثيلا فظيعاً سنة ٥٢٨ هـ • فكان أول خليفة في العصر

المتأخر ضحى بنفسه في سبيل استقلال الدولة العباسية ، وانقاذ الشعب من الظلم وسوء الادارة والاضطراب والشقاء والعيث والعبث .



باب الظفرية (الباب الوسطاني) أحد أبواب بغداد الشرقية
(منظر الباب من داخل بغداد ويرجح أنه من آثار المسترشد)

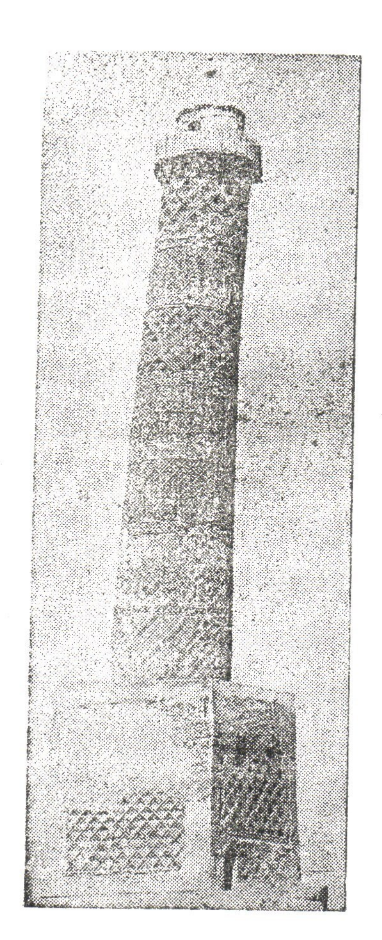
وحاول بعده ابنه الراشد بالله اعادة استقلال الدولة والاستفادة من جهاد أبيه ، فقتله السلاجقة أيضاً فكان الضحية الثانية للاستقلال . وتدخل السلاجقة في استخلاف الخلفاء ، بعد أن رأوا فيهم يقظة وميلاً الى التحرر من عبودية السلطنة ، فاختاروا المقتفي لأمر الله بن المستظهر بالله ، فانتهز هذا الخليفة العظيم الفرص ، ودبر الأمور أحسن تدبير . فما حلت وفاة السلطان مسعود السلجوقي سنة ٥٤٧ هـ حتى أعلن استقلال العراق ، وزالت سلطة الدولة السلجوقية الفعلية عنه ، منذ تلك السنة ، واستقرت شعبتها الكبرى وهي الأصل في بلاد ايران والصغرى في بلاد الروم أي آسية الصغرى . وظلت السلطنة السلجوقية تحاول استرجاع حكمها الفعلي على الخلافة كلما آنست في نفسها قوة ، ولكن الخليفة الناصر لدين الله الذى سيأتي ذكره سعى في ضرب آخر سلاطينها طغرل الثالث فقتل سنة ٥٩٠ هـ ، فانقرضت الدولة الأصلية ، وبقي فرع بلاد الروم الى أيام حكم المغول .

استقلال الخلافة

من اعمال السلاجقة العمرانية

وفي أيام السلاجقة وسعت المملكة التي بناها البويهيون وجعل لها سور وأسواق وجامع . ومن آثار العصر السلجوقي « المدرسة النظامية » ببغداد ، بناها نظام الملك والحق بها داراً للكتب ، وكان وزير السلطان ألب أرسلان يومئذ ، ثم صار وزيراً لابنه ملكشاه . وأسست في ذلك العصر عدة مدارس في بغداد ومدن العراق المهمة ، وبني الجامع النوري بالموصل ، بناه نور الدين محمود بن زنكي التركي على يد معين الدين أبي محمد عمر بن محمد الملاء .

وهكذا نجحت الخلافة العباسية أخيراً في مكافحتها



مئذنة جامع نورالدين بالموصل
(بني الجامع سنة ٥٦٦ هـ)

السلاجقة . وجدد الخلفاء دولة مستقلة عاشت زهاء قرن ، لتضمحل اضمحلالاً نهائياً ، ولم يكن انتقالها الى مصر الا ضرباً من الذكرى والخيال .

الفصل الخامس

النهضة العباسية الأخيرة

والناصر لدين الله

تمهيد

ذكرنا في الصفحات السابقة مساعي الخلفاء العباسيين الجبارة ، في استرجاع استقلال الخلافة وحرية البلاد ، وخصوصاً مساعي الخليفتين الكبيرين المسترشد وابنه الراشد ، ونجاح الخليفة العظيم المقتفي لأمر الله في انقاذ الخلافة من السلاجقة وضربهم ضربة قاضية في العراق .

المستنجد بالله

وعقب المقتفي لأمر الله على الخلافة ، ابنه المستنجد بالله ، وكان يقظاً شجاعاً الا أنه كان شديداً . وانتهت خلافته بأن تآمر به استاذ داره المشرف على شؤون دار الخلافة ، عضد الدين محمد بن رئيس الرؤساء من بني المسلمة ، وكان اصلهم من الفرس ، ومقدم جيوشه قطب الدين قايماز الأرمني الأصل ، وكان من المماليك الذين اشتراهم المقتفي لأمر الله . تآمرا به فأهلكاه في الحمام وهو مريض بالحمى المحرقة أي التيفوئيد بشبهة أن الحمام شفاء له .

المستضيء

وولي الخلافة بعده ابنه المستضيء بأمر الله ، وكان ميالاً الى الزهد والعبادة ، وسيطر عليه المتآمران المذكوران ، فكان لا يخرج الا نادراً . وفي أيامه كثرت الفتن المذهبية ، وتنازع الأمراء والكبراء من أرباب الدولة في نيل المراتب والتسلط

على الخلافة ، وطمع ملوك الأطراف في أرض الخلافة ، كما حدث في دور التسلط التركي ، حتى اذا جاء الناصر لدين الله ، لم يكتف بأن حال دون تحقيق هذه الأطماع بل انتزع منهم ما استطاع انتزاعه .

الناصر لدين الله وتقوية الدولة

ولي الناصر لدين الله الخلافة سنة ٥٧٥ هـ ، وكان أبوه قد اعتقله خوفاً منه ، فأعرب عن جدارة وبراعة ، وأصلح ما فسد من أمور الخلافة ، ونظم الدولة تنظيماً عظيماً ، وأعاد هيبتها الى النفوس بكثرة الجنود وحسن التدبير ، وبسط سلطانها على عدة أقطار اسلامية ، وفتح خوزستان وهمذان وأصفهان وما جاورها ، واستعاد تكريت والحديثة . وأسند صلاح الدين الأيوبي في حروبه مع الصليبيين بدعوته الممالك الاسلامية الصغيرة الى مساعدته بالجند ، وجدد الاسماعيلية بدعوته اسلامهم ، بعد أن أرهبوا العالم الاسلامي مدة طويلة ، وسخر فريقاً منهم في اعماله ، وحرض ملك خوارزم تكش المعروف بخوارزم شاه على حرب آخر السلاطين طغرل الثالث ، حتى قتله سنة ٥٩٠ هـ كما أشرنا اليه سابقاً ، لأنه طالب الناصر باعادة البلاد ، التي فتحها في غربي ايران ، وبقبول السلطنة السلجوقية ببغداد ، ولو قبولاً لفظياً . فكانت مطالبته بذلك وبالاً عليه .

نظام الفتوة

وقد استفاد الناصر استفادة عظيمة من العلويين ، فقد وظف كثيراً منهم ، وبانت كفايتهم ومساعيهم ، ووحد العالم الاسلامي باحياء نظام الفتوة وتحويلها من الفتوة المضطربة ، الى نظام اصلاحي عام يستند الى أنواع الفضائل والشجاعة كالمروءة والفروسية وتنمية روح النضال ، ومقاومة الظلم ، وحفظ النظام ، والرماية وأنواع

الرياضة البدنية الأخرى كالمسايفة[1] . والفتوة قريبة في حقيقة أهدافها من أعمال الكشافة . وقد تجددت روح العالم الاسلامي بذلك ، ودخل في الفتوة الملوك والأمراء في العالم الاسلامي الا الموحدين المصامدة ، واعترفوا بزعامة الناصر ، وبذلك جمع العناصر الفتية حوله ونشر سلطانه على أولئك الملوك والأمراء .

أعمال الناصر العمرانية

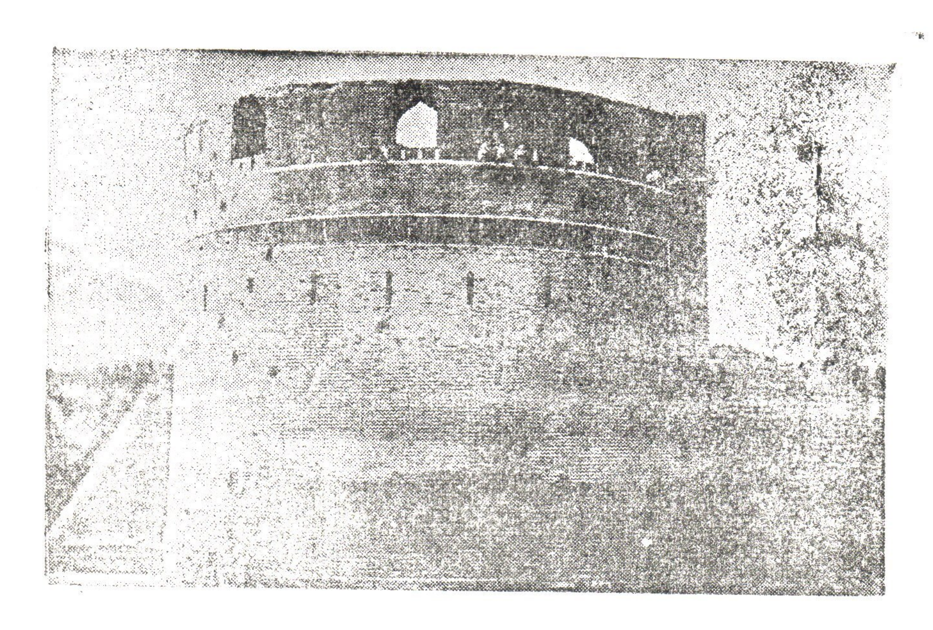
واهتم الناصر بالأعمال العمرانية ، فأنشأ سداً على الفرات قرب الفلوجة لرفع مستوى المياه في نهر عيسى ونهر الملك وغيرهما من الأنهار التي تروي بين الفرات ودجلة . وترك جملة من الآثار ، منها باب الحلبة من سور بغداد، وهو المعروف بباب الطلسم ، وقد نسفه الأتراك سنة ١٩١٧ م ، وتربة والدته زمرد خاتون المعروفة اليوم بقبة الست زبيدة بالجانب الغربي من بغداد . ويرى البعض أن القصر العباسي بقلعة بغداد من آثاره ، وقد صنع في زمانه باب الغيبة في سامراء . أما آثاره التي زالت فكثيرة جداً ، منها دار الكتب التي الحقها بالنظامية ووضع فيها عشرة آلاف مجلد ، وهي دار للكتب الجديدة غير التي أسسها نظام الملك ـ كما أشرنا اليه ـ وأنشأ الناصر عدداً آخر من دور الكتب . وبنى من الربط للصوفية عدداً وافراً ، (والربط هي التكيات) ، وجعل في كل منها خزانة كتب نفيسة مثل خزانة دار المسناة .

تحويل الخلافة الى ملكية

وكان يعتقد في نفسه أنه المصلح الموعود به في الأحاديث والملاحم ، فلذلك عزم على قلب الخلافة الى ملكية ، ولقب ولي عهده ابنه الأمير أبا الحسن علياً بالملك المعظم ، ولكنه مات

---

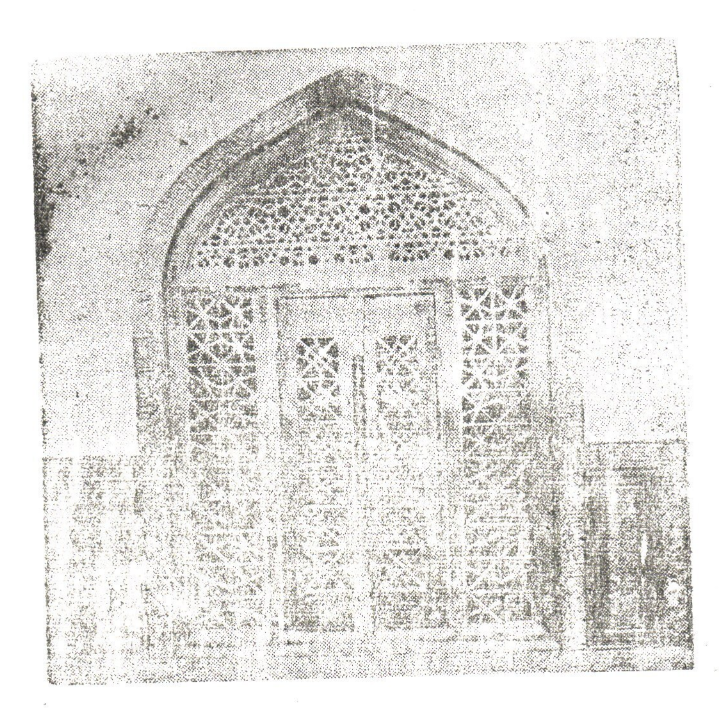
(1) المسايفة هي الملاعبة بالسيف .



باب الحلبة (باب الطلسم) أحد أبواب بغداد الشرقية
(بني سنة ٦١٨ هـ)

فلقب الناصر حفيديه بلقب الملك ، وجعل خوزستان مملكة صغيرة ، تابعة للدولة العباسية . وجعل أحدهما فيها ملكاً وللآخر ولاية العهد . ودامت خلافته من سنة ٥٧٥هـ - ٦٢٢هـ ، بلغت فيها الدولة العباسية أوجها في الفترة الأخيرة ، من النظام والقوة والرسوم ، وان كانت أراضيها قليلة . وكان مجاهراً بالعروبة - على كونه رئيس العالم الاسلامي - رأى ذات يوم من آثار السلاجقة ألواحاً معلقة على بعض جدران بغداد ، فقال : « اقلعوها لاحاجة لنا بآثار الأعاجم » يعني بالأعاجم غير العرب . وضبط العالم الاسلامي ضبطاً محكماً بحيث كانت تروى أبواب من مسند الامام أحمد بن حنبل ، في مشهد الامام موسى بن جعفر ، بالاجازة من الناصر من مشايخه من الشافعية والحنابلة ،

لأنه كان من رواة الحديث النبوي . وألف فيه كتاب « روح العارفين » رواها هناك أبو جعفر محمد بن معد الموسوي .



باب الخشب المعروف بباب الغيبة بسامراء
(صنع سنة ٦٠٦ هـ)

ظهور المغول

وفي عصر الناصر ظهرت دولة التتار من المغول ، وكانوا يسكنون في أواسط آسية ، وعظم شأن رئيسهم جنكيز خان ، وكانوا على حالة شديدة من البداوة ، ثم تقدمت قبائلهم نحو الشرق حتى جاوروا الدولة الخوارزمية ، فلم يكن بد من التصادم بينهما لأسباب اقتصادية واستعمارية وعدوانية ، واستطاع جنكيز خان بدهائه وقوته العسكرية أن يدحر علاء الدين محمد ابن تكش الملقب خوارزم شاه ، ملك تلك الدولة ، ثم انهزمت

امامه فلول الجيش الخوارزمي بقيادة جلال الدين منكوبرتي ابن علاء الدين المذكور • وسارت سرايا جنكيز خان نحو الغرب تغزو البلاد الاسلامية ، فأصبحت بين عدوين عظيمين : الفرنج من الغرب والمغول من الشرق ، واستطاع التتار أن يستميلوا الأمم كالكرج في القفقاس وهم من أقدم أعداء الدولة



الكتابة التي كانت على باب المدرسة المستنصرية ، وهي محفوظة بدار الآثار العربية ببغداد

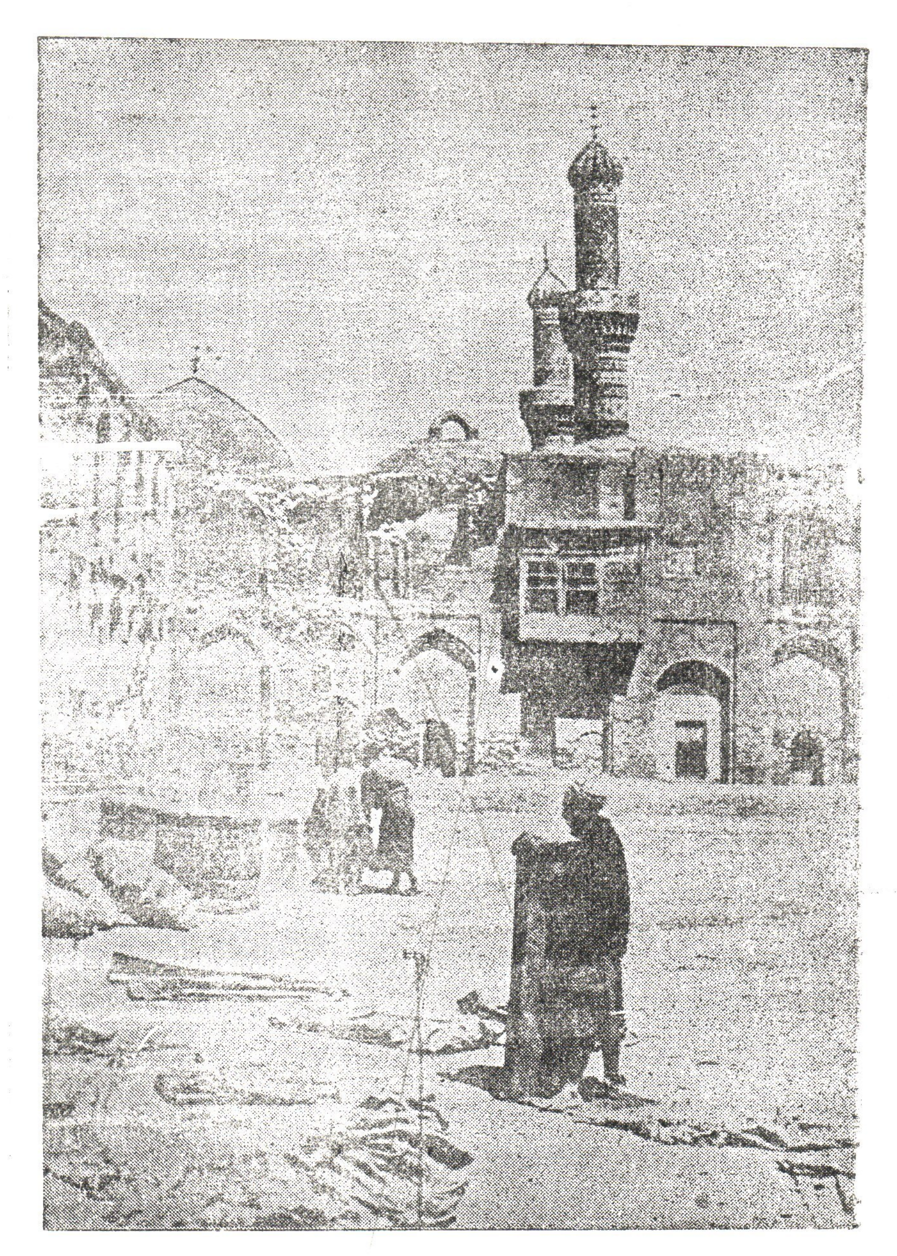
الاسلامية ، فقوي جيش المغول بهم ، ولما حاصر هولاكو بغداد ـ كما سيأتي ـ كان جيش من الكرج مع الجيوش المحاصرة لها .

الظاهر

وولي الخلافة بعد الناصر لدين الله ابنه الأكبر الظاهر بأمر الله ولم يبق له غيره ، وكان رجلا تقياً ، لم تدم خلافته زمناً ، يستطيع المؤرخ أن يتبين منه حقيقة خلافته الا انه ولي الخلافة وهو متقدم في السن ، فأخذ ينفق الأموال ، ويبذل النصائح لرجال الدولة ويحذرهم سوء الادارة ، فمدحه جماعة من المؤرخين على كرمه وتقواه ، ولم تدم خلافته الا أشهراً فتوفي سنة ٦٢٣ هـ بعد أن أمر الملوك بخذلان جلال الدين منكوبرني ابن علاء الدين خوارزم شاه لهجومه على العراق .

المستنصر

ولي بعده الخلافة ابنه أبو جعفر المنصور الملقب بالمستنصر بالله ، وكان أيضاً ميالاً الى الزهد والعلم منذ صغره ، حتى لقد كان جده الناصر لدين الله يسميه « القاضي » لحبه العدل . وكان جواداً سمحاً ، فعزم على انفاق ما في خزائن الدولة من الأموال العظيمة ، وكان محباً للعمارة ، بنى المدرسة المستنصرية المشهورة ودار القرآن الى جانبها « جامع الآصفية » ومسجد قمرية بالجانب الغربي من بغداد ، وعدداً من المنشآت الخيرية ، وجدد جامع البصرة وانشأ مارستاناً ومدارس بها ، وبنى للمسافرين عدداً من الخانات ، وجدد عمارة مشهد الامامين بسامراء ، ومشهد الامامين بالكاظمية ، وحفر نهر دجيل المعروف بدجيل المستنصري ، وبنى عليه قنطرة حربى . وتغلب في زمانه الأمراء من المماليك ، وضعف الجيش ، حتى بلغت



قسم من المدرسة المستنصرية قبل رمها

غزوات المغول طريق خراسان « شهربان[1] وخانقين » ، وانتزع منه جلال الدين خوارزم شاه بلاد العراق العجمي كهمذان واصفهان • وقد عنى بالفتوة ورسومها ، وجرت في أيامه احتفالات لها ، وكان هو رئيس الفتيان في العالم الاسلامي على قاعدة جده الناصر لدين الله ، وكادت حظيته السيدة شاهان تعيد دور الخيزران ، فقد حكمت في ديوان خاص بها ، وكان لها وكلاء وموظفون •

وفي سنة ٦٤٠ هـ توفي المستنصر بالله وقيل انه فصد بمبضع مسموم ولكن ذلك يستحيل التصديق به ، وخلف ابنين هما أبو القاسم عبدالعزيز وأبو أحمد عبدالله ، فاختار مقدم الجيوش شرف الدين اقبال الشرابي المملوك الأسود واستاذ الدار مؤيد بالدين محباً للعلم والآداب الا أنه كان ذا لين مفرط ، ضعيف الادارة الأكبر ، وتركا عبدالعزيز ، وكان يفضل أخاه قوة وعقلاً ، ولقب عبدالله « بالمستعصم بالله » وكان زواراً للصالحين متمسكا بالدين محباً للعلم والآداب الا أنه كان ذا لين مفرط ، ضعيف الادارة والارادة ، وقد استفحل الأمراء المماليك على عهده ، وتنازعوا هم وأرباب الدولة الآخرون • ومن أغرب أحواله انه كان مع تقواه يميل الى الغناء ميلاً شديداً ، ويقضي أوقاتاً في سماعه وفي تطيير الحمام للسباق لا للبريد ، وازداد ضعف أمره باطلاقه أبناءه يعملون ما يشاؤون ، وتركهم أحراراً ، خلافاً لما جرت عليه رسوم الدولة ، من تعيين مواضع لهم ، ومنع الأمراء من

المستعصم بالله

(١) وتسمى اليوم المقدادية •

الاتصال بهم ، لئلا يحملوهم على مؤامرة مضرة بالدولة • فكان منهم من يشارك في الاضطرابات التي تحدث في العاصمة بغداد وينصر طائفة على أخرى •



بقية منارة جامع البصرة (بنيت سنة ٦٢٩ هـ)

اضطراب أحوال الخلافة

وقد اضطربت الأحوال على عهد المستعصم بالله اضطراباً شديداً ، وكثر الظلم في البلاد ، وحدثت ثورات من الأهلين ، كان قمع الدولة لها ، بالسلاح والتعذيب والسجن ، وكانت العاصمة بغداد ، في هرج ومرج ، من الفتن السياسية والفتن المذهبيـة ، على حين كان المغول يتقدمون في احتلال البلاد الاسلامية ، ويجنـدون الأسرى ، ويجمعون أرباب الفنون الحربية لاتمام احتلال البلاد •

سقوط الدولة العباسية

ومن سوء تدبير المعتصم بالله انه صرف كثيراً من الجند ، بعلة الاقتصاد في النفقات ، فكثرت البطالة والمشاغبات ، وهاج من بقي من الجنـد وعددهم لا يتجاوز عشرة آلاف ، يطلبون الزيادة في رواتبهم • وكان منكوقان حفيد جنكيز خان وهو ملك الدولة المغولية اذ ذاك مصمما على تنفيذ خطة جده ، – وهي اكتساح البلاد الاسلامية وما اليها – ، وكان عالماً بحال الخلافة ، فبعث أخاه هولاكو في جحافل عظيمة نحوها ، فأتم هولاكو احتلال ايران ، واستأصل شأفة الاسماعيليين ، وفي أثناء ذلك راسل الخلافة العباسية ، طالباً أن تبذل طاعتها للانبراطورية المغولية وتساندها في المال والرجال ، فرفض أكثر أرباب الدولة طلبه ، وحينئـذ هجم هولاكو على العراق بجيوشه الجرارة وحاصر بغداد في ١٢ المحرم سنة ٦٥٦ هـ – ١٢٥٨ م وفتحها في الـ ٢٨ من الشهر ، وقبض على الخليفة المستعصم بالله وقتله وقتل من أبنائه الكبير أبا العباس أحمد ، والأوسط عبدالرحمن ، وأبقى على الصغير مبارك بن المستعصم • وأمر هولاكو أيضاً بقتل العباسيين من بيت الخلافة ، وأولادهم ونسائهم فضلا عن موظفي الدولة وعلمائها ، فكانت مذبحة بشرية فظيعة ، لم يشهد

لتاريخ ، ووضع السيف في أهل بغداد في ٥ صفر من السنة المذكورة ، وبقي المغول يقتلون وينهبون ويعذبون مدة أربعين يوماً ، وكانوا لا يفرقون في القتل بين الرجال والنساء والصبيان والأطفال ، فلم يبق من أهل بغداد ولا ممن التجأ اليها من أهل الأطراف الا قليل وبذلك الاحتـلال الوحشي سقطت الدولة العباسية ، واخربت بغداد ، وأحرق كثير من مبانيها الفخمة كجامع القصر « جامع سوق الغزل » ونبشت قبور الخلفـاء العباسيين بالرصافة « جنوبي الأعظميـة » وأبرزت العظام والرؤوس وأحرقت المقبرة . فقال بعض الشعراء :

ان ترق عبرة فتلك بنو العبـ ـاس حلت عليهـم الآفات
استبيح الحريم اذ قتل الأحـ ـياء منهـم واحرق الأموات

هكذا احتلت عاصمة الحضارة العربية الاسلامية ، وهكذا ذل العرب ووهنوا بسقوط الدولة العباسية .

أسباب سقوط
الدولة العباسية

كانت الدولة العباسية من الدول الوراثية الحكم بلا مجلس شـورى ولا ملأ يستفتى ، وكان أرباب الدولة اذا لم يكن للخلافة ولي عهد يختارون هم انفسهم ، رجلاً من بيت الخلافة ، فيولونه اياها ، كمـا فعلوا في خلافة المتوكل ، ولذلك كانت الخلافة في يد القدر على الحالتين . وأسباب ضعف الخـلافة العباسية في أولها هي غير أسباب ضعفها في أواخر عصورها ، التي انتهت بسقوطها ، ودونك الأسباب التي سببت سقوطها في

أيدي المغول :ـ

١ ـ اهمال أمر الجند وتقليل عددهم ورواتبهم •

٢ ـ الفتن المذهبية ، وفساد النظم الاجتماعية •

٣ ـ تفشي نظام الاقطاع الذي سبب ظلم الولاة للرعية •

٤ ـ اختيار أرباب الدولة أضعف الأمراء للخلافة ، ليكونوا ألاعيب في أيديهم •

٥ ـ تنازع الدول الاسلامية وغزو بعضها بعضاً ، حتى ضعفت كلها ، وقد كانت في أيام قوتها كالسور للدولة العباسية •

٦ ـ تدخل الجيش في السياسة ، والعداوة بين أرباب الدولة من أجل ذلك •

٧ ـ سوء الادارة العامة في بلاد الخلافة العباسية ، وتحكم الأمراء المماليك في شؤون الدولة • وافلاس بيت المال وعجزه عن مطالبة ذوي الاقطاع بما عليهم •

٨ ـ ظهور دولة المغول الفتية القوية ، فان الدولة العباسية لم تكن تستطيع الوقوف بازائها الا بتوحيد العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه ، وتوحيد قيادته وادارته ، وكان ذلك أمراً مستحيلا ، لاستفحال ملوك الأطراف وأمرائها ، ولأن العالم الاسلامي نهكته الحروب الصليبية ، ولم تكن قد فترت في أيام تقدم المغول •

الفصل السادس

الحضارة العباسية

تمهيد

ذكرنا أن العصر العباسي هو استمرار للعصر الأموي ، من النواحي الادارية والثقافية والدينية ، ولكن قسماً من الأحوال والأوضاع الجديدة أدى الى تطورات جديدة •

النظم العباسية

سنتناول في فصلنا هذا مختلف نواحي الحضارة العباسية بادئين بالنظم •

الخلافة

ان لاستناد العباسيين في الحكم الى القرابة من الرسول (ص) ، ومشاركة العناصر الأجنبية في الادارة أثراً في نظام الخلافة عندهم • فقد رسخوا نظام الوراثة على أساس ان الله فرض على المسلمين طاعة أهل البيت ، وانه طهرهم من الرجس ، ليكونوا أفضل خلقه • ووعدوا بالسير على الشريعة في الحكم ، لا على العادات القبلية والمآثر • وقربوا الفقهاء وأكدوا العمل في النواحي الدينية في مراسيمهم • وأصبح سلطان الخليفة مقدساً مستمداً من الله ، وما على الشعب الا الطاعة والولاء • وتأثر العباسيون بالآراء الفارسية في تأكيد الحكم المطلق ، واقتبسوا رسوم الأبهة في البلاط ، لزيادة رهبة الخلافة ، وأهملوا الرأي العام ، وضربوا التقاليد القبلية • كذلك جمعوا بين الدين والسياسة في حكمهم ، فقوى الدين سلطانهم وصار الخليفة حامي الدين من البدع والزندقة •

وكانت كلمة الخليفة هي القول الفصل في العهد • ثم أدخل المعتصم الأتراك وبدأت فترة السيطرة التركية ، التي أثرت في الخلافة ، اذ أدت زيادة نفوذ كلمتهم الى انحطاط مركز الخليفة ، وضعف هيبته • وأخذ الأتراك يتدخلون في شؤون الخلافة ، وفي اختيار الخلفاء ، وكان هذا التدخل يختلف بين التأثير المعتدل والخلع والاستخلاف • ثم أدى ارتباك مركز الخلافة وافلاس بيت المال ، وقوة الترك الى انشاء منصب جديد سنة ٣٢٤ هـ ، وهو منصب « أمير الأمراء » فاسند الى رئيس من الأتراك يدعى ابن رائق كما ذكرنا • وكان قائد الجيش في البصرة وواسط ، وبموجبه كان أمير الأمراء قائد الجيش الأعلى ، وبيده السلطة الحقيقية ، وصار الخليفة شبه موظف يقبض راتباً معيناً • ولم يبق معنى لولاية العهد بل كان الترشيح والتعيين للخلافة يتم على أيدي الأتراك • ولما فتح البويهيون العراق سنة ٣٣٤ الهجرية أخذ أميرهم مكان « أمير الامراء » • ولكن حال الخلافة تدهورت أكثر من قبل لأن الامارة أصبحت وراثية فيهم ولأن البويهيين لم يعترفوا بمشروعية الخلافة العباسية لكونهم زيدية ، وانما ابقوا الخلفاء لاعتبارات سياسية • وأصبح الخليفة شبه أسير في ايديهم ، يعينونه ويعزلونه حين يشاؤون ، وجعلوا له راتباً زهيداً بالنسبة الى ما يحتاج اليه خليفة من الخلفاء •

ولما رأى الخلفاء تدهور مركزهم السياسي اهتموا بتقوية سلطتهم الدينية ، واستعانوا بالفقهاء لتقوية مركزهم ، وحفظ

الخليفة على نفسه احترام الجمهور ، وظل الناس يعدونه مصدر السلطات ، نظرياً في الأقل • ولم تهبط أهمية الخلافة الى أدنى ما صارت عليه الا في العصر البويهي كما أشرنا اليه ، وتحسن حالها في العصر السلجوقي التالي له •

الوزارة

وكان يساعد الخليفة على توجيه ادارة الدولة وسياستها الوزير • وقد ظهرت الوزارة نتيجة للاتجاه نحو التمركز في الادارة ، ونتيجة لاتصال العباسيين بالفرس • ولم تظهر الوزارة بشكلها الكامل مرة واحدة بل بدأت بسلطات محدودة ثم نمت حتى استقرت ، وصار الوزير يشرف على الشؤون المالية وعلى الدواوين والجيش • وكان وزراء العصر الأول من ذوي الكفاية في الادارة ، ومن المثقفين ثقافة واسعة ، ومن الكتاب الماهرين • وتختلف سلطات الوزير بين الحكم الواسع الذي يكاد يساوي حكم الخليفة ، كما حصل للبرامكة ، والحكم المحدود الذي لا يتعدى تنفيذ أوامر الخليفة • ولكن الخلفاء القديرين كانوا يرقبون وزراءهم ومتى لحظوا خطراً من نفوذ كلمتهم نكلوا بهم كما جرى على البرامكة وعلى بني سهل •

وقد اكتفى العباسيون بوزير واحد الا فيما ندر ، ولذا كان للوزير هيبة عظيمة ، ولكن تسلط الجند وتدخلهم أديا الى ضعف سلطة الوزير حتى لم يبق له جاه في المدة التالية لمقتل المتوكل ، وفي العصر البويهي •

الدواوين

كان الوزير يشرف على الدواوين ، ويرأس كلا منها كاتب يساعده جماعة من الكتاب الصغار • وقد أبقى العباسيون الدواوين الأموية ، وأدخلوا عليها تعديلات تناسب تطور

الأوضاع ، فقد جعلوا السجلات في دفاتر بدل الصحف المتفرقة، وأنشأ المهدي دواوين صغيرة للاشراف على الدواين الكبيرة ، وخصوصاً من الناحية المالية وهي دواوين الأزمة • وأنشأ ديواناً لسماع شكاوي الناس من الموظفين سماه « ديوان المظالم » • واستحدث المعتصم ديواناً للنظر في شؤون الأتراك سماه « ديوان الموالي والغلمان » • وقد توسعت الدواوين وانقسم كل منها الى عدة شعب تسمى كل شعبة ديواناً أيضاً • ومنها ديوان مهم نعيد ذكره بصورة خاصة وهو «ديوان البريد» ، يشرف عليه صاحب البريد ، له أعوان في كل ولاية يطلق عليهم عمال البريد ، يكتبون اليه بكل ما يحصل في الولاية من أحداث ، كما يكتبون اليه بحال الخراج والاسعار ، وبمعاملة الوالي للرعية وخلجات الرأي العام ، وحال الزراع والأطعمة • فيجمع صاحب البريد هذه الرسائل وينظمها ويقدمها للخليفة أو للوزير •

ومن واجبات ديوان البريد العناية بطرق البريد ، وهذه تقسم الى محطات تسمى السكك ، بين السكة والأخرى مسافة فرسخين أو أربعة ، وفي كل محطة بدالات من الدواب ولا سيما البغال ، وجماعة من الراكبين البريديين ، ويقوم صاحب البريد بايصال رسائل الخليفة الى الولايات • والبريد ينقل العمال والأمتعة عند الضرورة ، ويتجسس عمال البريد للخليفة كما ذكرنا آنفاً • وكان الخليفة يستشير صاحب البريد عند تجهيز الجيوش •

العمال

وكانت الانبراطورية مقسمة الى ولايات ، يدير كلاً منها أمير أو وال ، يعين من المركز أي حضرة الخلافة ، ويكون في العادة من ذوي الشخصيات الكبيرة . وينتظر من الوالي الاشراف على حفظ الأمن والجباية وقيادة الجيوش . ولكن الخلفاء كانوا يعينون أحياناً عمالاً للخراج ، تسند اليهم الأمور المالية في الولاية ، ويتصلون بالمركز رأساً . ثم ان العباسيين فصلوا القضاء عن سلطة الولاة ، ليضمنوا استقلال القضاء وحريته وعدله ، وليقللوا من تسلط الولاة . ولما كان العباسيون يميلون للمركزية في الحكم قيدوا سلطة ولاتهم أكثر من بني أمية ، وجعلوا عمال البريد رقباء عليهم . كما أنهم كانوا يوصون عمالهم عند توليتهم اياهم بوصايا ، وينتظرون منهم تنفيذها ، وكانت وصاياهم تتصل ، في الأكثر ، بضمان العدل ، والرفق بالرعية ، وتوفير الخراج ، والتصرف على وفق الشريعة الاسلامية في الحكم .

الجيش

سار العباسيون في جيشهم على القاعدة الأموية ، ولكنهم طوروه كثيراً . فبدؤوا بادخال فرق خراسانية بجنب الفرق العربية ، وكانت سياستهم في العصر الأول حفظ التوازن بين الجنسين ، حتى جاء المعتصم ، فأدخل الترك وجعل جل اعتماده عليهم .

وسار العباسيون خطوة جديدة في تكوين الجيش ، وذلك بتهيئة جيش نظامي دائم ، يرزقونه أرزاقاً معينة ، ولا عمل له سوى الحرب ، وأصبح الجيش العباسي متألفاً من : الحرس وهم

أصل الجيش واكمله عدة ، ثم عامة الجيش النظامي من المرتزقة ، ثم المتطوعة الذين يشاركون في غزو أعداء الاسلام ، رغبة في الجهاد ، أو طمعاً في الغنيمة . ويدخل في الجيش النظامي المشاة والفرسان والنشابون أي الرماة ويصحبه المهندسون ، الذين يقيمون الجسور ويقومون بالأعمال الفنية الحربية للحصار .

وينقسم الجيش الى وحدات صغيرة وكبيرة ، فالعريف على عشرة ، والنقيب على مائة ، والقائد على ألف ، والأمير على عشرة آلاف فأكثر . واشتهرت الجيوش العباسية بعدتها ونظامها ، وكانوا يهتمون بالسرعة في الحركة وبجودة التموين ، ويستعملون الخيل والبغال والحمير والجمال للنقل . وكثيراً ما استعمل الجيش السفن الصغيرة ، للنقل في الأنهار . ولم يعن العباسيون بالأساطيل عناية الأمويين ولكنهم كانت لهم أساطيل قوية في شمالي افريقية . هذه لمحة في المؤسسات العباسية ، وهي تمثل ناحية الكمال العام . ولننتقل الآن الى ناحية أخرى هي الناحية الثقافية .

الحركة الثقافية

سار العباسيون على أثر الأمويين ، في الثقافة ، ولكنهم دخلوا ميادين جديدة ، وقطعوا بالمدنية العربية شوطاً بعيداً ، حتى عد عصرهم عصر المدنية العربية الزاهر .

اتجاهاتها

فبعد أن كانت الدراسات دينية لغوية أضيفت اليها الدراسات العلمية والعملية والجغرافية والفلسفية ، وبعد أن كانت مساهمة الشعوب الأخرى محدودة أصبحت في العصر العباسي واسعة في مختلف نواحي العلم ، فأصبح كل شعب يأتي بأحسن ما في ثقافته ، ليغذي به أرواح المجموع . ويمكننا تبين وجهتين في

الحركة العلمية ، في العصر العباسي الأول • احداهما بارزة نشيطة وهي حركة الترجمة ، لنقل ما عند الأمم الأخرى وخاصة اليونان ، من فلسفة وفلك وطب ومنطق وغيرها الى العربية ، وقد استمرت الحركة قوية حتى منتصف القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، والأخرى وجهة تنمية ما خلفه الأمويون في اللغة والأدب والعلوم الدينية وتوسيعه وسنتناولهما بايجاز ، ثم نبين تطور الحضارة في عصر النتاج المستقل ، في مختلف نواحي الثقافة ، طوال القرنين التاسع والعاشر •

حركة الترجمة أسبابها

لقد كانت البواعث على حركة الترجمة متعددة منها رسمية ومنها شعبية • فخلفاء العصر الأول كالمنصور والرشيد والمأمون الذين كانوا مثقفين ولهم ولع بالعلوم كانوا يحضون عليها لذاتها • ومنهم من حض على العلوم العملية لأهداف معينة • فالمنصور حث على الطب لأنه كان مريضاً يشكو معدته ، والمأمون شجع على ترجمة الفلسفة والمنطق لأنه كان من المعتزلة ، الذين استعملوا العقل في قضايا الدين ، وعززوا الدين بالمنطق والجدل الفلسفي ، وأدى اعتقاد الناس لوجود صلة بين حركات الكواكب والحوادث في العالم الأرضي ، الى الاقبال على ترجمة كتب الفلك ودراستها • ومن الشعوب من حاول ترجمة آثاره تذرعاً الى اظهار حضارته للمفاخرة بها كالفرس • وكان لاختلاط العرب بغيرهم وللمناقشات الدينية بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى أثر في تنشيط الترجمة أيضاً •

موضوعاتها

وقد بدأ العباسيون بترجمة العلوم العملية للحاجة اليها ، ولصلتها بحياتهم ومعيشتهم ، وخصوصاً الطب والهندسة وأحكام النجوم ، ثم تلا ذلك الاهتمام بالفلسفة والمنطق في أيام المأمون خاصة . ففي خلافة المنصور ترجمت عدة كتب يونانية مهمة في الطب ، وترجمت أيضاً كتب في الفلك من اليونانية والهندية ، واستعان فلكيو المنصور بهما لوضع أسس الفلك العربي . ونقلت من الفارسية القديمة (الفهلوية) كتب أدبية وتاريخية وقليل من الكتب الهندية ، مثل كتاب « كليلة ودمنة » الذي نقله ابن المقفع .

ثم قوى المأمون حركة الترجمة ونشطها ، فأنشأ داراً خاصة بها سماها بيت الحكمة ، وضع فيها خيرة المترجمين ، وألحق بها خزانة كتب ومرصداً فلكياً ، وتحسن مستوى الترجمة في عهده ، وكانت قصواها في الطب والفلسفة والرياضيات والفلك ، وقام فلكيو المأمون بقياس طول الدرجة من محيط الأرض، وتحققوا كرويتها وقاسوا دورها « محيطها » بتحرير يجلب الانتباه . وان لاحظنا مصادر الترجمة وجدنا الأثر الاكبر لليونان في الطب والفلسفة والفلك ، على حين كان أثر الهند قوياً في الحساب والجبر والفلك . أما أثر الفرس فكان ضعيفاً ، يقتصر على الأدب والحكم والأمثال وقليل من التاريخ .

النتاج الثقافي المستقل

وقد راعى العرب في الترجمة حاجتهم وذوقهم ، فمثلوا ما اقتبسوه ليناسب تفكيرهم وأحوالهم • وتلا الترجمة نتاجهم في حقل الفلك والرياضيات والجغرافية ، وبمقدار أقل في الطب والفلسفة • ولا ننس أن مركز الحركة الثقافية في القرنين التاسع والعاشر للميلاد كان في وادي الرافدين •

الطب

وقد وجه العرب عناية خاصة الى الطب فكانوا أول من كتب في طب العيون وفي الحصبة والجدري ، وتقدموا في فن التشريح والجراحة • وكانوا أيضاً أول من أنشأ الصيدليات ، ووضع الكتب في الأدوية والصيدلة ، واهتموا برقابة الأطباء ، حتى ليذكر أن الخليفة المقتدر أمر رئيس أطبائه بامتحان كل الأطباء في بغداد واعطاء اجازة التطبب من ينجح فقط ، واهتموا بانشاء المستشفيات « المارستانات » والى هرون الرشيد ينسب انشاء أول مستشفى في بغداد •

وكان للنساء قاعات خاصة في المستشفيات ، وكانت في عدة منها خزائن كتب « مكتبات » وقاعة للتدريس والتدريب • ومن عظماء أطبائهم الرازي (٣١١ هـ = ٩٢٣ م) فانه يعد من أعظم أطباء العصور الوسطى ، في الشرق والغرب ، وابن سينا ٤٢٨ هـ ـ ١٠٣٦ م الذي جمع خلاصة البحوث الطبية في دائرة معارفه العظيمة (القانون في الطب) ، وقد كان هذان العبقريان منارين يهتدي بهما أساتذة الغرب وأطباؤه ، حتى القرن السادس عشر •

الفلسفة

واهتم العرب بالفلسفة ، وكانت غايتهم القصوى التوفيق بين الفلسفة اليونانية والدين الاسلامي • وأول فلاسفة العرب الكندي (٢٦٠ هـ = ٨٧٣ م) وقد ألف مجموعة كبيرة من الرسائل في الموسيقى والطب والفلسفة واللؤلؤ • وبلغت الفلسفة العربية قمتها على يد الفارابي وابن سينا ، فالفارابي مؤلف (المدينة الفاضلة) ، يصور مدينة منظمة بشكل مثالي ، يحكم فيها ملك فيلسوف لخير الجميع • ويعد الفارابي أفضل من شرح فلسفة أرسطو • وكتب ابن سينا دائرة معارف فلسفية كبيرة تعرف بكتاب الشفاء • وظهرت جماعة اخوان الصفاء بالبصرة في القرن الرابع الهجري كما أومأنا اليه ، وهي جمعية يسرت جميع العلوم والمعارف والفلسفة في خمسين رسالة ، كتبتها بلغة مفهومة ، ونشرتها في العالم الاسلامي لتبديل تفكير الناس واتجاههم العقلي •

الفلك

وتقدم علم الفلك عند العرب ، فأنشأوا المراصد الفلكية ، وعملوا التقاويم الزمنية المتقنة ، وتوصلوا الى معرفة الخسوف والكسوف ، وفهموا العلاقة بين حركة القمر والمد والجزر • وبقوا مدة طويلة في العصور الوسطى أساتذة للغرب في الفلك •

الرياضيات

وبرع العرب في الرياضيات ، فاقتبسوا الأرقام من الهند وألفوا الكتب في الحساب والجبر ، واستعملوا النظام العشري ، وتقدموا في حساب المثلثات ، ويكفي هنا أن نشير الى الخوارزمي ، الذي كانت كتبه خير ما تدارسه أهل الغرب في الرياضيات ، حتى القرن السادس عشر • وأظهروا مقدرة في هندسة تخطيط

المدن ، وهندسة التروية « الري » واستخراج التني وبناء الجسور والقناطر والمصانع كما تشهد به آثارهم •

الكيمياء

وارتقى علم الكيمياء على أيدي العرب ، فقد قاموا فيه بتجرب كثيرة ، فحولوه من الشعوذة الى علم ذي قواعد • وكانت الفكرة الأصلية التي تدور الكيمياء حولها امكان تحويل المعادن الخسيسة كالنحاس « الصفر » الى ذهب • ومن أعلام الكيمياء « جابر بن حيان » الكوفي (في حدود سنة ١٦٠ هـ = ٧٧٦ م) فانه يعد امام الكيميائيين عند العرب ، وبقي المعول عليه في الغرب حتى القرن الثامن عشر ، وقد أجرى تحسينات في التبخير والتصعيد والتكثيف والاذابة والبلورة ، واستطاع توليد حامض الخليك وحامض الكبريتيك ، وقد استفاد العرب من الكيمياء في عمل الأسمدة وفي صنع الزجاج •

هذه هي أهم العلوم التي كان ازدهارها على أثر حركة الترجمة ، ولنتطرق الآن الى نواحي الثقافة الأخرى التي تتصل بالدراسات في العصر الأموي •

علوم اللغة

استمرت العناية بعلوم اللغة العربية وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥ هـ = ٧٩١ م) وضع أول معجم لغوي وسماه « العين » ، وكنا قد أشرنا الى ذلك ، ودرس الشعر الجاهلي ، فوضع علم العروض وحدد فيه أوزان الشعر وقوافيه • وجاء تلميذه سيبويه فدرس النحو ووضع كتابه المشهور المسمى « الكتاب » وثبت بذلك نحو اللغة العربية ، ثم نظمت علوم اللغة في القرن الرابع الهجري ، ووضعت المعاجم اللغوية ، فضبطت الألفاظ ، ودونت وعرفت معانيها ، ورتبت ترتيباً خاصاً على

حروف الهجاء من أوائلها أو أواخرها، ومنها ما وضع على حسب المعنى وتلك هي الطريقة القديمة • وفي الشعر ظهر أسلوب طريف بأخيلة حديثة ، وضع أسسه بشار بن برد (١٦٨ هـ = ٧٨٤ م) • وأدى الترف الى زيادة الرقة والدقة والروح الحضرية في الشعر ، وان وصلت الى حد التهتك أحياناً • وكان أبو نواس من زعماء المدرسة الشعرية الجديدة يجمع بين سعة الأفق ورقة العاطفة ، وجمال الأسلوب والتمكن من اللغة • وظهر بجانب شعر الترف والنعيم شعر ديني بنزعة صوفية ، وصاحبه أبو العتاهية • ولكن الأسلوب الشعري القديم بقي على حاله وعموده ، ومن زعمائه أبو تمام والبحتري والمتنبي ، وقد ظهر أثر انتشار العلوم والفلسفة في الشعر بالتدريج ، ومال الشعراء المطبوعون الى النظر المستقل والابتكار في التعبير الى حد بعيد • وظهر شعر شعبي تنشده العامة وتتغنى به وينظمه لهم شعراؤهم ولكن أثره كان وقتياً •

النثر

وتطور فن الكتابة بتوسيع حركة التأليف ، وتقدم العرب في الحضارة ، واستعملوا النثر في تصوير الخواطر بعد أن كان يقتصر على النواحي الدينية • وظهرت الرسائل الفنية في نثرها • ومال جماعة الى كتابة القصص والحكايات ، وكان منها ما يمثل أخلاق العامة وسيرهم ، ومنها ما كان على شكل حكاية تمثيلية قصيرة ، كما في مقامات بديع الزمان الهمذاني والحريري ، ونما فن القصة ووضع قصص شعبي رائع ، يمثل مختلف البيئات والعصور الاسلامية ، كما في قصص ألف ليلة وليلة •

التاريخ

وأصبح التاريخ في العصر العباسي فرعاً مستقلا ، وأول كتاب في التاريخ الاسلامي هو سيرة الرسول (ص) لابن اسحاق (١٤٩هـ = ٧٦٦م) ، ثم تلتهاكتب أخرى فيسيرة الرسول (ص) ومغازيه • وتقدم فن التاريخ خطوة جديدة حين ألفت كتب في مواضيع تاريخية غير السيرة ، فألف البلاذري كتابفتوح البلدان ، وفيه يصف فتح العرب لمختلف الأقطار ،وألف ابن واضح الاخباري تاريخه الحافل ، ثم ألف الطبري كتابه العظيم « تاريخ الرسل والملوك » وسجل فيه الحوادث على السنين ، جامعاً كل ما استطاع جمعه من روايات العرب التاريخية ، دون تحيز ، وهذا الكتاب يعد من أهم المراجع لتاريخ العرب، واستفاد جماعة من المؤرخين من دراستهم للفلسفة ، والعلوم الجغرافية ، فظهرت تواريخ متأثرة بهذه النواحي مثل مروج الذهب والتنبيه للمسعودي • وتنوعت كتب التاريخ ، فألفت كتب عامة تتناول تاريخ العرب مع مقدمة في تاريخ الأمم منذ بدء الخليقة ، وتواريخ خاصة تتناول قطراً أو انساناً أو مدينة أو رجالها المشاهير ونساءها المشهورات مثل « تأريخ بغداد » للخطيب البغدادي ، وقد عني بتاريخ الرواة والمحدثين خاصة كطبقات ابن سعد وتاريخ البخاري صاحب الصحيح •

الجغرافية والرحلات

وعني المسلمون بمعرفة أحوال البلدان وخاصة الاسلامية منها ، فظهر جغرافيون منهم ، وضعوا كتباً لارشاد المسافرين والبريديين وخرائط للبحارة ، وكتباً جغرافية وصفية ، وفي

القرن الرابع الهجري ظهرت جمـــاعة من الجغرافيين ، جابوا العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه وكتبوا له أوصافاً مفصلة ، من ملاحظتهم الشخصية لما في البـــلدان ، وأعظمهم المقدسي البشاري • ومنهم من سافر الى الهند والصين ، ووصفوا تلك البلاد كسليمان التاجر • ووضع جماعة كتبـــاً تصف غرائب وعجائب البلدان التي سافروا اليها ، مثل كتاب عجائب الهند • وعلى كل كان ما كتب في الجغرافية يتميز بالتدقيق والتحقيق ويكون جزءاً من أهم أجزاء الأدب العربي •

العلوم الدينية

واتسعت الدراسات الدينية في العصر العباسي ، فالمعتزلة حاولوا الاستفادة من الفلسفة في برهنة الآراء الدينية ، وسمي تطبيقهم الفلسفة والمنطق على الدين علم الكلام • وقد صار هؤلاء المعتزلة (وهم المنادون بحرية الرأي والارادة) قوة سياسية حين عاضدهم المأمون، ولكن المتوكل ضرب الاعتزال فضعف بالتدريج _ كما أشرنا اليه _ ثم انتعش في عصر بني بويه •

الحديث

واعتنى المسلمون بالحديث (وهو كل ما قاله الرسول أو عمله أو أقره) وجمعوا مجموعات منه • ولما لاحظوا أن من الرواة من أخذ يختلق الأحاديث وينسبها للرسول لخدمة غرض سياسي أو فرقة معينة اهتموا بنقد الحديث ، أي تمييز الصحيح من الموضوع منه • فظهرت ستة مجموعات للحديث الصحيح ، أهمها « صحيح البخاري » و « صحيح مسلم » •واعتنى فريق بتفسير القرآن ، فظهرت تفاسير كثيرة منها « تفسير الطبري » « والكشاف » للزمخشري • وتشعبت المذاهب الفقهية وكثرت •

التفسير

المذاهب الفقهية

وأعظم زعماء المذاهب الاسلامية جعفر الصادق (+ ١٤٨ هـ = ٧٦٥ م)(١) المشهور بسعة اطلاعه في علوم الدين ورواية الحديث • وأبو حنيفة (+ ١٥٠ هـ = ٧٦٧ م) زعيم مدرسة الرأي ، واستعمال العقل لاستنتاج الأحكام من نصوص القرآن والحديث • ومالك بن أنس (+ ١٧٩ هـ = ٧٩٥ م) الذي تمسك بنصوص الحديث والقرآن في أحكامه ، دون اللجوء الى الاستنتاج • والشافعي (+ ٢٠٦ هـ = ٨٢٠ م) الذي سلك طريقاً وسطاً فحيناً يتبع النصوص حرفياً وحيناً يستنتج • وابن حنبل (+ ٢٤١ هـ = ٨٥٥ م) الذي اعتمد على الحديث بعد القرآن ، واستند الى معناه الحرفي في أحكامه •

المؤسسات العلمية

وفي العصر العباسي زادت العناية بالتعليم ، فانتشرت دوره في أنحاء البلاد الاسلامية ، وقد كانت على درجات وأشكال مختلفة• فمنها مدارس الصغار وتسمى الكتاتيب (مفردها الكتّاب)، ومنها حلقات للتدريس تعقد في المساجد حيث يجلس الشيخ ، ويكون التلاميذ حلقة حوله فيلقي عليهم دروسه • وبقيت المساجد مراكز الدراسة ، حتى أنشئت في القرن الخامس الهجري وبعده بنايات للتدريس خاصة ، وهي المدارس ، فقامت بقسطها في نشر العلم ، بجنب المساجد ، ومن أشهر المدارس المدرسة النظامية التي تقدمت الاشارة اليها ، وكان التعليم فيها مجاناً ، ولطلبتها أرزاق ورواتب ، ثم المدرسة المستنصرية وهي

---

(١) تشير العلامة + الى سنة الوفاة ، ويعني بها « رحمه الله » أيضاً •

أكبر جامعة في زمانها ، يدرس فيها الطلبة مختلف العلوم والآداب ، وفيها قاعات للدرس والمناقشة ، ولها مطبخ خاص وساعة مائية كبيرة لتعيين الوقت وخزانة كتب .

الوضع الاجتماعي الاختلاط بالأعاجم

لقد زالت الفوارق الاجتماعية بين العرب وغيرهم في العصر العباسي الا في الطبقات المتميزة رسمياً كالعباسيين والطالبيين . وكثر الاختلاط بالأعاجم ، وصار الاقبال على الزواج بالاماء الاعجميات قوياً وكثيراً . فأدى ذلك الى تسرب العادات الأجنبية في المجتمع ، وتكون مجتمع يصح تسميته بأنه اسلامي ، ولكنه يختلف عن المجتمع العربي الأول . ومع ذلك لم يزوج العرب بناتهم من الأعاجم وان علت مراتبهم الا في النادر ، وأثرت هذه الأوضاع في المعيشة العائلية ، فقد أفسدها كثرة الرقيق واختلاف أجناسه في البيت الواحد ، وتدهورت حالة المرأة شيئاً فشيئاً ، حتى صار العرف يقضي بأن تستقر النساء الشريفات في البيوت .

العائلة

وكان أهل الطبقة الوسطى يكتفون ، على العادة، ولضرورات مالية بزوجة واحدة ، ولكن تعدد الزوجات كان شائعاً بين الكبراء. وشاعت عادة تهيئة الخصيان « جمع الخصي » ويسمونهم الخدم أيضاً ، لخدمة الحرم في البيوت ، ولما كان الاسلام يحرم الخصاء ترك المسلمون ذلك لليهود والنصارى . وعلى رغم هذه القيود ظهرت جماعة من النساء وقمن بدور مهم كالخيزران أم الرشيد ، وزبيدة زوجه ، والسيدة شغب أم المقتدر .

الدور

وكانت الدور مسورة ذات ستائر لمنع الاشراف عليها ، ويؤدي مدخلها في الغالب الى دهليز ينتهي بصحن الدار ،

وتحيط به البيوت والحجر • وقد يكون في الصحن حديقة فيها فوارة (شذروان) ، وتعلق الستائر والبسط على الحيطان ويتأنق الأغنياء فيها • وكان أهل بغداد ينامون في الصيف على السطوح ليلاً ، وفي السراديب نهاراً ، كما يفعل أكثرهم في هذا الزمان • وقد يستعيض أهل الترف بنصب بيوت (الخيش) وهو نوع من النسيج الثخين كالجنفاص ، يبللونه بالماء حتى يبرد هواء الدار أو القصر • ويستعملون مراوح تشـبه أشرعة السفن ، تعلق في سقوف البيوت ، ويشد بها حبل لتحريكها باليد ، وترش بالماء في الغالب ، وأحياناً بماء الورد •

وكان لأكثر الدور ببغداد رواشن وأجنحة ، في سـطح الطبقة الأولى ، قلية الارتفاع ، فكانت تصـدم الراكب أن لم ينتبه لها • ولا تخلو الدور من حمامات ومجار تحت الأرض ، وكان الناس يضعون على شبابيكهم الزجاج المختلف الألوان •

واهتم الأغنياء ببناء القصور الفخمة ، وكانت تبلط أحياناً بالرخام ، وتؤزر بالجص أو الجبس أو الرخام المزخرف ، وتزين الجدران بالفسيفساء ، وتسوه السقوف بماء الذهب ، وقد ذكر أن ابن الفرات أحد وزراء المقتدر أنفق ٣٠٠،٠٠٠ دينار على اصلاح داره فقط •

قصور الخلافة

وكانت دار الخلافة غاية في الروعة والجمال• تشتمل على قصور ودور وبساتين ، وساباطات مظللة بالأشـجار وقباب وأروقة ، وقد زاد في جمالها البرك والأنهار الجارية ، وكان في احدى هذه الدور بركة رصاص حولها نهر رصاص ، وتشغل

هذه القصور والدور جزءاً كبيراً من شرقي بغداد ، حتى كانت كأنها مدينة قائمة بذاتها • ومن روائع هذه القصور دار الشجرة مضافة الى شجرة من الفضة في وسطها ، وزنها خمسمائة ألف درهم ، وهي تقوم في وسط بركة مدورة صافية الماء ، ولهـا ثمانية عشر غصناً ، ولكل غصن شاخات كثيرة ، عليها الطيور والعصافير من الذهب والفضـة ، تغرد عنـد هبوب الريح ، وللشجرة ورق مختلف الألوان تحركه الريح كمـا تحرك ورق الشجر •

تأنق الأغنياء في الطعام

ومن مظاهر ترفهم افتنانهم في صنع الأطعمة وألوانها ، واستعمال أنواع التوابل والمشهيات فيها ، وكانت الأطعمـة توضع مرة واحدة على المائدة ، ثم صاروا يضعونها بالموالاة على وجبات • وصف أحد المؤرخين وليمة لابن الفرات وذكر أن الضيوف أخذوا أمكنتهم لدى المائدة ، ثم وضع في وسط المائدة طبق فيه أنواع الفاكهة ، وقدم الى كل واحد منديل وطبق فيه فاكهة مع سكين لقطعها ، وطست زجاج لطرح القشور والثفل فيها • وبعد أن فرغوا من الفاكهـة رفعت الأطباق ، وقدمت الطسوت والأباريق ليغسلوا أيديهم ، ثم بديء بتقديم الطعام فأخذوا يأكلون ، فما زالوا على ذلك ، وألوان الطعام توضـع وترفع أكثر من ساعتين ، حتى نهضوا الى مجلس ثان للغسل ، حيث كان الخدم وقوفاً ، على أيديهم المناديل الحرير ، وقناني ماء الورد فرشوه على أيدي الضيوف ووجوههم بعد الغسل •

طعام العامة

ولكن الناس لم يكونوا جميعاً بهذا الترف • فكان طعام الذين



من الطبقة الوسطى ذا ثلاث وجبات ، آخرها الحلوى ، وكانوا في الولائم يستمعون بعد الطعام الى شيء من الغناء . وطعام السواد الأعظم يتكون من الحنطة والشعير ، وما يصنع منها كالهريسة ، ومن السمك واللحم ، وأحياناً من الرز ، ثم التمر . أما البدو فكانت معيشتهم صعبة كما هو عادتهم وشأنهم ، وطعامهم الخبز واللبن والتمر وأحياناً اللحم .

الآداب الاجتماعية في الطعام واللباس

ومن آدابهم الاجتماعية تصغير اللقمة في الأكل ، ولا يستحسن لطع الأصابع ولا تبديل المحل لدى المائدة ، ولا يستحسن الاكثار من الكلام ، ولا من الضحك عند الأكل . وقد تأنق المترفون في ملابسهم ، فاتخذوها من الحرير الخالص أو الموشى بخيوط الذهب والفضة . ولبسوا الفراء في الشتاء . وكانت لهم قواعد منظمة للباس ، فلا يلبسون الثياب المصبغة مثلاً الا في مجالس الشراب الخاصة . ولا يجيزون لبس الثياب الدنسة مع المغسولة ، ولا الملابس المخيطة من نوعين من القماش . وللنساء لبس الملابس الحرير المختلفة الألوان ، والبراقع السود ، ولكن لا تستحسن لهن كل الألوان بل يترك قسم منها للمغنيات والجواري . وكان الرجال والنساء يلبسون الجوارب من الحرير والمرعز .

الحمامات

واعتنى الناس بالحمامات ، فكان في جانبي بغداد ، في النصف الأول من القرن الرابع الهجري عشرة آلاف حمام الا أن المثرين كانت لهم حمامات خاصة . وكانوا يقتنون الحمير الحساوية والخيل والبراذين والبغال لركوبهم ، وكان لهم قوارب على دجلة . ويذكر الخطيب البغدادي وغيره أنه كان ببغداد نحو من ٣٠ ألف زورق .

الملاهي والأعياد

ومن الملاهي لعب الشطرنج . وقد أولع الناس بسباق الحمام ، وبالمهارشة بين الكباش والديوك والكلاب . وأكثر رياضة الكبراء كانت اللعب بالصوالجة ، وكان للخلفاء ميادين خاصة بها في قصورهم . وعنوا كل العناية بسباق الخيل ، ولهم في ذلك حلبات مشهورة في بغداد وسامراء خاصة . وكان للصيد أهمية كبيرة ، وانتشرت في القرن الرابع الهجري المصارعة والسعي ومسابقات السباحة . وأكبر اعيادهم وأهمها عيد الفطر والأضحى ، وفيهما كانت تنصب الموائد للناس في دار الخلافة ، وهما العيدان الوحيدان اللذان يحتفل بهما بالأبهة الاسلامية احتفالاً رسمياً . وكان أهل بغداد يشاركون في الأعياد النصرانية ، فيشهدونها عند الديارات الجميلة تحف بها البساتين في ضواحي بغداد ، وكانوا يحتفلون بعيد السذق وهو من أعياد المجوس ، ويشعلون فيه النيران ، وكان عيد النوروز والمهرجان من الأعياد الكبيرة يتهادى فيهما الناس على اختلاف طبقاتهم .

وكانت حفلات الختان والزواج من أهم الحفلات العائلية ، فكان العامة يحاولون في هذه المناسبات ، أن يظهروا من الغنى بأكثر مما عندهم ، فيستأجرون أحياناً الزينة والآلات والفرش. وفي هذا المجتمع الصاخب ظهر كثير من الناس قاوموا الترف ، واعتزلوا المجتمع للعبادة ، مكتفين بما يقيم البدن . وكان للعامة عقائد ساذجة فهم يميلون للأساطير ولسماع الغرائب ، وكذلك كانوا عرضة لقبول مختلف المبادىء والدعايات ، وذوي استعداد لاتباع كل خارج .

عقائد العامة

بقي علينا أن نلقي لمحة على تأليف المجتمع .

تاليف المجتمع

كان الدين من أسس التقسيم الاجتماعي ، فكان في المجتمع المسلمون من عرب وغيرهم من جهة ، وهم جميعاً اصحاب الدولة دون تمييز عنصري ، ثم غير المسلمين أي أهل الذمة . وكانت معاملة أهل الذمة في العصر العباسي الأول حسنة ، فلهم حريتهم الدينية ولهم قوانينهم الخاصة ، وكانوا يحتكمون الى رؤسائهم الروحانيين الذين يمثلونهم عند الحكومة ، وأهمهم في العراق اليهود والنصارى . فاليهود كانوا أول الأمر أصحاب حرف يدوية ، كالدباغة والصياغة ثم برعوا في التجارة والصيرفة خلال القرن الثالث الهجري ، حتى كان أكبر الصيارفة منهم . أما النصارى فقد حكوا دوراً كبيراً في الترجمة ، الى جانب المسلمين وكان منهم الأطباء المشهورون ودخلوا في الوظائف الحكومية ، وخالطوا المسلمين ، وتخلقوا بأخلاقهم . وهكذا كان وضع أهل الذمة أول الأمر ، ولكن الأحوال تبدلت عند ضعف الخلافة اذ أخذ الخلفاء يقيدون أهل الذمة تقرباً الى العامة بذلك . وكان هذا التقييد يشمل تعيين لباسهم ، وابعادهم عن الوظائف ، وقد بدأ بذلك الخليفة هارون الرشيد ثم المتوكل كما ذكرنا ، ولكن هذه القيود كانت تهمل في أكثر الأحيان ، كما أهملت في الدولة الأموية بعد عمر بن عبدالعزيز .

أهل الذمة

المسلمون

ولم يكن المسلمون طبقة واحدة بل كانوا أول الأمر يتمايزون على أساس الشرف والنسب ، ثم صار للثروة دخل كبير ، وأصبح للغنى أثر فعال في قياس منزلة الشخص الاجتماعية ، وكان لتسلط العناصر الأعجمية ، من بويهيين وترك أثر في الاخلال بالتوازن الاجتماعي . وفي اضطراب المقاييس الاجتماعية ، فلقد كان التحكم الأجنبي مصدر شقاء وانحطاط لأهل البلاد عامة .

وكان من أثر الفتن والحروب والعوارض الطبيعية أن اندثرت بدائع العباسيين العمارية في بغداد ، ولم يبق منها الا بضعة مبان كالقصر العباسي والمستنصرية ، وفي سامراء الا أطلال .

فن البناء

والظاهر أن فن البناء البلدي من عراقي قديم وفارسي حديث أثر فيما ورثه العباسيون ، من تقاليد البناء الأموية القديمة . فالشكل الدائري لبغداد يشبه العواصم القديمة في العراق كالحضر وفي غربي ايران ، وشكل الملوية وثيق الصلة بالزيقورات البابلية . وقد اتضح أثر البناء الحيري في أبنية المتوكل ، وهو بناء يتكون من مجلس وحجرتين عن يمينه وشماله يقال لهما الكمان : أحدهما للثياب والآخر للشراب ، فاما المجلس فيدعى الصدر .

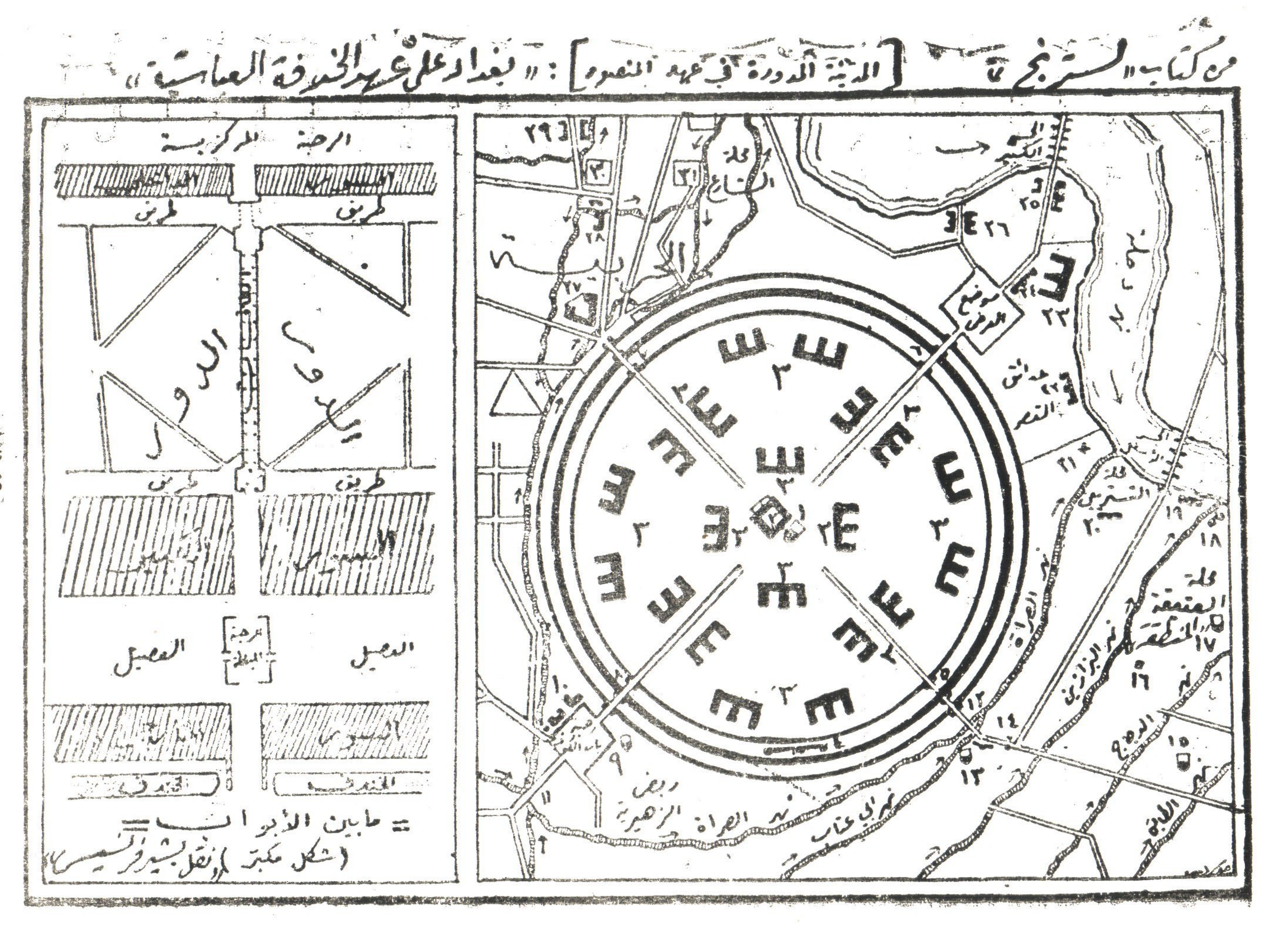
ويكفي هنا وصف بناء العاصمتين مدينة السلام وسامراء ، لتكوين صورة للبناء العباسي .

مدينة السلام « بغداد »

بنيت مدينة السلام مدورة حصينة أشبه بالحصون العظيمة : حفر حولها خندق عميق ، يليه من المدينة سوران ثانيهما كبير عريض بينهما فصيل خال من الناس ، أعد لسكنى الجيش ، وخلف السور الثاني بيوت الناس • وأقيم حول مركز المدينة سور ثالث ، وهو سور صغير كان يحيط بجامع المنصور ، وبقصره المعروف بقصر الذهب ، وبالدواوين والمخازن • وكان في كل سور أربعة أبواب متقابلة • وأبواب السور الأول هي باب خراسان ، في الشمال الشرقي • وباب البصرة في الجنوب الشرقي • وباب الكوفة في الجنوب الغربي • وباب الشام في الشمال المغربي • وكان الداخل من أحد هذه الأبواب الى جامع المنصور يمر بخمسة أبواب ، بابين في السور الأول : باب في أول مدخله وآخر في آخره ، فان عرض هذا السور كان ٧٥ قدماً ، وبابين في السور الثاني كذلك فان عرضه ١٠٥ أقدام ، والباب الخامس في مدخل السور الثالث ، فيكون مجموع أبواب المدينة عشرين باباً • ومن هذه الأبواب خمسة ، وهي الكبرى نقلها المنصور من مدينة واسط ، فوضع أربعة منها ، على مداخل سور بغداد الكبير (أي السور الثاني) ، ووضع الباب الخامس على باب قصره في الرحبة المركزية • وذكر أنه كان لا يستطيع أن يغلق الباب الواحد ، من هذه الأبواب ، ولا يفتحه الا جماعة من الرجال ، وذلك لجليل مقداره وعظم ثقله ، وكانت الأبواب شاهقة بحيث كان الفارس يدخل بالعلم ، والرامح بالرمح الطويل ، من غير أن يميلاهما • وأما الأبواب الأخرى فقد جيء به من جهات مختلفة • وكان اذا دخل الداخل المدينة المدورة يمر أولا ، على قنطرة فوق

الخندق ، وقد ملىء ماءاً من نهر كرخايا ، وبعد الخندق رصيف أي مسناة بنيت جوانبهـا بالآجر واخلاط النوزة تدور حول المدينة ، ويقوم السور الأول على حافة هذا الخندق ومسناته ، وكان على هذا السور أبراج كبيرة ، وعلى كل باب قبة كبيرة ، واذا دخل الداخل من الباب الأول مر بدهليز وأفضى الى الباب الثاني ، الذي في آخر الدهليز الأول ، ومنه الى رحبة مبلطة تقع بين السورين الأول والثاني ، فاذا دخل الباب الثالث في أول السـور الكبير (الثاني) مر بدهليز وأفضى الى الباب الرابع ، أما السور الكبير فكان سوراً متيناً مبنياً من الآجر ، وهو أعلى من السور الأول ، وعليه أبراج كبيرة وصغيرة ، وفوق كل باب من أبواب السور الكبير غرفة ، تشرف على المدينة يجلس فيهـا المنصـور ، وكان يكثر الجلوس فوق باب خراسان . وكانت القبب خضراً من الخارج مزخرفة بنقوش ذهبية من الداخل . وبين السور الكبير والثالث فصيل كبير ، أكبر من الفصيل الذي بين السورين الأول والثاني ، وقد أعد لسكنى الناس ، وفيه الشوارع والدروب والسكك . فاذا دخل الداخل من باب السور الكبير وأجتاز الباب الواقع في آخره فانه يصل الى رحبة مربعة ومنها الى طريق ، بنيت على جوانبه الطاقات وعددها ٥٣ طاقاً وهي معقودة بالآجر والجص ، ولها كوي (فتحات) تدخل منها أشعة الشمس . وكانت أسواق المدينة أول الأمر في هذه الطاقات ثم حولت الى ربض الكرخ ، وفي نهاية هذه الطاقات والأروقة تأتي رحبة تجاه الطريق التي في السور الصغير . وعلى جانبي هذه الطاقات ، بين السور الثاني والثالث ، بنيت دور الناس ، وبنى الخليفة سجنه المعروف بالمطبق في هذا الفصيل ، بين طريقي باب البصرة وباب الكوفة ، وقد بقى هذا

من كتاب المستر لسترنج « بغداد على عهد الخلافة العباسية » : [المدينة المدورة في عهد المنصور]



دليل خارطة مدينة المنصور وما حولها

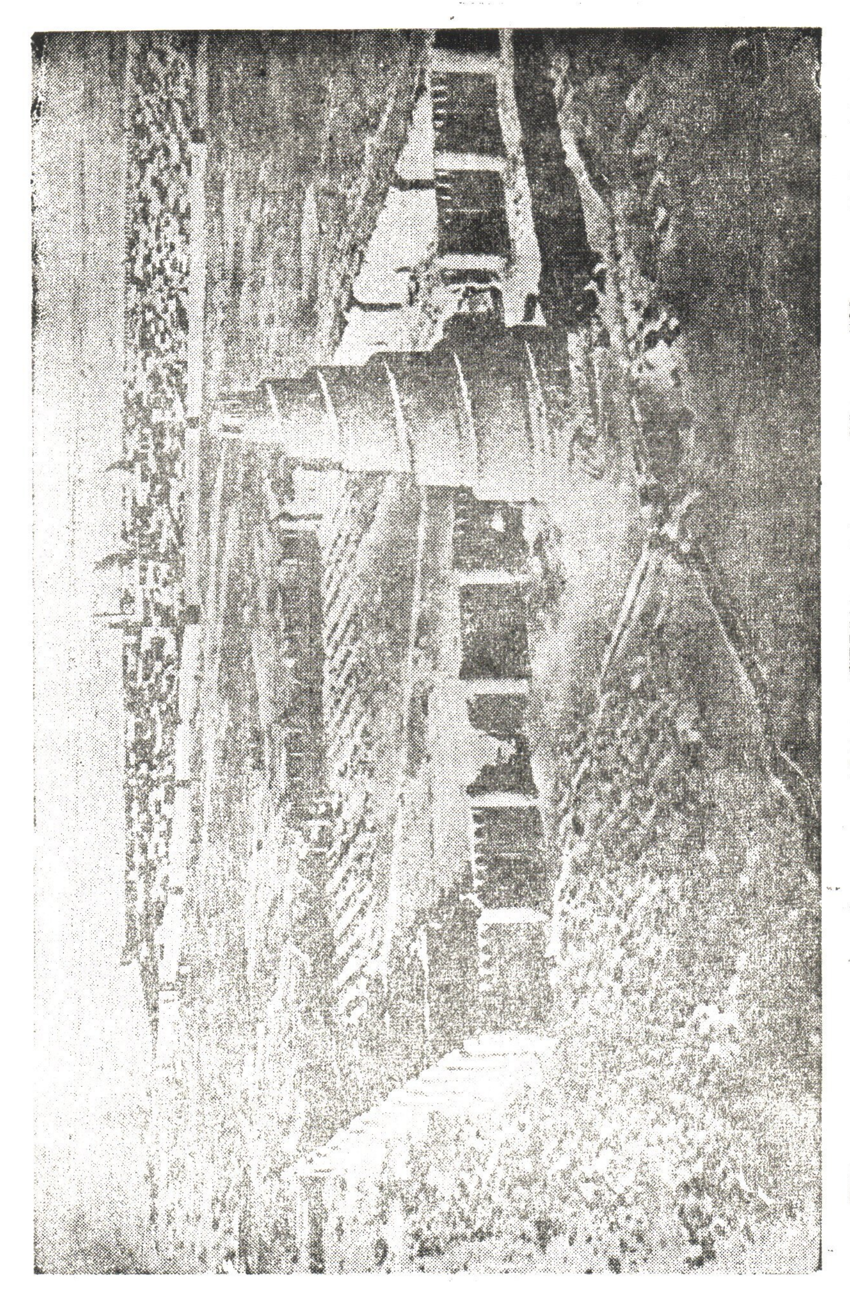
١ - جامع المنصور
٢ - قصر الذهب والمجلسان المواجهان لباب الشام
٣ - دواوين الدولة : بيت المال ، خزانة السلاح ، ديوان الرسائل ، ديوان الخراج ، مطبخ العامة ، ديوان الخاتم ، منازل اولاد الخليفة الاصاغر
٤ - الحبس المعروف بالمطبق
٥ - باب البصرة (غربي محلة الجعيفر)
٦ - باب خراسان (شمالي المنطقة أي المنطكة الحالية)
٧ - باب الشام
٨ - باب الكوفة
٩ - مسجد المسيب
١٠ - دار حراس الباب • ديوان الصدقة
١١ - الاصطبل وخان النجائب
١٢ - القنطرة الجديدة
١٣ - دار وضاح ومسجده
١٤ - طاق الحراني
١٥ - جامع محلة الشرقية
١٦ - قبر معروف الكرخي
١٧ - مسجد العتيقة ومشهد علي المعروف بمشهد المنطقة أي المنطكة الحالية
١٨ - دار الجوز
١٩ - دار حميد بن عبدالحميد وباب الشعير
٢٠ - قصر الوزير عضدالدين بن رئيس الرؤساء
٢١ - الدير العتيق عند قرن نهر الصراة
٢٢ - القرار : قصر زبيدة
٢٣ - قصر الخلد
٢٤ - اصطبلات الخليفة
٢٥ - دار صناعة الجسر ومجلس الشرطة والسجن الوقتي
٢٦ - قصر الأمير سليمان والأمير صالح
٢٧ - حبس باب الشام
٢٨ - دار سعيد الخطيب وكتاب اليتامى (المدرسة الأولية)
٢٩ - دكان الأبناء (أبناء الفرس المولودين بالعراق)
٣٠ - مربعة الفرس
٣١ - مربعة شبيب

السجن من أهم سجون بغداد حتى عهد المتوكل . وكان المنصور لا يأذن لأحد في الدخول الى الرحبة المركزية الا راجلاً . وكان الماء يصل الى قصر المنصور والى أقسام المدينة الأخرى بقنوات من نهر كرخايا ونهر دجيل ، ويجري صيفاً وشتاء في الشوارع والدروب والأرباض .

أما قصر المنصور فكان مربعاً ، تبلغ مساحته ٤٠ر٠٠٠ ياردة مربعة ، وكان في وسطه قبة عظيمـــة خضراء اللون ، ارتفاعها ١٢٠ قدما ، وكانت ترى من أطراف بغداد البعيدة ، وسقطت قمتها سنة ٣٢٩ هـ على أثر ريح شديدة وأمطار غزيرة ، حدثت تلك السنة ، وبقيت جدرانهـــا الى سنة ٦٥٣ هـ . وأما الجامع فكانت مساحته نحواً من ١٠ آلاف ياردة مربعة ، بناه المنصور من اللبن والطين ، ثم هدمه الرشيد وأعاد بناءه بالآجر والجص سنة ١٩٢ هـ ، وفي سنة ٢٦٠ هـ وسع هذا الجامع ، ثم في سنة ٢٨٠ هـ أضيف اليه جزء من قصر الذهب ، وجددت المقصورة والمنبر والمحراب ، وظل هذا الجامع قائماً أكثر من ستة قرون . وقد بنى المنصور لنفسه قصرا آخر خارج المدينة عند باب خراسان ، على نهر دجلة ، قرب الجسر ، سماه الخلد . وفي سنة ١٥١ هـ وضع في الضفة الشرقية من النهر أسس الرصافة وجعلها معسكراً لابنه المهدي ، وبنى فيها مسجداً جامعاً واسعاً . ولما قدم المهدي من خراسان عسكر جيشه حول الجامع والقصر . وأقطع قواده قطائع ، بنوا فيها الدور ، وسميت المحلة الجديدة « عسكر المهدي » . ثم توسعت بمرور الزمن ، وصارت أهم محلاتها الشماسية والرصافة والمخرم . وكانت تصلهـــا ببغداد الغربية ٣ جسور : الجسر الأعلى . الجسر الكبير . الجسر الأسفل .

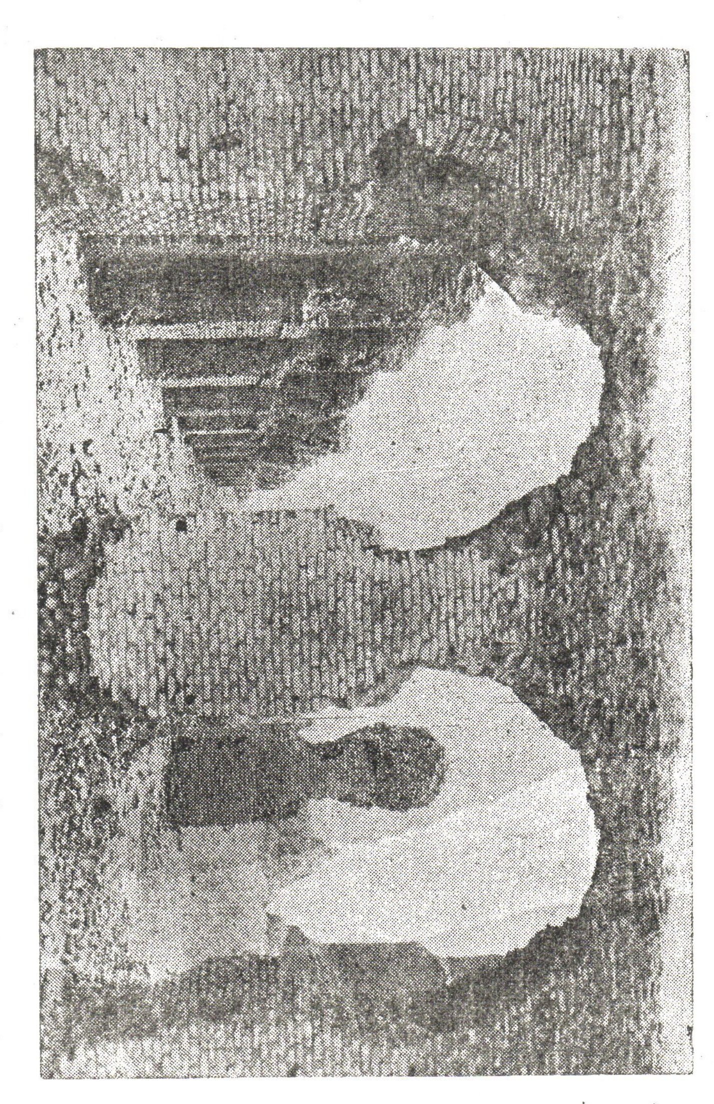
سامراء

ومدينة السلام هي أول مدينة كبيرة عباسية • وأما سامراء فهي المدينة الثانية من مدنهم وهي المدينة الحقيقية بحسب مدلول الكلمة ، بناها المعتصم ، على ضفة دجلة في الجانب الشرقي على حسب خطة اختطها : خط المسجد الجامع أولاً ، واختطت حوله الأسواق وجعلت فيها كل مهنة على حدة ، وجعلت دار الخلافة قريباً من المسجد الجامع ، وبنيت حولها الدواوين ومدت الشوارع ، ثم خطت على أطرافها القطائع للوزراء والقواد والكتاب والناس • وبنيت الخزائن ونظمت الفرض التي ترسو فيها السفن ، وأنشأ المعتصم العمارات المختلفة ، وبنى في كل بستان قصراً فيه المجالس والبرك والميادين ، وبنى الناس المنازل الواسعة • ولما فرغ المعتصم من اختطاط المدينة ، ووضع الأسس للبناء في الجانب الشرقي ، عقد جسراً على دجلة الى الجانب الغربي ، فأنشأ هناك عمارات وبساتين أيضاً ، واستخرج الأنهار من دجلة • وكان كبار الوزراء والقواد يشرفون على بناء القصور ، والنواحي المهمة • وقد أحضر المعتصم المهندسين والبنائين وأهل المهن الآخرين من الحدادين والنجارين وسائر الصناعات ، من مختلف أنحاء الانبراطورية ، فاستقدم من كل بلد من يعمل عملاً أو يعالج مهنة من العمارة والزراعة وهندسة الماء واستنباطه والعلم بمواضعه من الأرض • وجلب من مصر من يعمل القراطيس ، ومن البصرة من يعمل الزجاج والخزف والحصر • ومن الكوفة من يعمل الخزف : والأدهان ، ومن سائر البلدان من أهل كل مهنة وصناعة ، واقطعهم القطائع ، وأنزلهم فيها بعيالهم وجعل بالمدينة سوقاً لأهل هذه المهن • ثم حمل المعتصم اليها الأشجار والغروس المختلفة من أطراف العراق والشام وايران فزكت الثمار وحسنت الفواكه •



منظر عام لسامراء وفيه تظهر الجدران الخارجية للجامع الأول ومئذنته الحلزونية المعروفة بالملوية (من أبنية القرن الثالث للهجرة)

وازدهرت سامراء في مدة وجيزة ازدهاراً عجيبـاً ، وأصبحت عاصمة الانبراطورية العربية أكثر من نصف قرن ، ثم فقدت مركزها بعد ذلك • وتمتد اطلالها اليوم على ضفة دجلة



جانب من اطلال الجامع الذي بناه المتوكل على الله في مدينته المتوكلية
وهو المعروف عند العامة بجامع أبي دلف

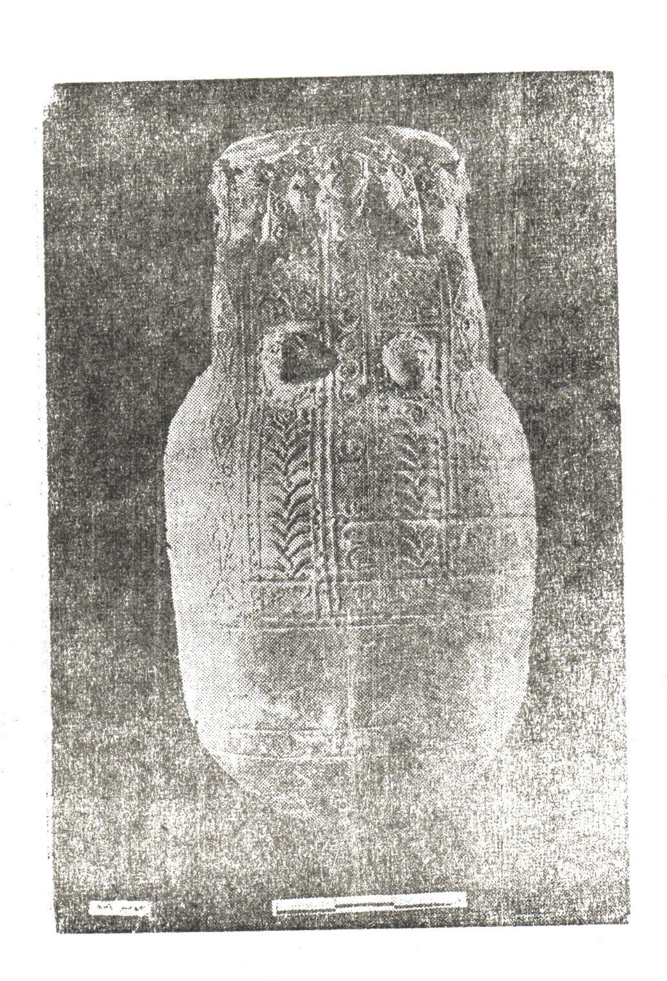
نحواً من ٣٥ كيلو متراً ، وتظهر شوارعها واسعة مستقيمة ، فالشارع الأعظم يبلغ طوله ٧ كيلو مترات باستقامة واحدة ، وعرضه ١٠٠ متر ، وقد بنيت الدور والقصور على جانبيه . أما الشوارع العرضية فكلها مستقيمة ، ويبلغ عرض قسم منها ٥٠



(زخارف من الجص بسامراء (من آثار القرن الثالث)

متراً ، وأما دورها فهي واسعة ، وكثير منها قد سور بأسوار ذات بروج ، وتبلغ قصورها من السعة مقداراً كبيراً .

وقد وصف الكتاب والشعراء قصور سامراء واكثروا فيها القصائد ، وللبحتري القدح المعلى في ذلك ، فقد وصف القصر



حب فخار من صناعة العصر العباسي الاخير

الصبيح بالقرب من البركة المشهورة ، وذكر أن النعام كان يجر فيه الدواليب ، بدل الحيوانات الأُخرى ، وأشار الى أن (الكامل)



اطلال « العشوق » وهو قصر بناه المعتمد على الله بالجانب الغربي من سامراء
« من ابنية القرن الثالث للهجرة »

كانت حيطانه مزججة وقد زين بالرخام وطليت سقوفه بالذهب :

لبست من الذهب الصقيل سقوفه
نوراً يضيء على الظلام الحافل

ووصفه البحتري بأنه غض من بنيان كسرى وقيصر فقال :

أزرى على همم الملوك وغض من
بنيان كسرى في الزمان وقيصر

عال على لحظ العيون كأنما
ينظرن منه الى بياض المشتري

ملأت جوانبه الفضاء وعانقت
شرفاته قطع السحاب الممطر

ومن أشهر الآثار الباقية في سامراء ، المسجد الجامع وهو فسيح ضخم بناه المعتصم ، قيل لما ضاق بالناس هدمه المتوكل وجدده ، ولم يبق منه اليوم الا جدرانه الخارجة ، ومنارته المعروفة بالملوية التي تشبه الزيقورات البابلية ، ومقدار ارتفاعها ٥٢ متراً ، وقد لبست حيطان هذا الجامع بالميناء وجعلت فيه أساطين الرخام وفرش به ، وميضأة عرفت أخيراً بقصعة فرعون •

ودار الخليفة ، وفيها أواوين لا تزال قائمة وسراديب كبيرة ، ومبان مختلفة ، وجامع أبي دلف وهو الذي بناه المتوكل ويشبه المسجد الأول ، ولا تزال أكثر أقسامه شاخصة ، وله ملوية صغيرة • وهناك قصور أخرى كالمنقور في الجانب الشرقي ، والمعشوق ويعرف عند العامة بالعاشق في الجانب الغربي ، وأطلال أخرى كثيرة •

اسئلة عن الدولة العربية

في العصر العباسي

١ ـ ما الدعوة العباسية ، ومن أركانها ، وما الأطوار التي مرت بها ، وما العوامل التي ساعدتها على النجاح ؟

٢ ـ من القادة والولاة والخلفاء والعظماء ، الذين يعدون مؤسسي الدولة العباسية ، وموطدي أركانها . وما الأعمال التي قام بها كل واحد منهم ؟

٣ ـ اذكر بصورة رؤوس بحوث أهم الأطوار التي مرت بها الدولة العباسية . واذكر أيضاً بايجاز ما امتاز به كل دور من هذه الأدوار ؟

٤ ـ كيف اختلف نظام الحكم في العصر العباسي عنه في العصر الأموي ؟

٥ ـ ما الأعمال والاصلاحات المهمة التي تمت على عهد كل من الخلفاء الآتية اسماؤهم ؟ (اذكر ذلك بصورة رؤوس بحوث فقط) :
أبي جعفر المنصور ، الرشيد ، المأمون ، المعتصم .

٦ ـ بماذا تميز الخلفاء الآتية اسماؤهم (اذكر ذلك بصورة رؤوس بحوث فقط)
المعتصم . المتوكل . المعتضد . المسترشد . الناصر لدين الله .

٧ ـ كيف اختلف التحزب السياسي للأحزاب ، والهيئات المختلفة في الدولة العباسية عنه في الدولة الأموية ؟

٨ ـ ما مظاهر الحضارة العباسية ؟ تكلم على أهمها بايجاز .

٩ ـ ارسم صورة واضحة للطبقات المختلفة التي كانت تكون المجتمع العباسي .

١٠ ـ ما أسباب ضعف الدولة العباسية ؟ اشرحها بتفصيل ، معززاً ذلك بالأمثلة .

١١ ـ عرف من يأتي ذكرهم وما يأتي ذكره بايجاز :ـ

(١) النقباء (٢) الكيسانية (٣) نصر بن سيار (٤) مرو (٥) طاهر بن الحسين (٦) الحميمة (٧) ١٤٥ هـ (٨) ٦٥٦ هـ (٩) الكسائي (١٠) أبو يوسف القاضي (١١) الأصمعي (١٢) بابك الخرمي (١٣) عمورية (١٤) القرامطة (١٥) الأغالبة (١٦) الأفشين (١٧) ثغور الجزيرة (١٨) الطولونيون (١٩) المستنصرية (٢٠) الناصر لدين الله (٢١) الكندي (٢٢) باب خراسان (٢٣) المطبق .

اسئلة عن الدولة العباسية

أجب بـ « صحيح » أو « خطأ » عما يأتي :ـ

١ ـ بنيت بغداد في عهد هارون الرشيد ، يؤيد ذلك اقتران اسمها باسمه ، وباسم كتاب الف ليلة وليلة .

٢ ـ يعد محمد بن علي العباسي المنظم الأول للدعوة العباسية .

٣ ـ اختيرت العراق وخراسان مركزين للدعوة العباسية لأنهما من أقوى المراكز والمعاقل الأموية .

٤ ـ كان أبو سلمة الخلال آخر وزير للأمويين في العراق .

٥ ـ كان نصر بن سيار من جملة من نبه الأمويين الى الأخطار المحدقة بهم .

٦ ـ لقد حل النزاع بين العلويين والعباسيين محل النزاع بين هاشم وأمية .

٧ ـ لقد تميز الخلفاء العباسيون بالديمقراطية ، بالعكس من الخلفاء الأمويين الذين تميزوا بالارستقراطية والاستبداد .

٨ ـ ان من عوامل تعزيز العربية انتقال عاصمة الدولة العربية من دمشق الى بغداد .

٩ ـ ان القادة الذين اعتمد عليهم العباسيون في محاربة الأمويين وتأسيس ملكهم كانوا في الغالب عرباً .

١٠ ـ كان الطابع الاسلامي في العهد الأموي أقوى منه في العهد العباسي .

١١ ـ ان (١٣٢ هـ) هو تاريخ بناء بغداد لا تاريخ تأسيس الدولة العباسية .

١٢ ـ نعني بالعصر الذهبي العباسي ازدهار النظامية والمستنصرية في بغداد .

١٣ ـ كان التناحر المذهبي والانقسام الطائفي مستفحلين في العهد السلجوقي أكثر منهما في العهد البويهي .

١٤ ـ ان أهم سبب للفتك بالبرامكة هو منافستهم للرعية في الحكم والسلطان .

١٥ ـ كانت سياسة المتوكل تركية مثل أبيه المعتصم .

١٦ ـ أطلق لقب السفاح على عبدالله بن علي عم أبي العباس السفاح لكثرة سفكه لدماء الأمويين ولكن لقب أبي العباس السفاح يعني الكرم .

١٧ ـ لقد نشأت الدويلات الصغيرة في العهد العباسي للحاجة الى نوع من الحكم غير مركزي .

١٨ ـ يمكن عد العهد العباسي في أواخر القرن الثالث الهجري والقرن الرابع الهجري من العهود التي ازدهرت فيها الحضارة العباسية مع ضعف سلطانها السياسي .

١٩ ـ ظهر نشاط « اخوان الصفا » في البحث ونشر التأليف في عهد لم تكن فيه الحرية الفكرية واسعة .

٢٠ ـ من آثار العصر السلجوقي المدرسة النظامية التي بناها نظام الملك .

الباب السادس

الفصل الأول

الدولة الأموية في الأندلس

تمهيـــــد

الأندلس ولاية أموية

تحدثنا في خلافة الوليد الأول عن فتح اسبانية التي أطلق العرب عليها اسم الأندلس ، فأصبحت جزءاً من الانبراطورية العربية ، يحكم فيه ولاة تابعون اسمياً لولاة المغرب ، ومقرهم القيروان ، ولكنهم كانوا في الحقيقة شبه مستقلين . وقد عين ولاة على الأندلس من دمشق نفسها . وكان عبدالعزيز بن موسى بن نصير أول أمير للأندلس ، فجعل مقره أشبيلية وحكم بلين وحزم وتسامح وهدأ البلاد .

عبدالعزيز ابن موسى ابن نصير

السمح ابن مالك الخولاني

ومن الولاة المشهورين « السمح بن مالك الخولاني » ، الذي عبر جبال البيرنة سنة ١٠٢ هـ = ٧٢٠ م واحتل « ناربون » في جنوبي فرنسة ، وهو الذي جعل قرطبة عاصمة ، فصارت مركز الأمويين في الأندلس وجدد قنطرة قرطبة الشهيرة على الوادي الكبير ، ومسح الأراضي الزراعية وسن نظاماً حسناً للضرائب .

عبدالرحمن الغافقي

ثم عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي الذي عبر البيرنة أيضاً واحتل « بوردو » في فرنسة ، واصطدم هو والفرنج بين مدينة

طور وبواتيه ، وهناك استشهد في موقعة بلاط الشهداء • وهذه المعركة لم تكن من الأهمية كما يصورها به الفرنج ، ولم تتوقف غزوات العرب فقد استمروا على مهاجمة جنوبي فرنسة ، حتى منتصف القرن الثامن الميلادي •

من نتائج فتح الأندلس

لقد قضى العرب على الحكم الفوضى في الأندلس ، ونظموا أمور البلاد ، وعاملوا السكان النصارى بتسامح ، وحفظوا عليهم املاكهم ، وضمنوا لهم حريتهم الدينية ، في مقابل دفع الجزية • وأحدث العرب ثورة اجتماعية في البلاد ، اذ حرروا طبقة العبيد الفقيرة ، وأنقذوا اليهود من الظلم الاجتماعي ، والغوا كثيراً من التقاليد الرثة ، التي ناء الشعب بها •

عوامل ضعف عند الفاتحين

ولكن بذور الضعف كانت تعمل عملها • فسرعان ما حدث الخلاف بين العرب والبربر ، لأن العرب جنوا ثمرات الفتح ، بأن تولوا المناصب المهمة ، وأخذوا أخصب الأرضين ، ولم يتركوا للبربر الا الجبال والأراضي البعيدة ، ولم يساووهم بأنفسهم مساواة اجتماعية ، فكانت هذه نقطة ضعف خطرة • وكانت العصبية القبلية قائمة فاستعرت بين المضرية واليمانية ، بعد ولاية السمح ، كل يريد السيادة ، وقد اشتد أثرها في المدة الأخيرة من حكم الأمويين لانصراف بني أمية عنهم • ولاحظت القبائل خطر استمرار الفتنة فاتفقت على أن تتناوب الامارة لكل سنة •

يوسف بن عبدالرحمن الفهري

فاختاروا يوسف بن عبدالرحمن الفهري أميراً ، يسنده الكلابي زعيم المضرية • فلما انتهت السنة نقض الاتفاق فحنق اليمانية ، وباتوا يترقبون الفرصة للوثوب به ، فانتهزوها عند مجيء عبدالرحمن الداخل ، الذي أحيا مجد الأمويين في الأندلس ، بعد أن نكبهم العباسيون في الشرق • وتعد عودة الأمويين الى الحكم في الأندلس من بدائع احداث التاريخ في العصور

الوسطى • فقد كونوا في الأندلس ، وحدة سياسية مستقلة عن سائر بلاد الاسلام ، وطبعوا البلاد بالطابع العربي الشامي ، فوق مسحتها الاجتماعية الخاصة •

عصور التاريخ الأموي في الاندلس

وينقسم تاريخ الأمويين في الأندلس الى ثلاثة أعصر :

١ ـ عصر الامارة في قرطبة : ويبدأ بامارة عبدالرحمن الداخل وينتهي باعلان عبدالرحمن الثالث (الناصر) خلافته سنة ٣١٧ هـ = ٩٢٩ م وفيه وطد الأمويون أقدامهم وحققوا وحدة البلاد •

٢ ـ عصر الخلافة : ويبدأ بخلافة الناصر وينتهي بخلافة هشام الثاني (المؤيد) سنة ٣٩٩ هـ = ١٠٠٨ م ، وهو عصر العظمة والازدهار الحضاري في البلاد •

٣ ـ عصر الانحلال والتجزؤ : وفيه ضعف الأمويون ، ثم تجزأت البلاد الى دويلات متناحرة ، تدعى دول الطوائف ، وقوي الأسبان النصارى في الشمال ، ثم اتحدوا وقضوا على الدولة الأموية في الأندلس سنة ٨٩٨ هـ = ١٤٩٢ م ، وقد بقيت منهم بقية دامت حتى سنة ١٠١٩ هـ = ١٦١٠ م ، ولنتحدث الآن عن هذه الادوار :

عصر الامارة في الأندلس

عبدالرحمن الداخل (١٣٨ هـ - ١٧٢ هـ/٧٥٥ - ٧٨٨ م)

عبدالرحمن قبل دخوله الأندلس

هو ابن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان ، نشأ في كنف جده هشام بعد أن توفي أبوه وعمره خمس سنوات • ثم سقطت الدولة الأموية ، وطلب العباسيون بني أمية في كل مكان ونكلوا بهم ، وأفلت منهم عبدالرحمن وهو فتى ، ففر الى فلسطين ومنها الى مصر يصحبه مولاه بدر ، ودخل القيروان ،

ولـكنه خاف من أميرها ، فقد كان موالياً للعباسيين فهرب الى المغرب الأقصى ، وأخيراً استقر عند أخواله البربر قرب سبتة وأكرمته قبائل بربرية كثيرة ورحبت به ، ولقد مال الى السياسة منذ دخل افريقية ، ولـكن طموحه السياسي لم يلق في المغرب أرضاً صالحة فاتجه بنظره نحو الأندلس • كان عبدالرحمن فتى طموحاً ، شديد الذكاء بارعاً في السياسة ، فاستطاع أن يستغل الخصومة القبيلية ويستميل اليمانية ، وأيدته عـدة قبائل من البربر ، وكانت ساخطة سياسة الولاة من قبل • ولم يجـد صعوبة في كسب التأييد من اتباع بني أمية ، وكانوا اخلص الجماعات له •

نجاحه في الأندلس

ولما حانت الفرصة دخل الأندلس سنة ١٣٨ هـ = ٧٥٥ م فلقي من الترحيب أكثر مما كان يتوقع ، لضجر الناس من الحكم الفوضى واستعد لمقاتلة يوسف الفهري ، وبعد اجتماعات ومفاوضات وحروب ظهرت فيها عبقريته انتصر عبدالرحمن على خصمه الفهرى ، ونودي به في قرطبة أميراً في ١٠ ذي الحجة سنة ١٣٨ هـ = ١٥ مايس ٧٥٥ م •

جهوده لتوطيد العرش الأموي في الأندلس

ووصل خبر فوزه الى الشرق ، فتوارد الى بلاد الأندلس عدد كبير من اتباع بني أمية وأنصارهم ، ليساهموا في اعادة دولتهم في الأندلس • ولـكن سرعان ما نشأت اضطرابات سياسية جديدة ، كان عليه أن يخمدها • فقد ثار يوسف الفهري ، وانما أثاره طموحه وطموح جماعة من الزعماء ، وحاول أن يستولي على قرطبة بعد أن التف حوله جمع غفير من الأتباع ، ولـكنه هزم سنة ١٤١ هـ = ٧٥٨ م ، ثم قتل في العام الثاني في

اقليم طليطلة • ولكن الفتن استمرت ، كما كانت الحال أيام الولاة ، ومصدرها طوائف المولدين من الأسبان ، الذين دخلوا الاسلام حديثاً ، ولكنهم لم يرتاحوا لوضعهم ، ثم العرب الذين كانت تعصف بهم العصبية ، والبربر الساخطون على العرب ، زيادة على مناورات العباسيين • وذلك أن المنصور لم يرتح لانفصال الأندلس ، فوجه « العلاء بن مغيث الجذامي » والي القيروان في أسطول الى شاطيء الأندلس ، ليقضي على حركة عبدالرحمن الداخل ، مستعيناً بالثوار والطامعين ، فنزل العلاء بثغر باجة سنة ١٤٦ هـ = ٧٦٣ م ، وايده الفهريون بصورة خاصة ، ولكن عبدالرحمن أسرع اليه ومزق جمعه وقتله ، ثم تخلص من رئيس اليمانية ، لأنه كان يطمع في السلطان ، ثم ضرب البربر الذين ثاروا سنة ١٥٢ هـ = ٧٦٩ م بعد أن استمرت ثورتهم عدة سنين • ثم واجهه خطر جديد اذ اتحد جماعة من زعماء العرب الطامحين في شرقي الأندلس ، واستنجدوا بشارلمان ملك الفرنجة ، الذي زعم على أوربة الغربية ، وسعى في طرد العرب من الأندلس ، فعبر شارلمان جبال البيرنة ، في جيش كبير ، وحاصر سرقسطة سنة ١٦٢ هـ = ٧٧٨ م ولكنه اضطر الى رفع الحصار عنها ، لحدوث فتن في بلاده ، ونكبت مؤخرة جيشه في أثناء رجوعه • وتقدم عبدالرحمن فاحتل سرقسطة ، وانتهى الأمر بتشتيت شمل المتآمرين الثائرين •

وهكذا ثبت عبدالرحمن الداخل دعائم ملكه ، وأخمد الفتن ووحد البلاد وتوفي سنة ١٧٢ هـ = ٧٨٨ م بعد أن حكم مدة تزيد على ثلاثة وثلاثين عاماً •

اصلاحاته وسياسته

حاول عبدالرحمن الداخل قمع فوضوية القبائل والأحزاب ، واضعاف نفوذ كلمة الزعماء ، وتوحيد شمل شعبه المتألف من عناصر مختلفة . واهتم بتنظيم جيشه واضعاف العصبية القبلية فيه ، وتعويده الطاعة للرؤساء . فأدخل فيه المماليك ، وعدداً كبيراً من البربر وألف جيشاً نظامياً دائماً ، بلغ نحواً من أربعين ألف جندي . وشيد اسوار قرطبة ليزيد في حصانتها ، واختط ضاحية في شمالها ، سماها الرصافة ، على غرار رصافة جده هشام في الشام ، وجعل حولها حدائق وجناناً غناً . ونظم مملكته تنظيماً ادارياً ، بتقسيمها الى ست كور تتصل بالمركز . وشرع في بناء مسجد قرطبة العظيم ، ليحول أنظار مسلمي الأندلس عن الشرق ، لئلا يتأثروا بدعوة العباسيين . وأسس داراً لضرب النقود في قرطبة ، واهتم بانشاء مواضع الدراسة ، لنشر الثقافة ، واصلح طرق المواصلات .

وهكذا ظهرت عبقرية عبدالرحمن الداخل ، فلا غرابة في أن لقبه المنصور بـ « صقر قريش » فانه فر وحيداً ، فقطع القفار وعبر البحر ، ودخل وحده بلداً غريباً ، وأقام مملكة ، ونظمها في بلد استفحلت فيه الحالة الفوضى . وقبيل وفاته عهد الى ابنه هشام من بعده ، وبذلك ثبت نظام الوراثة في الحكم .

هشام الأول

وكان هشام (١٧٢ - ١٨٠ هـ) = (٧٨٨ - ٧٩٦ م) أميراً نبيلاً فاضلاً تقياً ، يميل للزهد ويهتم بنشر العدل ، فكان يسير في طرقات العاصمة ليلاً ، ليتعرف أحوال الناس ويرقب عماله ، لئلا يظلموا أحداً . ولعله هو الذي ادخل المذهب المالكي في الأندلس ، وقرب الفقهاء حتى صارت لهم الكلمة النافذة .

الحكم الأول

وخلف هشاماً ابنه الحكم الأول (١٨٠ - ٢٠٧ هـ) = (٧٩٦ - ٨٢٢ م)، وكان رجلاً قوي العزم، عالي الهمة، لاحظ تدخل الفقهاء في السياسة وخطورة شأنهم، فأراد وضع حد لتدخلهم، فقاوموه واتهموه وأثاروا العامة عليه، وانضموا الى فريق آخر من الساخطين وهم المولدون، الذين تدفعهم قوميتهم الأسبانية الى الفتنة، فأدى ذلك الى نزاع عنيف بين الحكم والفقهاء والى القيام بسلسلة اجراءات قاسية عليهم .

اختلافه مع الفقهاء

بدأت الفتنة في قرطبة عام ١٩٠ هـ = ٨٠٥ م، ففيه تآمر بالحكم الأول جماعة من الفقهاء يرأسهم يحي بن يحي الليثي، فقيه الأندلس مع جماعة من الرؤساء ليخلعوه من العرش، ولكنه اطلع على مؤامرتهم، فهرب الرؤساء الى طليطلة ونكل الحكم بالباقين بشدة . وفي العام الثاني خرج الى ماردة، لقمع ثورتها، فنجح، وفي ذلك الحين قام الاضطراب في قرطبة، فضرب المحدثين له بقوة . ثم التفت الى طليطلة عاصمة القوط القديمة، وهي مركز سياسي ديني مهم، وكانت دائماً تسعى في الانفصال، فهي أبداً في ثورة . فدبر مكيدة لضربها بأن أرسل عمروساً أحد قواده المخلصين، فخادع أهل طليطلة ودعاهم الى دعوة في قصره، وقد حفر حفرة وغطاها، ثم تردى معظمهم فيها سنة ١٩٢ هـ = ٨٠٧ م وتعرف هذه بوقعة الحفرة . وقد كان ليوم الحفرة . أثر واضح في اخماد صوت الفتنة، عدة سنين، الا أن قوة عزيمة الحكم ظهرت في وقعة « الربض »[1] . فقد وطد الأمير العزم على أن يستأصل جذور

وقعة الحفرة

موقعة الربض

(١) الربض : جمعها الأرباض، وهو ما حول المدينة من بيوت ومساكن . فيقال مثلاً ربض قرطبة، ربض فاس . ربض الكرخ .

الفتنة من العاصمة ، فهدم أسوارها وجمع حوله حرساً من المماليك يسمون الخرس (لجهلهم بالعربية) ، وشدد الخناق على السكان ، فازداد السخط حتى نشبت عام (٢٠٢ هـ = ٨١٧ م) ثورة واسعة النطاق في الضاحية الجنوبية للعاصمة ، حيث كان معظم طلاب الفقه يسكنون • وكان المحرضون من الفقهاء بزعامة يحي بن يحي الليثي أيضاً ، فأثاروا الدهماء ، وهجموا على قصر الأمير ، يطلبون منه معاقبة جنده ، ولكن جند الأمير أحاطوا بهم ونكلوا بهم ، وقرر الحكم أن ينفي سكان ربض قرطبة الثائرين الذين نجوا من المذبحة • فهاجر عشرون ألف بيت ثلثاهم الى مصر ومنهم من هاجر الى اقريطش (جزيرة كريت) ، وذهب الباقون الى فاس ، ثم هدم الربض ومنع الناس من البناء فيه • واهتم الحكم بالأبهة وعزز قوته بالمرتزقة من الجنود ، وأكمل بناء جامع قرطبة الذي بدأ به عبدالرحمن الداخل وجدد قنطرتها •

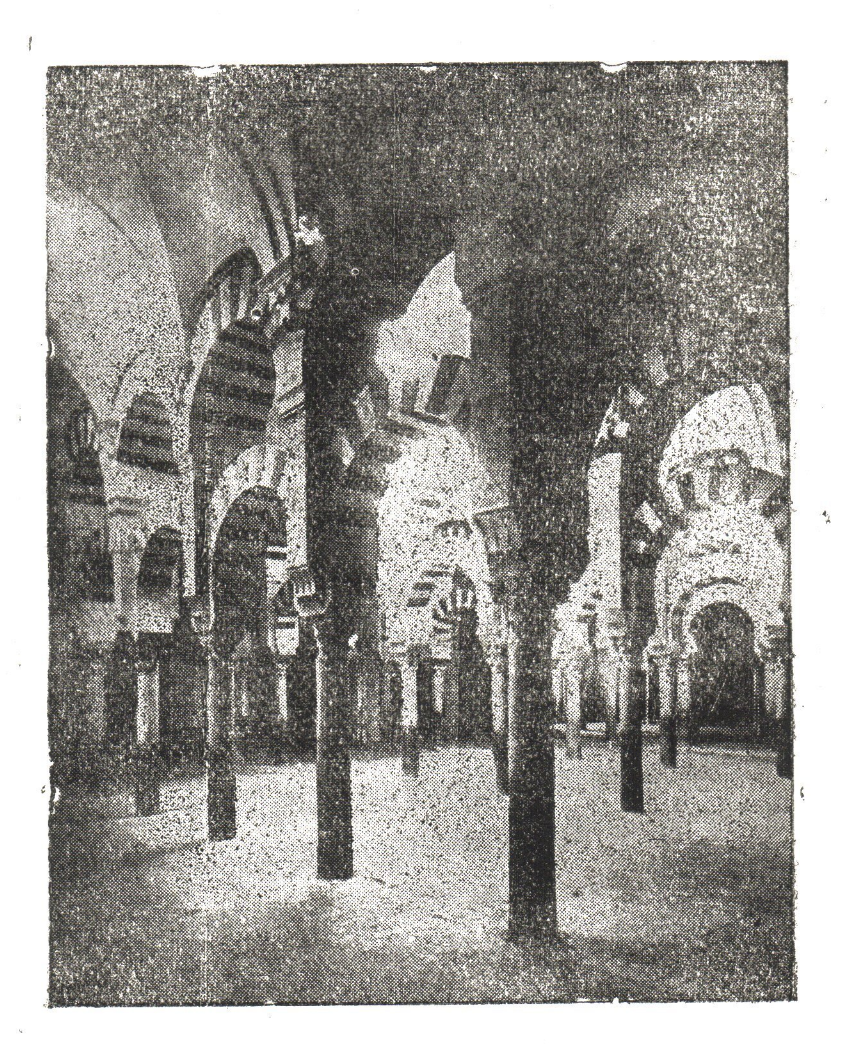
استطاع الحكم بصرامته أن يخمد الفتن الداخلية التي كان المولدون في الأغلب يثيرونها ، يحرضهم الفقهاء • فشغله ذلك عن حماية الحدود الشمالية ، فتقدمت الامارات الأسبانية من هناك نحو الجنوب ، وخسر المسلمون برشلونة سنة (١٨٤ هـ = ٨٠٠ م) •

عبدالرحمن الثاني

ثم جاء عبدالرحمن الثاني (٢٠٨ – ٢٣٨ هـ) = (٨٢٢ – ٨٥٢ م) وكان ضعيفاً فوقع تحت حكم أربعة اشخاص ، أحدهم زرياب المغني الذي قدم من بغداد ، وصار قدوة المجتمع ، فأحدث تبدلاً واضحاً في العادات واللباس والمأكل وفن الغناء ، ولكنه كان بعيداً عن السياسة • أما الثلاثة الآخرون فالفقيه يحي بن

زرياب

يحي الليثي المقدم ذكره ، وكان الأمير عبدالرحمن قد انقذه من الموت ، بعد فتنة الربض وأسند اليه القضاء ، فثبت المذهب المالكي



أروقة المسجد الجامع بقرطبة

في البلاد • ولم يول القضاة الامن هذا المذهب • وحظيته « طروب » الطموح • والخصي نصر • وكان هؤلاء الثلاثة يشيرون على الأمير معظم خططه السياسية وأساليبه الحكمية •

القومية الأسبانية

وكابد عبدالرحمن الثاني بسبب ضعفه ، اشتعال الروح القومية الأسبانية ، بين المستعربين من الأسبان ، الذين بقوا على نصرانيتهم ، مع حنين الى الحرية وعداء للحكم العربي • وكان جماعة من نصارى الأسبان يحرضونهم وخاصة الكاهن (يوجيو) والنبيل (الفارو) • فلما أرادت الحكومة قمع ثورتهم كثر المتطوعون منهم ، للاستشهاد في سبيل دينهم ، وكان ذلك بين سنة ٢٣٦ هـ = ٨٥٠ م وسنة ٢٣٨ هـ = ٨٥٢ م ، وحاول الأمير وضع حد لذلك بعقد مؤتمر كنيسي ، من رجال النصرانية هناك ، فأفتى المؤتمر بوقف حركة الاستشهاد العمياء وأخمدت الحركة بعد ذلك •

هجوم النورمانديين على الأندلس

وعانى عبدالرحمن الثاني ثورات قام بها المولدون « للانفصال فقمع ثورة في ماردة ، واخمد حركة طليطلة الانفصالية ، التي دامت قرابة تسع سنين • وفي عهده هاجم النورمانديون (أي المجوس كما يسميهم المسلمون) سواحل الأندلس الغربية ، ونهبوا وسلبوا ، واستولوا على أشبيلية سنة ٢٣٠ هـ = ٨٤٤ م ، ثم عقد صلح بينهم وبين المسلمين •

محمد الأول

توفي عبدالرحمن الثاني عام ٢٣٨ هـ = ٨٥٢ م وخلفه ابنه محمد الأول (٢٣٨ هـ ـ ٢٥٢ هـ) = (٨٥٢ م ـ ٨٦٦ م) ، وقد كثرت الثورات عليه في عهده ، وخصوصاً ثورات المستعربين ،

ثورة طليطلة

فاضطهد النصارى ، وأخرجهم من الوظائف • وثارت طليطلة المعروفة بنزعتها الانفصالية ، واستنجدت بملك مملكة ليون في الشمال • فأوقع محمد بالثوار ، وصد جيوش ليون عام ٢٤٠ هـ = ٨٥٤ م • واستمرت فتن النصارى المستعربين حتى سنة ٢٤٥ هـ = ٨٥٩ م ، ثم ان حركات العصيان لم تنقطع بل انتشرت يقودها المولدون ، الذين ظهروا في ثياب أبطال ، للقومية الأسبانية ، واخطرها ثورة قامت في جنوب غربي الأندلس ، واستمرت مدة طويلة ، بزعامة نبيل أسباني الأصل مسلم ، يدعى عمر بن حفصون ، وكان يدعو الى التحرر من حكم العرب ، وضم الى نفسه المسلمين والنصارى من الأسبان ، وسرعان ما شملت سيادته البلاد الجبلية بين رندة ومالقة ، وجعل مقره في قلعة (بباشتر) الحصينة وظل ينازع الحكومة المركزية مدة غير قصيرة •

ثورة ابن حفصون

ثم جاء المنذر بن محمد الأول (٢٥٢ ـ ٢٧٥ هـ) = (٨٦٦ ـ ٨٨٨ م) فقضى مدة حكمه في محاربة ابن حفصون فانه كان يتوسع سلطانه باستمرار • فأنزل المنذر بالثوار ضربات قوية وحاصر قلعة بباشتر • ولكن المنية عاجلته • ويظهر أنه سم بتدبير أخيه عبدالله ثم خلفه في الحكم ، وكان حكم عبدالله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) = (٨٨٨ - ٩١٢ م) مرحلة مهمة في اعادة السكينة الى البلاد • وان كانت الفتن مستمرة في عهده ، يذكيها الأسبان والرؤساء من العرب الذين صاروا يطمعون في السيادة • فثورة ابن حفصون في توسع ، والمنازعات في أشبيلية مستمرة بين عائلتين عربيتين ، فلما غلبت أحدهما حالفة ابن حفصون • وزاد نفوذ كلمة الأشراف في جنوب غربي الأندلس ، وتآمروا في عدة مدن وتسلطوا عليها ، وتمكن

المنذر

عبدالله

عبدالله أن يخضع ابن حفصون بطريق المفاوضة ، ولكنه منحه تميزات جعلته شبه مستقل ، ثم أن ابن حفصون عاد الى مناوأة الحكومة ، وساعده نصارى قرطبة ، فوسع سلطانه حتى صار يهدد العاصمة . ولم يبق لعبدالله الا المغامرة فهاجم ابن حفصون سنة ٢٧٨ هـ - ٨٩١ م وهزمه . فساعد هذا النجاح الأمير على تقوية سلطانه فأخضع عدة مدن . ولكن شوكة ابن حفصون بقيت قوية ثم أعلن تنصره أخيراً وكان ذلك في عام ٢٨٦ هـ = ٨٩٩ م فهاج الرأي الاسلامي ، وتسلل عنه حلفاؤه المسلمون من بربر واسبان . واستمر عبدالله يكافح الثوار بحزم الى ان نجح في توطيد سلطانه ، واضعاف أعدائه ومهد السبيل الى نشر السلام في البلاد .

وهكذا مرت البلاد في فترة حالة فوضى نتجتها العصبية القبلية ، والروح القومية الأسبانية ، والتنافس بين العرب والبربر . وذلك مما ساعد على استفحال أمر الأسبان في الشمال حتى كونوا امارات هناك . وقد أدت الفوضوية الى عرقلة التقدم الحضاري والى ركود الحركة الثقافية .

الفصل الثاني
عصر الخلافة الأموية
في الأندلس

عبدالرحمن الثالث

تولى الخلافة بعد عبدالله حفيده عبدالرحمن الثالث (٣٠٠ – ٣٥٠ هـ) = (٩١٢–٩٦١ م) • وكان فتى في الثالثة والعشرين من عمره ، اختاره جده للخلافة لمزاياه ، وقد تمكن بقابليته وحكمه الطويل أن يخمد الثورات ، ويزيل الأخطار الخارجية المحدقة بالبلاد ، وان يسير بمملكته في طريق الحضارة ، حتى كان عصره من أزهى عصور المسلمين في الأندلس وأبهاها •

احوال مساعدة

وجه عبدالرحمن جهوده ، قبل كل شيء ، الى قمع الثورات ، والى ضرب الزعماء من العرب ، وقد ساعدته الأحوال، فالارستقراطية العربية ضعفت قواها ، بالخصومات المستمرة ، والأسبان باخت جذوتهم بوخاً نسبياً ، وتحول الثوار الى عصابات نهب وسلب ، ونفر المولدون من ابن حفصون لتنصره ، كما أومأنا اليه ، ثم ان عبدالرحمن خفض من الضرائب ، فارضى شعبه •

اخضاع الجنوب واخماد ثورة ابن حفصون

بدأ عبدالرحمن باخضاع القسم الجنوبي ، واهتم باخضاع معاقل الارستقراطية العربية حتى عام ٣٠٥ هـ = ٩١٧ م ، وفيه خضعت له أشبيلية وقرمونة ، ثم ضيق على ابن حفصون • فلما مات سنة ٣٠٥ هـ = ٩١٧ م استمر أبناؤه الثلاثة على الحركة ، ولكنهم لم يستطيعوا مقاومة عبدالرحمن طويلاً ، فحاصر

مركزهم (بباشتر) عام ٣١٦ هـ = ٩٢٨ م وفتحه وأخمد الثورة نهائياً • ثم اتجه بقوته الى طليطلة حتى استسلمت عام ٣٢٠ هـ = ٩٣٣ م • ولم يغفل عن مطامع الممالك النصرانية في شمالي أسبانية • ولابد لنا من ان نقول كلمة في نشوء مملكة ليون لتفهم علاقتها بالمسلمين •

نشوء الامارات النصرانية في الشمال

فتح المسلمون اسبانية ، وأخضعوا أهالي مملكة ليون في الشمال ولم يبق منهم الا شرذمة ، أهملها العرب في جبال استورية • ثم توسعت باللاجئين والفارين اليها ، وعلى رأسها (بلايو) ، ثم بدأ هذا يهاجم تخوم المسلمين في جمع من العصاة حتى اجتاحوا كانتبريا • وهي مقاطعة في الشمال • وتوسعت هذه الامارة بسبب الخلاف بين العرب والبربر ، والحرب بينهم (١٣٣ - ١٣٨ هـ) = (٧٥٠ - ٧٥٥ م) ، وهجرة كثير من البربر من شمالي الأندلس الى افريقية • فتقدم الأسبان ، واستولوا على كثير من شمالي أسبانية ، كغاليسيا وكاشتيل ، وجعلوا ليون عاصمة لهم ، وأوصلوا حدود مملكتهم الى نهر الدورو •

نافار وأرغون

ونشأت في الشمال الغربي منها مملكة نصرانية ثانية ، وكانت لا تزال صغيرة ، وهي مملكة نافار وأرغون • وقد ابتدأ ملك ليون بالهجوم على مدن المسلمين واعتدى عليهم ، فتقدم عبدالرحمن بنفسه في حملة عام ٣٠٨ هـ = ٩٢٠ م ، واصطدم هو وقوى النافار وليون وهزمها هزيمة منكرة ، واستولى على عدة حصون ، ولما اعتدى ملك النافار بعد أربع سنين تقدم عبدالرحمن شمالاً ، مستغلاً الفتنة في ليون ، فدمر عاصمة النافار •

تدخل عبدالرحمن الثالث في شؤون افريقية

وكان عبدالرحمن طول هذه الفترة ، يرقب توسع الدولة الفاطمية ، التي أنشأها عبيدالله المهدي ، في المغرب عام ٢٩٧ هـ = ٩٠٩ م لأنه كان يخشى مطامعها ، وتدخلها في شؤون الأندلس ، فلما استعان به أحد الأمراء في مراكش عام ٣٠٦ هـ = ٩١٨ م أنجده ، فاعترف هذا الأمير بسيادة عبدالرحمن . ثم خطا عبدالرحمن خطوة واسعة ، زادت في نفوذ كلمته وسلطته في البلاد ، وقوت مركزها تجاه الفاطميين ، وهي اعلان خلافته سنة ٣١٧ هـ = ٩٢٩ م ، وتلقبه بالناصر لدين الله ، وذلك حين سمع بخلع مؤنس المظفر لسيده الخليفة العباسي المقتدر بالله كما ذكرنا ، وبلغه تجزؤ الدولة العباسية . وكان اسلافه يتسمون بالأمراء وابناء الخلائف .

اتخاذه لقب الخلافة

الناصر والغرب

ثم عاد الى شؤون المغرب ، فاستولى على سبتة عام ٣١٩هـ = ٩٣١ م ، وتمكن أن يضم الى جانبه ، أمراء الدويلات الصغيرة ، الذين كانوا يقاومون الفاطميين ، واستطاع ببعض المحالفات أن يخضع بلاد المغرب الأوسط عدا تاهرت .

الناصر يبسط نفوذه على الامارات النصرانية في الشمال

أما في الشمال فقد انتهت الحرب الأهلية في ليون ، فساعد أميرها الجديد جمهورية طليطلة ، فهاجمه العرب وهزموه . ثم عقد حلف بين النافار وليون وسرقسطة الثائرة على عبدالرحمن ، فسار اليهم سنة ٣٢٦ هـ = ٩٣٧ م وهزمهم ، واخضع سرقسطة واعترفت النافار بسيادته ، وبقيت ليون . وفي هذا الحين حدثت فتنة داخلية خطرة ، أثارها الحسد بين زعماء العرب والصقالبة . وكان الصقالبة من أسرى الحرب والرقيق من شرقي أوربة وايطالية وشمالي الأندلس ، قربهم عبدالرحمن بصورة خاصة واعتمد عليهم وأسند اليهم المناصب الرفيعة ،

قاصداً بذلك الحد من سطوة زعماء العرب • وحنق العرب من ذلك ، فلما أرسل عبدالرحمن حملة قوية ، لضرب ليون سنة ٣٢٨ هـ = ٩٣٩ م ، وأسند القيادة الى نجدة الصقلبي تقهقر الضباط العرب في معركة الخندق المشهورة ، وحلت الكارثة بالجيش الاسلامي ، واتفق أن اشتغلت ليون بحرب أهلية ، فلم تستفد من ظفرها • واستغل عبدالرحمن الحرب الأهليـة في الشمال ، فعقد ملك ليون معه محالفة ، والتزم بدفع الجزية اليه • ولـكن الفتنة في الشمال اضطرته أن يلجأ الى بلاط عبدالرحمن ، ويستنجده ، فأنجده في مقابل نزوله عن عشرة حصون للخليفة عام ٣٤٨ هـ = ٩٥٩ م وهذا مما لم يسبق له مثيل في الحوادث •

الناصر والفاطميون

ولم ينته خطر الفـاطميين ، ففي عام ٣٣٣ هـ = ٩٥٤ م أرسل خليفتهم أسطولاً من صقلية لغزو ثغور الاندلس ، فقابله عبدالرحمن بارسال أسطول من سبعين سفينة ، وهاجم سواحل أفريقية الشمالية وضرب جزءاً منها •

خاتمة حكم الناصر

توفي عبدالرحمن وهو في الثالثة والسبعين من عمره ، بعد أن وحد مملـكته وكانت تعمها الحالة الفوضى ، وأعاد اليها السلام والرفاهة ، وضرب الممالك النصرانية ، التي كانت تهدده في الشمال فأخضعها ، ووقف الفاطميون عند الحد الذى بلغوه •

وكانت غايته تكوين شعب موحد من أمته وايجاد توازن سياسي ، يضمن للمملـكة استقرارها • فنجح في ذلك الى حد كبير وخطب مودته انبراطور القسطنطينيـة ، وملوك ايطاليـة وفرنسة والمانية •

تنظيم الناصر المالي

وجد الناصر بيت المال خالياً فملأه ، وقسم وارداته (وقد بلغت ٦٫٢٤٥٫٠٠٠ دينار) الى ثلاثة أقسام ، ثلث للنفقات العامة ، وثلث للعمران والباقي للاحتياط ، واهتم عبدالرحمن ، في القسم الثاني من حكمه بالأبهة ، لأنها تظهر فخامة الملك ، فبدأ سنة ٣٢٥ هـ = ٩٣٦ م ببناء مدينته الجميلة (الزهراء) ، وهي على أكثر من أربعة أميال شمالي قرطبة ، ليجعلها مقر بلاطه • وقد استمر على بنائها خمسة وعشرين عاماً ، وكان طولها من الشرق الى الغرب ٢٧٠٠ ذراع وعدد أبوابها يزيد على ١٥٫٠٠٠ باب ، وجلب لها الرخام الأبيض من المريّة ، والمجزع من رية ، والوردي والأخضر من أفريقية ، ونقلت له الأعمدة الجميلة من القسطنطينية • واستدعى خيرة المهندسين ، من بغداد والقسطنطينية ، واستخدم فيها كل يوم من العمال (١٠ آلاف) ومن الدواب (١٫٥٠٠) ، واتخذ فيها حدائق فسيحة وحيراً للحيوانات ، وكان أجل أقسامها بلاطه ، وكان فيه نحو من أربعمائة حجرة وبيت وغرفة ، وهو على سفح جبل يطل على نهر الوادي الكبير •

بناء الزهراء

قرطبة

أما العاصمة قرطبة فقد كانت أغنى مدينة في أوربة وأثقفها ، وضاهت بغداد بغناها واتساعها ، فقد بلغ عدد سكانها زهاء نصف مليون ، وكان فيها كثير من القصور الفخمة ، تزينها مساجدها الثلاثة آلاف ، وتحيط بها الجنائن والأرباض التي بلغت نحواً من مائة وثمانية وعشرين ربضاً • واتصلت العمارة فيها مسافة أربعة وعشرين ميلاً في الطول ، وستة أميال في العرض ، على ضفة الوادي الكبير ، وكانت شوارعها مبلطة تنيرها المصابيح ليلاً مسافة عدة أميال •

ويقول ابن حوقل[1] : « لم يكن لقرطبة شبيه فى كثرة الأهل وسعة الرقعة وهي حصينة بسور من حجارة » •

ومن محاسنها قصور الخلافة ، وقد جر الخلفاء الماء اليها ، من جبال قرطبة ، في قنوات من الرصاص ، تؤدي الماء الى تماثيل مختلفة الأشكال ، من الذهب والفضة والنحاس ، فينصب في بحيرات وبرك مرخمة بديعة • واشتهرت قرطبة بقنطرتها العظيمة وطولها ثماني مائة ذراع ، وارتفاعها ستون ذراعاً ، وعدد طيقانها ثمانية عشر طاقاً ، وأبراجها ١٩ برجاً •

الحكم الثاني توسيع مسجد قرطبة

تولى الحكم بعد الناصر ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦ هـ) = (٩٦١ - ٩٧٦) ، فاستمر على منهاج أبيه ، فوسع مسجد قرطبة وزينه بالزخارف ، وأحضر له مهرة الصناع ونفيس المواد من مختلف الجهات • وكان الحكم خليفة عادلاً ،

سياسته

محباً للعلم ، يميل الى الهدوء ، ولكنه مع ذلك اهتم بالسياسة ، فكان عليه أن يحافظ على وحدة البلاد ، وانتظام الادارة • واهتم بحوادث الشمال وبسط سلطانه بالتدريج ، على الأمراء النصارى في الشمال • ولعله أسرف في الاعتماد على الصقالبة • وكان حاجبه المصحفي كساعده الأيمن • وراقب خطر الفاطميين في شمال افريقية وحلفائهم الأدارسة ، وتمكن في الأخير أن يثبت سلطانه ، ويخضع الأدارسة • ولكن شهرته تستند الى

ولعه بالكتب ونشره للعلوم

ولعه بالكتب ، حتى لقد انفق أموالاً عظيمة في اقتنائها من مختلف أنحاء المشرق ، وأنشأ دار كتب فخمة فيها زهاء (٤٠٠ر٤٠٠) كتاب • وكان بحاثة فهماً مستنيراً ، شجع العلماء

(١) أحد سياح العرب الذين ألفوا في رحلتهم كتباً •

والفلاسفة ، وازدهرت العلوم في أيامه ، وكثرت المكاتب والكتاتيب حتى كان عامة أهل الأندلس يعرفون القراءة والكتابة ، واعتنى بصورة خاصة بجامعة قرطبة ، وجمع لها الأساتذة والأعلام •

ولاية العهد

وعهد الحكم الى ابنه الوحيد هشام ، وهو صغير السن • وفي عهده (٣٦٦ - ٤٠٠ هـ) = (٩٧٦ - ١٠٠٩ م) قامت دكتاتورية وراثية في بني عامر ، اذ قبضوا على الحكم والسلطة ، وحكموا باسم الخليفة دون أن يكون له نفوذ كلمة ، فكيف حصل ذلك ؟•

حكم بني عامر

ابن أبي عامر تقدمه في حياة الحكم الثاني

درس أبو عامر ، واسمه محمد بن عبدالله بن أبي عامر ، في جامعة قرطبة ثم رتب في وظيفة صغيرة عند قاضي العاصمة ، ثم دخل في خدمة البلاط سنة ٣٥٧ هـ = ٩٦٧ م بأن جعل وكيلاً للأميرة صبح زوجة الحكم الثاني على أملاكها ، وقد نجح بمقدرته ولباقته في اجتذاب ودها ، فلم تمض سنتان حتى كان المشرف على دار الضرب وصاحب بيت المال ، ثم ولي قضاء أشبيلية سنة ٣٥٩ هـ = ٩٦٩ م •

وأثرى أبو عامر في هذه المراتب ، وجعله كرمه ولطفه في مقدمة رجال البلاط ، وصار محبوباً وله أصدقاء كثير ، يؤيدونه عند حاجته الى تأييدهم ، ثم رأى ضرورة اتخاذ أصدقاء لنفسه من القواد ، فاتيحت له الفرصة حين أرسل برتبة قاضي القضاة الى شمالي افريقية ، اثر الحروب مع الأدارسة ، وكانت مهمته تدقيق النظر في نفقات الجيش الأندلسي هناك ، بقيادة غالب ، فنجح في مهمته الدقيقة ، وأرضى الخليفة واكتسب ثقة الجيش •

تقدمه في حياة هشام المؤيد

ولما توفي الحكم حاول رئيس الخصيان تولية المغيرة أخي الحكم بدل هشام ، ولكن الوزير المصحفي والقواد لم يرضوا بذلك وقرروا قتل المغيرة • وعهد الى ابن أبى عامر بالتنفيذ ففعل ، وعلى أثر ذلك عين المصحفي حاجباً ، وابن أبي عامر وزيراً • وبدأ ابن أبى عامر يسعى في التخلص من رئيسه المصحفي ، فنجح أول الأمر في التنكيل بالصقالبة الذين في البلاط ، فتخلص من خطرهم ، وأرضى سكان العاصمة ، وقد كانوا قاسوا منهم الشيء الكثير من الأذى والجبروت •

وبعد قليل أرسل حملة الى نصارى الشمال الأسبان ، الذين بدؤوا يشنون الغارات على أراضي المسلمين ، فنجح في حملته عام ٣٦٧ هـ = ٩٧٧ م • وفي ذلك الزمان وطد الصداقة مع غالب القائد وواطأه على المصحفي • وقويت صداقة ابن أبي عامر مع غالب ، في الحملة الموفقة الثانية ، التي شارك فيها ، وكانت على النصارى في الشمال • وعند رجوعه صار المحافظ على قرطبة ، ونحي ابن المصحفي عن هذا المنصب •

ابن أبي عامر الحاجب

شعر المصحفي بالخطر ، وحاول الاتفاق مع غالب على ابن أبي عامر فخاب واخفق سعيه • وثبت ابن أبي عامر صلته بغالب ، بتزوجه ابنته ، وبعد أشهر عزل المصحفي وأخذت أملاكه • وصار ابن أبي عامر حاجباً ، وبتأثير نسيبه قائد الجيش ، صار حاكم البلاد •

وقد كان لتأييد الملكة صبح أثر يذكر في تقدمه السريع • ثم واجه خطر الفقهاء ، الذين اتهموه بالزندقة لتفكيره الحر ، فأرضاهم بأن أحرق كتب الفلاسفة المخزونة في دار كتب الحكم الثاني ، وبذلك نفى التهمة عن نفسه •

الحجر على الخليفة

وشب الخليفة الصغير ، وبان أنه ذكي وله مواهب حسنة ، ولما كان قصر الخليفة في قرطبة مركز الأعمال الرسمية رأى ابن أبي عامر أن ينتقل الى مكان آخر ، ليحجر على الخليفة ، ويمنع تأثير البطانة فيه . فأمر بتشييد المدينة الزاهرة (وهي غير الزهراء التي بناها الناصر) بجوار قرطبة والتي ذكرناها آنفاً ، ونقل اليها الدواوين ، وجعلها مركز الادارة وحجر على الخليفة حجراً نهائياً ، وشدد الرقابة عليه فصار مجرد شبح . ثم حاول اعادة تنظيم الجيش ، فقد كان حتى ذلك الزمن مؤلفاً من أهل البلاد ، وفرق المرتزقة فيه ليست كبيرة . فكان يخشى العصبية فيه وطموح زعمائه ، فسعى في استمالة البربر وأطعمهم في الرواتب وألف منهم فرقاً مرتزقة ، ثم جمع مرتزقة من النصارى ، ومن الممالك الشمالية ، وتمكن بكرمه وعنايته من الحصول على ولائهم المطلق . وبذلك أحل الكتائب والفرق العسكرية محل الوحدات القبلية .

بناء الزهراء

تنظيم الجيش

حروبه مع الممالك النصرانية في الشمال

وبهذا تخلص من سلطة زعماء العرب . والتفت بعد ذلك الى الممالك الشمالية . وكان قد اختلف مع القائد غالب ، لأن غالباً لم يرتح للسياسة العسكرية الجديدة ، فثار وأيدته ليون . ولكن ابن أبي عامر غلب على خصمه وتخلص منه . وأعد حملة على ليون وتقدم سنة ٣٧١ هـ = ٩٨١ م نحوها ، فاتفق ملك ليون مع أمير قشتالة وملك نافار ، ولكن ابن أبي عامر هزمهم جميعاً ، واستمر على التقدم نحو ليون ، فهزم ملكها ثانية ، وتلقب على أثر هذه الحملة (بالمنصور بالله) .

ووقف بقية حياته على ضرب الممالك النصرانية الاسبانية في الشمال ، واستغل النزاع على العرش في ليون ، فبعث الجيوش بحجة مساعدة حليفه من المتنازعين واحتلها ، فصارت تابعة له ، ثم هاجم كتلونية عام ٣٧٥ هـ = ٩٨٥ م فهزم أميرها واستولى على برشلونة .

ولما عاثت جيوش المسلمين في مملكة ليون ، ثار ملكها وطردهم ، فهاجمه المنصور بالله سنة ٣٧٧ هـ = ٩٨٧ م واكتسح بلاده ، ثم حاصر ليون ودمرها ، فألقى الأسبان السلاح ، وخضعوا له وضم بعض أراضيهم الى مملكته . وكانت آخر حملاته على نصارى الشمال وهي التي بلغت الخمسين ، موجهة على قشتالة عام ٣٩٣ هـ = ١٠٠٢ م ، فاستولى على عدة مدن وتوفي في أثناء رجوعه .

وأورث المنصور ابنه عبدالملك منصبه ، وكان في عام ٣٨١ هـ = ٩٩١ م أعطاه لقب الحاجب وتلقب هو بعد خمس سنين بـ « الملك الكريم » وسمى نفسه السيد .

إهمية حكمه

وفي عصره حافظت الأندلس على عظمتها التي كونها لها الناصر ، وكانت من أعظم مراكز الحضارة والثقافة في العصور الوسطى .

حجابة عبدالملك ابن المنصور

خلف عبدالملك والده في الحجابة ، وكان قديراً ، حافظ على السلام في البلاد ، وعزز الجيش بجنود جدد من البربر . فوجه حملات كثيرة على نصارى الشمال ، كان آخرها الحملة على قشتالة سنة ٣٩٨ هـ = ١٠٠٧ م فهزمهم ولقب نفسه بعدها بـ (المظفر بالله) . وسيطر عبدالملك على الأمور ، مع معارضة أهل قرطبة ، لا ستبداد بني عامر ، وبرغم عدة مؤامرات أحبطها

سريعاً . ولعله مات مسموماً بتدبير أخيه عبدالرحمن فقد خلفه في الحجابة بموافقة الخليفة .

حجابة عبدالرحمن شنجول

كان عبدالرحمن الملقب بـ (شنجول) ـ لأن أمه كانت نصرانية بنت شنجو ملك نافار ـ مغروراً كما يظهر من سيرته ، واغتر بتأييد جنود البربر له ، فلم يعبأ بالرأي العام ، وعزم أن يصبح خلفاً لهشام الثاني ، وأجابه الخليفة الضعيف الى طلبه ، وصدر العهد سنة ٣٩٩ هـ = ١٠٠٨ م بجعله ولياً للعهد ، فقام الساخطون وقد كثر عددهم وعليهم بنو أمية الذين قد حرموا العرش ، فاستغلوا خروج عبدالرحمن في حملة الشمال ، فخلعوا هشاماً ، وولوا حفيد الناصر محمد بن هشام ، فأسرع عبدالرحمن فقبض عليه قرب العاصمة وقتله .

نهاية حكم آل أبي عامر

ومنذ ذلك الوقت زالت أهمية الخلافة ، وأصبحت البلاد مسرحاً لفتن البربر والعرب والأسبان والصقالبة . وسرعان ما تجزأت الى دويلات متناحرة ، تسمى « دويلات الطوائف » كانت وبالاً على البلاد ، واعلاناً بزوال سلطان العرب من الأندلس .

الفصل الثالث

سقوط الخلافة الأموية بالأندلس وقيام دول الطوائف

أسباب تدهور الأمويين في الأندلس

تدهورت الدولة الأموية ، التي وحدت الأندلس بضعة قرون . من ١٣٩ هـ = ٧٥٦ م الى ٤٢٣ هـ = ١٠٣١ م لأسباب عدة لعل أهمها :-

١ - فقدان الزعامة التي تسيطر على شؤون البلاد .

٢ - اشتداد أطماع الولاة ، وسعيهم وراء مجدهم الشخصي ، حتى أصبح لكل مدينة تقريباً أمير مستقل ، يلقب بملك أو أمير أو وال . وبلغ من شدة التنازع بينهم أن اكثرهم استجاروا بالأسبان أو دعوهم لحمايتهم من الأمراء الآخرين .

٣ - اشتداد النزاع بين العرب والبربر .

٤ - تدخل الجيش في السياسة .

٥ - اشتداد روح التعصب القومي والديني عند الأسبان للقضاء على سلطان المسلمين .

ظهور دول الطوائف

وبعد سقوط الخلافة الأموية حل محلها دويلات ، بلغ عددها نحواً من ١٦ دويلة ، اشتد النزاع في عهدها ، بين العرب والأسبان من جهة ، وكثرت بينهم الحروب من جهة أخرى ،

حتى اضعفوا أنفسهم ، فانقض عليهم الأسبان وقضوا على دويلاتهم جميعها ، وكانت آخرها دولة بني الأحمر ، التي سقطت سنة ٨٩٨ هـ = ١٤٩٢ م وسيأتي ذكرها ، وبسقوطها زال سلطان العرب السياسي من الأندلس ، وبقيت جماعات عربية تعيش في اضطهاد شديد ، آثرت البقاء هناك حباً لوطنها ، غير أن الأسبان تشددوا عليهم حتى أخرجوهم اخراجاً نهائياً سنة ١٠١٩ هـ = ١٦١٠ م • ومن أشهر الدويلات دويلة الأدارسة الأشراف ، وهم بنو حمود في مالقة ، وبنوا ذي النون في طليطلة ، وبنو جهور في قرطبة ، وبنو عباد في أشبيلية وبنو الأحمر في غرناطة • ولمعرفة أحوال الأندلس في هذا العصر نكتفي بذكر دولتين من هذه الدويلات هما بنو عباد وبنو الأحمر •

بنو عباد

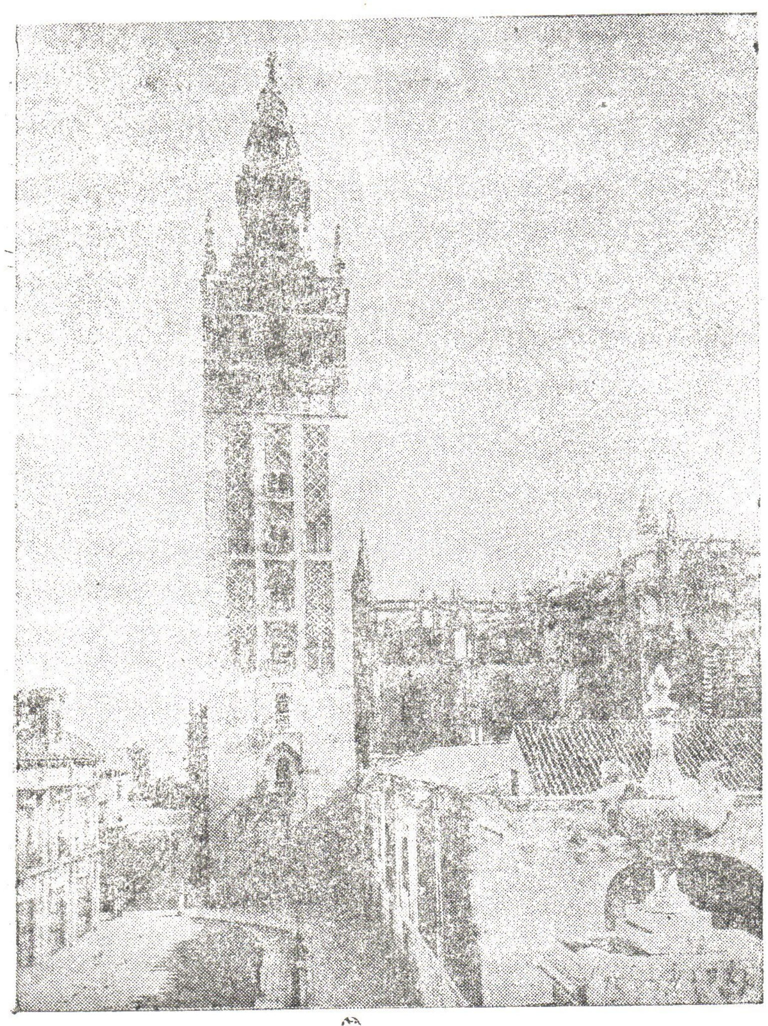
أصلهم وبدء نفوذ كلمتهم

ينتمي بنو عباد الى اللخميين وهم من سلالة ملوك الحيرة في العراق ، وفدت أسرتهم الى الأندلس في أواسط القرن الثامن للميلاد • وقد اشتهر منهم اسماعيل بن عباد ، وابنه أبو القاسم محمد والمعتضد والمعتمد • تولى اسماعيل بن عباد القضاء في أشبيلية وكان مثريا كريماً ، وبفضل شهرته وعظيم ثروته تولى ابنه محمد

محمد ابن اسماعيل ابن عباد

القضاء في أشبيلية أيضاً بعد وفاة أبيه • وكان يمتلك نحواً من ثلث أراضي أشبيلية ، فاستخدم أمواله هذه في تأليف القلوب وتقريب الزعماء الى نفسه • فاتفق مع الجند وزعماء المدينة وطرد موظفي الحكومة في قرطبة • وألف جيشاً قوياً ، واستعان باغنياء أشبيلية وزعمائها ، على حكم البلاد • فأرسلت اليه حكومة قرطبة جيشاً اضطره الى الخضوع ، غير أنه أخذ ينظم جيوشه ثانية

ويوطد مركزه ويوسع حدود امارته • ولما اشتد النزاع بين العرب والبربر انتهز الفرصة وجمع العرب وترأس عليهم ، وتولى الدفاع عنهم • وقد استفاد من حادث طريف : قيل أن رجلاً ادعى أنه هشام الثاني (المؤيد) ، فصدقه ناس لشبهه بهشام ،



مئذنة جامع اشبيلية

فأراد أبو القاسم أن يستفيد منه فأسكنه في قصره ، وأشاع بين الناس أن هشاماً الثاني المؤيد لم يقتل ، وانه مازال حياً يقيم في أشبيلية ، وقد ظهر الآن ، واستنجد بمحمد ودعاه الى مساعدته • فأمر محمد أن يدعى له على منابر أشبيلية ، ونقش اسمه على السكة ، وطلب الى المسلمين أن يعترفوا بخليفتهم الشرعي في زعمه ، وطلب أيضاً الى رؤساء الأقاليم والمدن أن يأخذوا له البيعة • وأصبح أبو القاسم حاجباً لهشام ، والتف حوله كثير من العرب والبربر ، غير أن كثيراً من الأمراء سخروا من دعوته هذه • ومهما كان من الأمر فانه أصبح من أقوى زعماء الأندلس ، وحاول أن يستولي على قرطبة ، وينزعها من الأدارسة ، غير أنه توفي عام ٤٣٤ هـ = ١٠٤٢ م ، قبل أن يحقق ذلك • وجاء بعده ابنه عباد الملقب بالمعتضد ، وكان ذكياً يميل الى المكيدة والفتك بأعدائه بصورة راعبة • وكان المعتضد زعيم العرب واستطاع أن يوسع امارته بالقضاء على خصومه من الأمراء ، وأصبح أقوى أمراء الأندلس • وتمكن من استرضاء زعماء الأراضي المفتوحة ، بالجوائز العظيمة • واسترضى الشعب بالمآدب والحفلات ومصارعة الوحوش •

المعتضد

وكان المعتضد ميالاً الى اللهو ، محباً لبناء القلاع والحصون وزخرفتها ، في زمن كان فيه الأسبان قد تقووا ، واستولوا على أقسام كثيرة من بلادهم المحتلة ، واضطروها الى دفع الجزية اليهم • وكان المعتضد قد قضى على كثير من وزرائه ، وانتزع منهم أملاكهم ، لينفقها على أنسه ولهوه • ومع ذلك استطاع أن ينتزع قرطبة من بني جهور ويضيفها الى أملاكه • ثم توفي سنة

المعتمد نزاعه مع بني ذي النون

٤٦١ هـ = ١٠٦٨ م بعد أن حكم ٢٧ سنة ، وخلفه ابنه المعتمد ، وكان فارساً ذا بأس وشاعراً مجيداً بعيد الصيت ، وكان يرعى العلماء الا انه كان كأبيه لا يهتم بأمور الدين • واشتد النزاع بينه وبين المأمون أمير طليـــطلة من بني ذي النون • فانتهز المأمون فرصة انصراف المعتمد الى حرب الأدارسة ، فهجم على أشبيلية واحتل قصور بني عباد ، واستولى على جميع أموالهم • فما فرغ المعتمد من اخضاع الأدارسة توجه الى أشبيليـــة فحاصرها ، ودخلها منتصراً ، وقد توفي المأمون في أثناء الحصار • واسرع المعتمد الى قرطبة قبل أن يعلم أحد بمغادرته لأشبيلية ، ودخلها ظافراً على رأس جيشه في موكب رائع ، وبذلك استعاد أشبيلية وأحتل قرطبة في وقت واحد • وأراد المعتمد أن يخضع الأندلس، فدفعه ذلك الى محالفة الفونس ملك قشتالة ، وكان من بنود هذا التحالف أن يلتزم الفونس بمعاونة أمير أشبيلية بالجند المرتزقة ، على جميع أعدائه من المسلمين ، ويلتزم ابن عباد في مقابل ذلك أن يدفع الى ملك قشتالة مقادير كبيرة من المال ، ويعاهد بصورة خاصة على أن لا يعارضه في افتتاح طليطلة • وبذلك ارتـــكب المعتمد خطأ فاحشاً ، فانه قد ضحى بمعقل العرب في أسبانية •

تحالفه مع الفونس

خطر الفونس

وفي سنة ٤٧٢ هـ = ١٠٧٩ م هجم الفونس على طليطلة ، وخربها عدة مرات غير انه لم يستطع الاستيلاء عليها الا في سنة ٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م • فعادت بذلك الى حظيرة النصرانية بعد أن حكمها العرب ٣٧٣ سنة • وكان لتخاذل المسلمين وتنازعهم أبلغ أثر في سقوطها ، وبذلك أصبح الفونس طامعاً في كثير من المدن الاسلامية ، وغدا يهدد قرطبة والمدن الأخرى ، فجزع المعتمد وساوره الندم على محالفة ملك الأسبان النصـــارى • وأظهر



بغداد
في القرون المتوسطة
المقياس بالميل الإنكليزي
واسط
البصرة
جنديسابور
تستر
عسكر مكرم
الأهواز
خارطة لسبل التروية
في
العراق
بين سنتي ٩٠٠ و ١٤٠٠م
المقياس بالميل الإنكليزي
من كتاب "بغداد على عهد الخلافة
العباسية" للسترنج
"نقل بشير فرنسيس"

الفونس بازاء ذلك أنه يريد افتتاح الولايات المسلمة كلها ، ولما أبى المعتمد أن يسلم اليه حصوناً من ولاية طليطلة ، كانت في يده ، أعلن الفونس الحرب عليه ، وعلى جميع الأمراء المسلمين ، فقرر أكثر الأمراء المسلمين الاستعانة بأمير المرابطين يوسف بن تاشفين ، فقاد جيوشه من شمالي افريقية وعبر الى الأندلس واتحد معه الأمراء كافة على الأسبان ، والتقت الجيوش سنة ٤٧٩ هـ = ١٠٧٦ م في معركة « الزلاقة » المشهورة • فظفر المسلمون ظفراً باهراً ، وعاد المرابطون الى افريقية بعد أن تركوا حاميات في البلاد ، وقد استفادوا من مجيئهم الى الأندلس بأن تلمسوا أسباب ضعف العرب فيها ، وتخاذل الأمراء وغفلتهم وانهماكهم في الملاهي وبناء القصور ، وعلموا عزوف كثير منهم عن الدين ، وعرفوا نقمة الأمة ، وسخط رجال الدين عليهم ، ولذلك جهز يوسف بن تاشفين جيشاً كثيفاً للقضاء على هؤلاء الأمراء المتنازعين ، وحاصر مدن الأندلس ، فسقطت الواحدة بعد الأخرى ، وحاصر أشبيلية فقاومه المعتمد مقاومة مجيدة ، وطال الحصار ، ولكنه اضطر أخيراً الى الاستسلام ، فنفي الى افريقية ، وعاش في (اغمات) سجيناً بحالة سيئة الى أن توفي سنة ٤٨٩ هـ = ١٠٩٥ م فقيراً ، بعد أن كان يلبس في الحرب درعاً من اللازورد الأزرق ، مرصعة بنجوم من الذهب ، تحيط بهلال مذهب ، وكانت سلوته الوحيدة في سجنه نظم الشعر •

استعانة المسلمين بيوسف بن تاشفين ومعركة الزلاقة

استيلاء المرابطين على الأندلس

وقد ذكرنا سابقاً أن الأمير يوسف بن تاشفين خطب لبني العباس على عهد الخليفة المستظهر بالله في بلاد الأندلس التي فتحها لأن فقهاء الأندلس طالبوه بشرعية حكمه •

ظهور الموحدين

وبعد المرابطين قامت دولة الموحدين أسسها محمد بن تومرت ومن أشهر أمرائها يعقوب المنصور وهو الذي غلب على البرتغال في وقعة (الارك) المشهورة سنة ٥٩٢ هـ = ١١٩٥ م • ثم تقوى الأسبان بعد ذلك ، وحاربوا الموحدين ، بمساعدة الصليبيين في أسبانية ، فغلبوا عليهم في وقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ = ١٢١٢ م • وفي سنة ٦٣٤ هـ = ١٢٣٦ م احتل الأسبان قرطبة ، ولم يبق للعرب حكم الا في غرناطة وما جاورها ، حيث تأسست دولة بني الأحمر •

بنو الأحمر

أصلهم وبدء سلطتهم

ينتسبون الى سعد بن عبادة الخزرجي • أسس دولتهم سنة ٦٣٠ هـ = ١٢٣٢ م محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر ، الملقب الغالب بالله ، ودامت أكثر من قرنين ونصف • وظل أمراؤها في نزاع دائم ، فاستفاد الأسبان من ذلك وفرضوا عليهم الجزية • ومن أواخر أمراء بني الأحمر أبو الحسن علي ، وفي عهده توحدت دول الأسبان بزواج فرديناند وايزابلا ، وأمتنع هو عن دفع الجزية للأسبان مخالفاً بذلك طريقة أسلافه ، فزحف الأسبان نحوه وهزموا جيشه ، وعمت الحالة الفوضى البلاد • وثار ابنه عبدالله بن محمد الملقب بالصغير ونزل أبو الحسن لأخيه ، فلم يرض أبو عبدالله الصغير واتفق مع الأسبان وظل يساعدهم ، حتى تولى الملك بمعاونتهم ، غير أنهم نكثوا بعهدهم له ، وحاربوه واضطروه الى الاستسلام لهم ، على أن يحافظوا على أرواح المسلمين ، ويتركوا لهم الحرية في ممارسة

انقراض
دولتهم

أمورهم الدينية ، ودخل فرديناند وايزابلا غرناطة فاتحين في ٣ كانون الثاني سنة ٨٥٨ هـ = ١٤٩٢ م ، وخرج أبو عبدالله الصغير من غرناطة الى منفاه ، ثم طرد الى افريقية ، وكان لما خرج القى نظرته الأخيرة على غرناطة الجميلة وبكى ، فقلت له أمه :

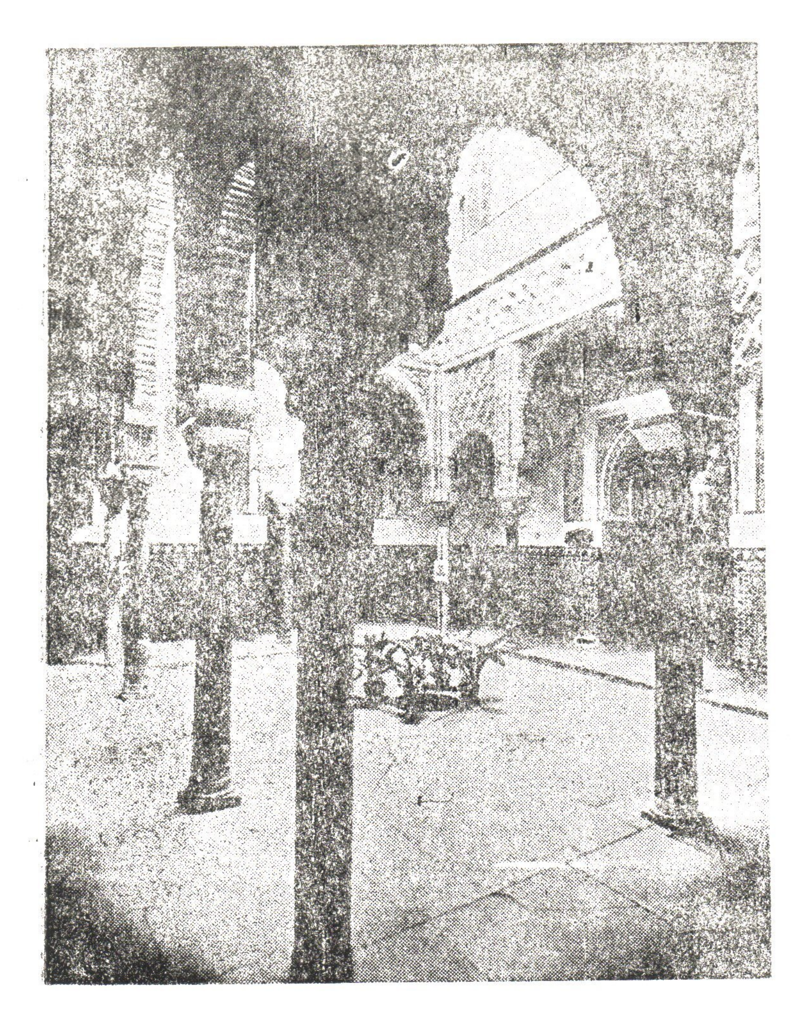
ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال

وقد عاصرهم لسان الدين بن الخطيب الشاعر المؤرخ ، وكان ابن خلدون الكندي القاضي من سفرائهم ، وهو صاحب المقدمة المشهورة والتاريخ المعروف[١] ، وقد قام بدور مهم في سياسة الأندلس وشمالي افريقية . وبعد سقوط غرناطة أكره العرب على التنصر . وحاول الأسبان أن يمنعوهم من قراءة الكتب العربية ، وأحرقوا في غرناطة كثيراً من المخطوطات العربية ، ثم الفت محكمة التفتيش للتنكيل بالمسلمين أنى كانوا فكانت محكمة مروعة فظيعة .

ومن أشهر آثارهم قصر الحمراء ، نسبة الى الأصباغ الحمر التي استعملت في صبغه ، وقد ذكرناه بشيء من التفصيل في بحث الحضارة .

---

(١) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر .



صحن السفراء في الحمراء بغرناطة

الفصل الرابع

الحضارة العربية في الأندلس

النظم الأندلسية
الخلافة

كانت الأندلس امارة ، حتى سنة ٣١٧ هـ = ٩٢٩ م ، وهي السنة التي اتخذ فيها عبدالرحمن الثالث لقب الخلافة ، وكان الخليفة رئيس الدولة وحامي الدين ، ومصدر جميع السلطات المدنية والعسكرية والقضائية . ويلي الخليفة في الرتبة الحاجب ، وهو كرئيس الوزراء عندنا . وكان لهم وزراء يرأسون مختلف نواحي الادارة ، كالمالية والدفاع ويتصلون بالحاجب .

الادارة المركزية

ويلي الوزراء الكتاب . وتشكل الدوائر الادارية المختلفة الديوان ، وهذه الدوائر تتنوع على حسب الحاجة والأشغال .

الولايات

وتنقسم البلاد عدا قرطبة الى ست ولايات ، يحكم كلاً منها أمير عسكري مدني ، يسمى الوالي ، ويدير أمور عدة من المدن المهمة ولاة أيضاً ، أما الثغور وهي المدن العسكرية التي على الحدود فيحكمها القواد .

القضاء

ويشرف الخليفة على القضاء ، ويفوض سلطته الى القضاة ، وينوب عن القاضي في القرية الحاكم ، وعلى رأس الهيئة القضائية قاضي القضاة . ويشرف صاحب الشرطة على القضايا الجنائية . وفي قرطبة كان مقر صاحب المظالم ، للنظر في الشكاوي التي ترفع على الموظفين ، وهكذا يتضح أن التنظيم الاداري في الأندلس يشبه في أساسه التنظيم الاداري في الشرق .

الجيش

وكانت القبيلة وحدة التنظيم العسكري ، ويرأس كل قبيلة شيخها ، وكان للخليفة القيادة العليا ، أو لمن يفوضها اليه ، ويقبض المقاتلة العطاء في نهاية المعركة . وكان في الجيش الفرسان ويركبون البغل ، والمشاة ، وعلى رأس الجيش القائد . وكانوا يقومون بحملاتهم في الربيع وتسمى الغارات ، يستعملون أدوات الحصار عند الحاجة اليها .

وأصاب شيء من التبدل نظام الجيش حين أخذ الخلفاء يستعينون بالمرتزقة ، واتم المنصور بن أبي عامر هذه التبدلات ، فأحل الكتائب والفرق العسكرية محل الوحدات القبلية كما أومأنا اليه ، ووضع حداً لسلطة الشيوخ . ودخل في الجيش الصقالبة والبربر والأسبان النصارى . وقد أصبح هؤلاء مصدر شر عندما ضعف الخلفاء .

الأسطول

واصبح الاسطول الأندلسي في زمن عبدالرحمن الثالث أقوى أسطول في البحر الأبيض ، وكان مقره المرية ، وكان القواد يرأسون الغارات البحرية . وامتدت الغارات من سواحل فرنسة الى افريقية ، الا ان الأسطول الأندلسي أهمل حين ضعف شأن الفاطميين كما أشرنا اليه سابقاً .

التقدم الاقتصادي
الزراعة

وقد صارت الأندلس في عصر الخلفاء من أغنى الأقطار وأبهاها وأكثرها كثافة في السكان . نشأ ذلك عن نماء الزراعة وزيادة الصناعة ، فقد حفر العرب الأندلسيون الترع والقنوات ، وافتنوا في الزراعة ، وأدخلوا الى الأندلس زراعة القطن والرمان وقصب السكر والنخيل ، واعتنوا بتربية الماشية .

التعدين

واهتموا بالتعدين ، فاستخرجوا الذهب والفضة . واشتهرت مالقة بالعقيق ، وقرطبة ومالقة والمرية بنسيج الحرير ، وكان في قرطبة وحدها (١٣٫٠٠٠) حائك . واشتهرت شاطبة بصناعة ورق الكتابة من القماش والخيوط واشتهرت المرية بصناعة الزجاج وأواني النحاس « الصفر » والشبه . وكان لصناعة الجلود في قرطبة شهرة واسعة . واشتهرت عدة مدن بصناعة الأسلحة كالسيوف والدروع .

الصناعة

التجارة

وقد ساعد هذا الازدهار على توسع التجارة ، فكانت الأندلس تصدر مختلف الحاجات ، كالقطن والزبيب والزيتون والتين والنبيذ والرخام . وتسير سفنها الى القسطنطينية ومصر وافريقية ، ومنها توزع في مختلف الاصقاع ، وكانت تجارتها تصل الى بغداد والشام والحجاز .

المجتمع

عناصر المجتمع العرب

كان المجتمع الأندلسي يضم عناصر كثيرة ، من عرب وبربر وصقالبة واسبان ويهود . وكان العرب يعتزون بأنفسهم ولا ينظرون نظرة مساواة الى المسلمين الآخرين كالبربر ، وهذا التفوق ولد التبرم والانقسام ، ثم أن العرب انفسهم كانوا ينقسمون الى يمنيين ومضريين ، وهم يسكنون السهول على حين انتشر البربر في المناطق الجبلية في الأكثر .

المولدون

وكان بينهم المولدون ، وهم في الأصل رقيق من القوط تحرروا بالاسلام ، وقد نظر اليهم العرب نظر شك وارتياب . وازداد عددهم بانتشار الاسلام بين الأسبان . وقد حكموا دوراً مهماً ، في الحركات الثقافية والسياسية . وكان هناك الأسبان

المستعربة

الذين حافظوا على دينهم ، وكانوا يعاملون بتساهل وتسامح ، وتركت لهم حريتهم وكان لهم حكام خاصون من بينهم يوليهم الخليفة ، وكانوا يدبرون شؤونهم بأنفسهم ، ولهم قانون خاص بهم • وكانوا يسمون المستعربة ، فقد سحرتهم اللغة والثقافة العربيتان ، فتدارسوهما برغبة وبحماسة ، وتخلقوا باخلاق العرب وصاروا من رسل الثقافة العربية الى الغرب •

اليهود

وتحسنت حال اليهود في ظل الحكم العربي ، وانشؤوا لأنفسهم المداريس[1] ، وساهموا في الثقافة مساهمة فعالة ، ونشطوا في التجارة • وقد اقتبس يهود قرطبة لغة العرب وزيهم وعاداتهم • وكان لهم ادارة وقوانين خاصة على غرار ما للنصارى •

وكانت لغة الأدب والسياسة اللغة العربية ، ولكن الناس كانوا يتكلمون أو يفهمون لغة السكان الأصليين ، وذلك بسبب الاختلاط والتزاوج •

الثقافة

الاتجاه نحو الشرق

ولم يجد العرب في الأندلس شعباً عريق الحضارة ، ولذا اتجهوا الى الشرق الاسلامي ، يأخذون عنه الفلسفة والفقه والعلوم ، ويقلدون شعراءه وأدباءه ، ويجارونه في ترفه ، وقسم من عاداته الاجتماعية • وهكذا كانت بلاد الاسلام تكون وحدة ثقافية حضارية مع بعد المسافات • ولكن الأندلسيين لم يقتصروا على التقليد بل كان لهم نتاج مستقل في الأدب والعلم •

(١) المداريس جمع المدارس أي المدراش وهو الفهر أي المدرسة الدينية •

الشعر

وقد أثر جمال الطبيعة ، وحرية المرأة هناك ، في ترقيق عواطفهم وتهذيب اذواقهم ، فجاء شعرهم جميلاً في معانيه واخيلته ، وشجع الخلفاء والوزراء على نظم الشعر ، ثم ان انتشار الغناء كان حافزاً على الاكثار منه •

ابتكار الموشح

وقد ابتكر الاندلسيون فناً جديداً في الشعر يصلح للغناء بصورة خاصة ، وهو الموشح الذي استقر فنه في القرن الخامس الهجري • واليك أحد الموشحات :

بَدْرُ تَمّْ شمسُ ضُحاً غصنُ نقَا مِسكُ شَمّْ
ما أتَمّْ ما أوْضَحا ما أورَقَـــا ما أنَمّْ
لا جرمْ من لحا قد عشِقا قد حُرِمْ

الزجل

وقد استطرف الناس الموشح ، ورغبوا فيه ، حتى نشأ الى جانبه شعر شعبي من نظم العامة جروا فيه مجرى الموشح ، ودعي بالزجل ، واستعملوا فيه الفاظاً عامية • ولمع في الأندلس شعراء فحول كابن زيدون (المتوفي ٤٦٣ هـ) وابن خفاجة (المتوفي ٥٣٣ هـ) • وكان ابن زيدون رقيق التصور ، واسع الادراك ، اذكى عاطفته حبه لولادة بنت الخليفة المستكفي ، وقد كانت بارعة الجمال ، أديبة شاعرة تماتن الشعراء ، وكانت حرة في آرائها فتركت اعمق الأثر في شعره • ومن شعره فيها :

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن زاد في تلك الخطا اذ شيعك
يا أخا البدر سناءاً وسنا حفظ الله زماناً اطلعك
ان يكن قد طال ليلي فلكم بت أشكو قصر الليل معك

وكانت لحياته المضطربة ، وما لاقى فيها من مصائب من سجن وغربة أثر واضح في شعره ، هذ شكواه في قصيدته :

ما على ظني باس يجرح الدهر وياسو
ربما أشرف بالمر ء على الآمال ياس
ولقد ينجيك اغفا ل ويرديك احتراس
والمقادير سهام والمقادير قياس

واقرأ حنينه الى ولادة ، وشكواه من الغربة في قصيدته التي مطلعها :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا

ومن ناحية أخرى كان ابن زيدون في أساليبه وأخيلته ومعانيه ، كثير التقليد لشعراء المشرق • وخاصة أبا تمام والبحتري والمعري • وهذا شأن شعراء الأندلس •

ونبغ عدة من النساء في نظم الشعر ، كولادة بنت المستكفي المذكورة وحمدة العوفية •

الموسيقى والغناء

وأولع الأندلسيون بالموسيقى والغناء لملاءمتهما للمعيشة الحضرية المترفة • وقد كان لزرياب المغني المقدم الذكر في هذا الكتاب ، أثر مهم في ذلك ، فقد نقل ألحان بغداد وأغانيها الى الأندلس ، وأدخل فنوناً جديدة في الموسيقى والغناء • وافتن الشعراء في نظم الشعر الملائم لهذه الموسيقى وذلك الغناء • واستعمل الأندلسيون الأصوات المجسدة (النوطة الموسيقية) ، فأخذها الأوربيون عنهم وأثروا بألحانهم في الغناء الأوربي ، وخصوصاً الغناء الأسباني الذي لا يزال يحمل طابع الغناء العربي •

الفلسفة

وتقدمت البحوث الفلسفية في الأندلس ، مع معارضة الفقهاء لها ، ونقل الأندلسيون الى الغرب فلسفة اليونان وما أضافوه اليها . وكانت أكبر مشكلاتهم الفلسفية ، كما هو الحال في العراق ، ومحاولة التوفيق بين الدين والفلسفة .

ابن رشد

وأكبر فلاسفة الأندلس ابن رشد (٥٩٥ هـ = ١١٩٨ م) المشهور بشروحه لأرسطو ، وبتعليقاته الواسعة على كتاباته . وقد اعتمد كثيراً على العقل ، وحاول التوفيق بينه وبين الدين ، وأثرت أثراً قوياً في أوربة . وأشهر كتبه (تهافت التهافت) رد به على الامام الغزالي .

الطب

وأظهر الأندلسيون مقدرة خاصـــة في الطب ، فاهتموا بالتجارب العملية ، وهم أول من أدرك أن الوباء ينتشر بالعدوى ، وصرحوا بلزوم اتباع نتائج التجارب ، واهمال التقليـد ، ان حصل تضارب بينهما ، وكانت وسائلهم في الوباء خير ما عرفته أوربة حتى القرن السادس عشر . وتقدموا في فن الجراحة ، حتى جعلوه فرعاً مستقلاً . وانجبت الأندلس أشهر جراح عربي ، وهو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي (٤٢٣ هـ = ١٠٣١ م) فقد ألف كتاباً جمع فيه معلومات عصره في الجراحة ، وأضاف اليها نتائج تجاربه وبحوثه ، وقد اعتمدت عليه الجامعات الغربية عدة قرون . واشتهروا أيضاً بطب الأسنان ، ولهم في ذلك أدوات وآلات متقنة .

الزهراوي

التاريخ الطبيعي

وخدم الأندلسيون التاريخ الطبيعي ، ولاسيما علم النبات ومنه الأعشـاب ، فقد درسوا النباتات وخاصة الطبية منهـا ، ووضحوا خصائصها ، واستعملوها في تركيب الأدوية . وأشهر

ابن البيطار

صيدلاني ونباتي عشاب أنجبت به الأندلس هو ابن البيطار (٦٤٦ هـ = ١٢٤٨ م) وقد قام برحلات واسعة في الاندلس وشمالي افريقية ومصر والشام وبلاد الروم « آسية الصغرى » ، لدراسة النباتات والأعشاب الطبية وتصنيفها ، وكتب كتابين كانا خير ما كتب حتى القرن الخامس عشر .

فن الفلاحة

وكتب الأندلسيون في فن الفلاحة مستعينين بالمعلومات الموروثة عن اليونان وبخبرتهم . واشهر كتبهم (كتاب الفلاحة) لابن العوام ، وكان هدفهم من ذلك تحسين الزراعة .

الجغرافية والرحلات الادريسي

ونبغ في الأندلس جغرافيون قدرآء اشهرهم الاردیسي (٥٦٢ هـ = ١١٦٦ م) ، وقد اشتهر بمعلوماته المتقنة التي حصلها من الملاحظة والتقييدات الشخصية ، عن حوض البحر الرومي « المتوسط » ، وعن عدة من البلاد الأوربية . وعمل خارطة دائرية للعالم ، وصنع هيئة العالم ، على شكل كرة من الفضة رسم عليها أقاليم العالم وبحاره ، ومدنه المهمة .

ابن جبير

واشتهر فريق من الأندلسيين برحلاتهم كابن جبير (٦١٤ هـ = ١٢١٧ م) ، فقد جاب شمالي افريقية ومصر ودخل العراق والحجاز وصقلية ، ووصف أسفاره في رحلته المشهورة .

ابن بطوطة

ثم ابن بطوطة (٧٧٧ هـ = ١٣٧٥ م) ، أعظم رحالة عربي جاب العالم الاسلامي وآسية الصغرى وذهب الى أواسط آسية والهند وسومطرة والصين . وأوغل في افريقية ، وكتب وصفاً ممتعاً لرحلاته ، وان كان متأثراً بابن جبير في عدة أمور ومعيداً لبعض كلامه .

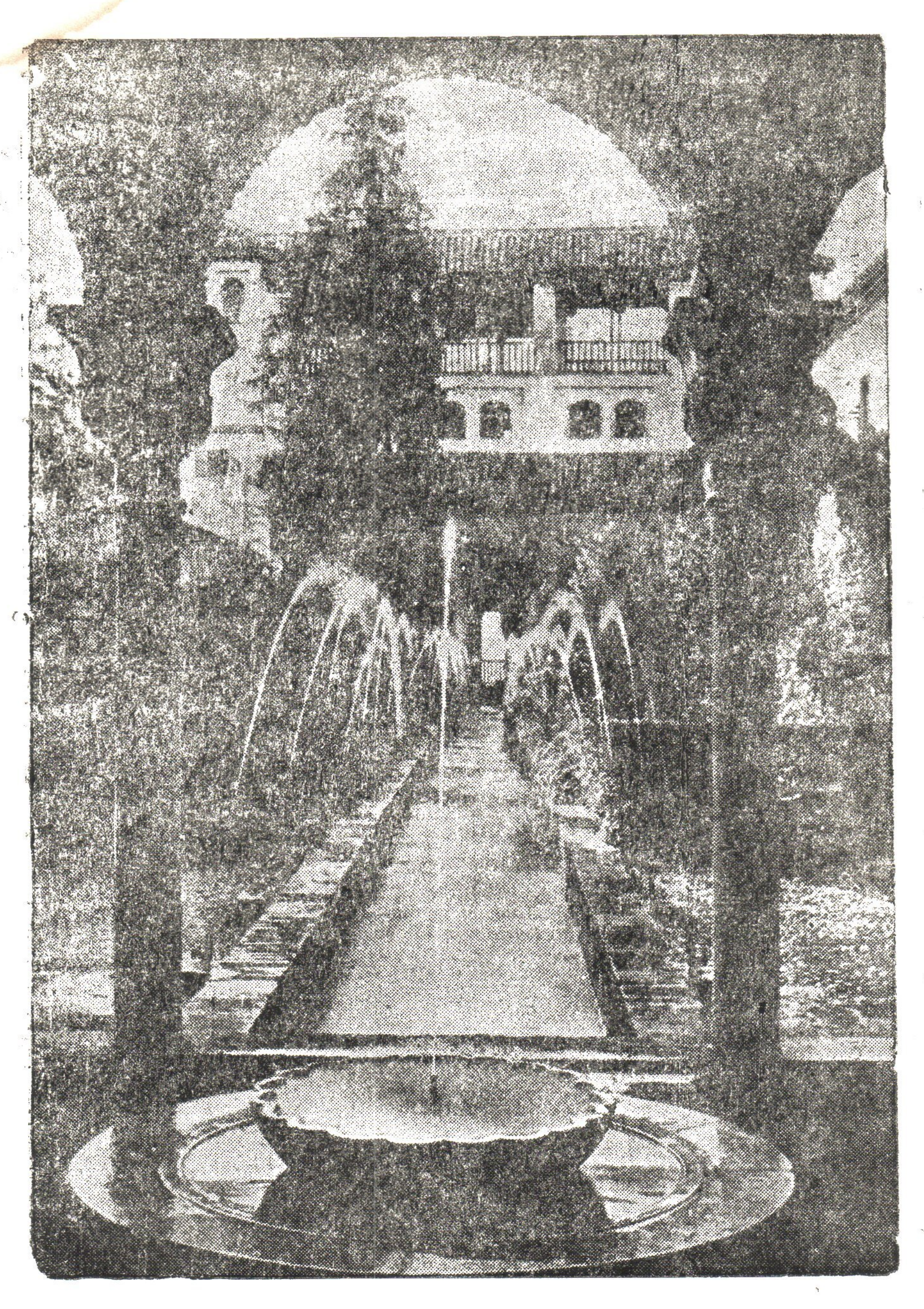
التعليم والمدارس

ولقد كانت الثقافة منتشرة في الأندلس ، اذ كثرت الكتاتيب في أنحاء البلاد ، وكانت أسس التعليم فيها مشابهة لما كانت عليه في الشرق ، فتشمل في التعليم الابتدائي القرآن واللغة والشعر وشيئاً من الحساب • وفي التعليم العالي التفسير والحديث والفقه والنحو والشعر ، والفلسفة والتاريخ ، والرياضيات والطب والفلك •

وكانت حلقات التدريس تعقد في المساجد • ثم أنشأ عبدالرحمن الناصر جامعة قرطبة ، ووسعها الحكم الثاني ودعا اليها الأساتذة من الشرق • وكانت في البلاد دور كتب ، أشهرها دار كتب قرطبة التي أنشأها الأمير محمد الأول ووسعها الناصر ثم اصبحت من أكبر دور الكتب في عصر الحكم الثاني • وقد ذكرنا احراق ابن أبي عامر كتبها الفلسفية سابقاً •

نقل حضارة العرب الى أوربة

وقد قامت الأندلس بالدور الرئيس ، في نقل تراث العرب واليونان الى أوربة • وكان المستعربة الحلقة الأولى ، لنقل الثقافة الى الأوربيين ، فقد تدارسوا علوم العرب من أدب وفلسفة وفقه وغير ذلك ، ونقلوا ثقافتهم الى اخوانهم في دول الطوائف • وتقاطرت الى الأندلس عناصر حية من أوربة الخاملة ، للدرس والتجارة والمشاهدة ، فاستفادوا شيئاً كثيراً • ثم أن ملوك الأسبان استعانوا بالعرب في دور تدهورهم وبعد سقوط دولتهم ، فكان لهم أبلغ أثر في الفن والثقافة والتنظيم • ونظم ملوك الأسبان حركة ترجمة عن العربية ، تشبه الحركة التي نظمها العرب للترجمة عن اليونان ، فاثرت في تنبيه الأفكار ، وبعث النهضة الأوربية في القرنين : الثالث عشر والرابع عشر ، حتى عد جماعة هذه الحركة ، نهاية العصور المظلمة في الغرب • وكانت



جنة العريف في حمراء غرناطة

طليطلة من أكبر مراكز الترجمة عن العربيـــة • وأنشئت في أشبيلية كلية عربية لاتينية ، درس فيها العرب العلوم ومنها الطب• فترجمت كتب الفلسفة العربية ، حتى صرح جماعة أن الفلسفة أخذت عن العرب • وقد أثرت فلسفة ابن رشد بصورة خاصة في الغرب ، وولدت حركات ثورية على تعاليم الـكنيسة •

وانتشر الـكثير من الأساطير العربية في الغرب ، وتأثر الأدب الأسباني بالأدب العربي ، وأثر الشـــعر الأندلسي وخاصة الموشح ، في شعراء فرنسة الجنوبية فنظموا على غراره •

وتأثر الأوربيون بالعرب في نظـام الفتوة والفروسـية ، والراجح انهم اقتبسـوه من العرب • وتأثر الموســيقى الغربي بالموسيقى العربي ، وأخـذت الأصوات المجســدة « النوطة الموسيقية » عنها كما أومأنا اليـه • وترجمت كتب العرب ، في الطب والرياضيـــات والتـــاريخ الطبيعي ، وكانت تدرس في الجامعات الأوربية عدة قرون •

وتأثر الغربيون تاثراً بليغاً ، بكتب الـكيمياء العربية ، ولا تزال كثير من الألفاظ الـكيميائية العربية المسـتعملة في العلم المذكور ، مستعملة في اللغات الأوربية الحديثة •

ويطول بنا الحديث ان أردنا أن نوضح أثر الجامعات العربية في نشوء الجامعات الغربية ، واثر الصناعات والنظم الاقتصادية العربية في الغرب •

ولعل فيما ذكرنا كفاية ، في توضيح فضل الحضارة العربية على الغرب ، وخدمات العرب الجليلة في تهذيب الانسانية ٠

والآن ننتقل الى ناحية أخرى تأثر بها الاوربيون أيضاً تأثراً كبيراً في الاندلس خاصة ، وهي الناحية العمرانية ، فقد ازدهر الفن الى جانب العلم والأدب في الأندلس ، وضارعت قرطبة في فخامة قصورها دار خلافة بغداد كما ألمعنا اليه سابقاً ٠

فن البناء

أخذ الأندلسيون فن البناء العربي في الشرق ، وتأثروا الى حد ما بالفن القوطي ، وخصوصاً في القوس التي تشبه حدوة الفرس ، ولكن الأندلسيين برعوا في تنويع الأقواس وتزيينها بصورة خاصة ، وكذلك في الأقبية التي تعتمد على عقود متداخلة تظهر ضلوعها متقاطعة ٠

جامع قرطبة

وأول عصر لتطور العمارة الأندلسية هو عصر الخلافة ٠ وأعظم آثاره جامع قرطبة الذي بدأ ببنائه عبدالرحمن الداخل ، وأتمه أبنه ، ثم استمرت التوسعات فيه خلال قرنين ٠ ويتميز بأقواسه ، التي يغلب عليها هيئة حدوة الفرس ، وبسواريه الجميلة التي يبلغ عددها ١٢٩٣ سارية ، وكانت الجدران مزينة بنقوش من الجبس أو الرخام بعضها كأغصان الشجر ، وبعضها على أشكال هندسية ٠ واعجب ما فيه صومعته أي المئذنة التي بنيت بضخام الحجارة ، فبلغ طولها الى محل المؤذن ٥٤ ذراعاً ، والى اعلى الرمانة الأخيرة ٧٣ ذراعاً ، وعرضها في كل تربيعة ١٨ ذراعاً ٠ وطول الجامع ٣٣٠ ذراعاً وعرضه ٢٨٥ ذراعاً ٠ ويبلغ عدد أبوابه الصغار والكبار (٢١) باباً ملبسة بالنحاس الأصفر ،

ـكل باب صنعة جميلة الا باب المقصورة ، فانه من الذهب ، وكذلك المحراب وما يليه فانه أجري فيه الذهب على الفسيفساء . وفيه من الثريات (المصابيح الكبيرة) مئتان وثمانون ثريا ، منها ثريات المقصورة من الفضة الخالصة . وكانت الثريا الوسطى وحدها تحمل نحواً من ١٠٠٠ مصباح . والخلاصة أنه كان مفخرة الأندلس وآية جميلة من آيات الفن العماري العربي .

قصر الحمراء

ومن بدائع البناء الأندلسي قصر الحمراء الذي ذكرناه قبل هذا وقد أنشيء على مساحة ٣٥ فداناً بين الجنان ، واستغرق بناؤه زهاء قرن ، واشهر أقسامه صحن الأسود ، وفي وسطه اثنا عشر أسداً من المرمر ، موضوعة على شكل دائرة ، وينبعث الماء من أفواهها على شكل فوارات . والقصر مزين بالزخارف الرائعة وعلى سقوفه صور ملونة على الجلـد ، تمثل مناظر الصيد والفروسية . وفي احدى قاعاته ، المعروفة بقاعة العدل ، صورة ملونة تمثل عشرة قضاة ، جلسوا على مقعد بيضي الشكل .

وفي القصر نقوش ذات مغزى مثل (لا غالب الا الله) ، وهو شعار محمد الأول الغالب الذي بدأ ببنائه سنة ٦٤٦ هـ = ١٢٤٨ م . والنقوش الأخرى للزخرفة والتزويق .



صحن الأسود في الحمراء

اسئلة عن الدولة الأموية
في الأندلس

١ - متى فتح العرب الأندلس أول مرة ، وكيف كان ذلك ؟

٢ - من أشهر القادة والأمراء والولاة الأوائل الذين حكموها ؟

٣ - كيف كان حكم العرب لأسبانية ، ومعاملتهم لأهلها ؟

٤ - ما الذي أضعف شأن الحكم الأموي الأول في أسبانية ، وكيف استطاعوا تأسيس دولة ثانية فيها ؟

٥ - الى كم دور يمكن تقسيم تاريخ الأمويين في الأندلس ، وما هذه الأدوار والأقسام ؟

٦ - ما الأعمال والاصلاحات المهمة التي قام بها الحكم الأول ؟

٧ - ما الأعمال والاصلاحات المهمة التي قام بها عبدالرحمن الداخل ؟

٨ - ما الأعمال والاصلاحات التي قام بها عبدالرحمن الثالث ؟

٩ - كيف كانت العلاقات السياسية والاجتماعية ، بين الدولة العباسية في العراق والفاطمية في مصر وشمالي افريقية ؟

١٠ - ما معالم الحضارة العربية في الأندلس ، ومتى ازدهرت ، وماذا كان من تأثيرها ونتاجها ؟

١١ – كيف قامت دكتاتورية بني عامر وما العوامل التي سهلت قيامها ؟

١٢ – ما الأسباب والعوامل التي أدت الى تدهور الخلافة الأموية ، وقيام ملوك الطوائف ؟ اشرح ذلك وعززه بالأمثلة .

١٣ – من بنو عباد وما الدور الذي فعلوه في تاريخ الأندلس ؟

١٤ – من المرابطون والموحدون وما الدور الذي قامت الاسرتان به في تاريخ الأندلس ؟

١٥ – من بنو الأحمر وما الدور الذي فعلوه في تاريخ الأندلس ؟

١٦ – عرف من يأتي وما يأتي بايجاز :–

السمح بن مالك الخولاني ، البربر ، بلاط الشهداء ، يوسف بن عبدالرحمن الفهري ، عبدالرحمن الغافقي ، وقعة الحفرة ، عمروس ، وقعة الربض ، يحيى بن يحيى الليثي ، الفارو ، ابن حفصون ، المصحفي ، طليطلة ، الحمراء ، الزهراء ، أبو عبدالله الصغير ، شنجول ، الزلاقة ، قشتالة ، السيد .

الفهرس

الباب الثالث

(دور الراشدين)

الفصل الأول

(خلافة الراشدين)

نتائج حروب الردة ، عمر بن الخطاب ، عنايته بالمسلمين ، تنظيمه العطاء ، اعتماده على العرب ، التنظيمات الادارية ، عماله وولاته، الديوان ، القضاء ، أمور أخرى. الواردات : الخراج، الجزية ، الزكاة ، العشر ، الأخماس ، عثمان بن عفان ، الشورى ، وصيته لعماله ، جمع القرآن الكريم ، الفتنة ، أسباب الفتنة ، علي بن أبي طالب ، أسس سياسته ، عنايته بأمر رعيته ، وقعة الجمل ، وقعة صفين ، التحكيم وظهور الخوارج ، استشهاد علي . ٦١ ـ ٨٠

الفصل الثاني

(توسيع الدولة العربية)

الرسول (ص) يبشر أمته بالفتح ، كلمة تمهيدية ، فتح العراق : غارات بني شيبان ، أبو بكر يوجه خالداً الى العراق ، الاستيلاء على الحيرة ، أبو بكر يوجه خالداً الى الشام ، القيادة للمثنى ، وفاة أبي بكر ، عمر يرسل الامداد الى العراق ، وقعة الجسر ، وقعة البويب ، وقعة القادسية ، فتح المدائن ، وقعة جلولاء ، فتح الجزيرة وغيرها . فتح فارس : محاولة العلاء بن الحضرمي لفتح فارس ، وقعة نهاوند ، اخضاع الري ، اتمام الفتوحات في خلافة عثمان . فتح الشام ومصر : توجه القوات الى الشام ، معركة وادي عربة ، خالد يعبر بادية الشام ، فتح بصرى ، أجنادين ، وقعة فحل ، فتح دمشق ، وقعة اليرموك ، تولية أبي عبيدة ، دور النساء العربيات ، اتمام فتح فلسطين ، فتح بقية بلاد الشام ، فتح مصر : وقعة عين شمس ، بابليون ، الاسكندرية ، بناء الفسطاط ، تولية ابن أبي سرح ، ثورة

الفصل الثالث

(دور ضعف الدولة الأموية وسقوطها)

الفصل الرابع

(الحضارة العربية في العصر الأموي)

الفصل الأول

(العصر العباسي الأول)

أبو العباس ، سياسته ، التخلص من مروان الثاني ، القضاء على ابن هبيرة ، قتل أبي سلمة الخلال استرضاء العلويين ، بناء الهاشمية ، ولاية العهد ، أبو جعفر المنصور : تمهيد ، ثورة عبدالله ابن علي ، التخلص من أبي مسلم ، ثورات فارسية ، العلويون ، ثورة محمد النفس الزكية ، قيام أخيه ابراهيم ، تنظيمات المنصور الادارية : الوزراء ، الجيش ، العمال ، القضاء البريد ، تحصين الحدود ، بناء بغداد ، محمد المهدي : سياسة الترضية، الزندقة ، ثورة المقنع ، الحرب مع البيزنطيين ، التنظيم الاداري ، العناية بالمرضى والمسجونين ، ولاية العهد ، أثر الترف ، الهادي ، الرشيد : فكرة عن الرشيد ، اتفاق البرامكة والخيزران ، الفتن الداخلية ، ثورة رافع بن الليث ، الثورة في شمالي افريقية، امارة الأغالبة ، الأدارسة العلويون ، ثورة يحيى بن عبدالله العلوي ، ثورة الخوارج في الجزيرة ، البرامكة قبل خلافة الرشيد ، البرامكة في عهده ، نكبة البرامكة ، الحرب مع البيزنطيين ، أسطورة شارلمان ، العلماء في عصر الرشيد ، ولاية العهد ، وفاة الرشيد ، الأمين والمأمون ، سياسة الأمين ، النزاع بين الأخوين ، شخصية الأمين ، الوجهة الفارسية في بلاط المأمون، الثورات العلوية على العباسيين، العهد للامام علي الرضا ، ثورة البغداديين وتعديل المأمون لسياسته ، تقريب آل طاهر ، ثورات في مصر ، الحرب مع البيزنطيين ، تنشيط الحركة العلمية ، نهاية العصر العباسي الأول .

٢١٢-١٨١

الفصل الثاني

العصر العباسي الثاني (دور السيطرة التركية)

الفصل الثالث

العصر العباسي الثالث (البويهيون)

الفصل الرابع

العصر العباسي الرابع (السلاجقة)

الفصل الثاني

(عصر الخلافة الأموية في الاندلس)

المراجع العربية

ان الرجوع الى المصادر الأولية ، والمراجع الثانوية ضروري للمدارس ، ليستطيع المدرس توضيح المشكلات ، ولينظم المناقشات .

وهذا ثبت بالكتب التي تفيد المدرس ، وهي مراجع عامة تفيد لمختلف الفصول ، ومراجع خاصة تفيد لفصول معينة :ـ

أولاً ـ المراجع العامة

الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك

اليعقوبي ـ التاريخ

المسعودي ـ مروج الذهب والتنبيه والاشراف

ابن خلكان ـ وفيات الأعيان

ابن الطقطقي ـ الفخري في الآداب السلطانية

ابن شاكر الكتبي ـ فوات الوفيات

ابن أبي الحديد ـ شرح نهج البلاغة

السيوطي ـ تاريخ الخلفاء

فيليب حتي ـ تاريخ العرب ، ترجمة محمد مبروك نافع

السيد أمير علي ـ مختصر تاريخ العرب

الخضري ـ محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية

ابن العماد ـ شذرات الذهب

محمد كرد علي ـ الاسلام والحضارة العربية

ثانياً ـ المراجع الخاصة :

أ ـ الباب الأول :

ابن الكلبي ـ كتاب الأصنام
المرزوقي ـ الأزمنة والأمكنة
الآلوسي ـ بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب
محمد عزة دروزة ـ عصر النبي وبيئته قبيل البعثة
سعيد الأفغاني ـ أسواق العرب
جرجي زيدان ـ العرب قبل الاسلام
محمد مبروك نافع ـ العرب قبل الاسلام
فيليب حتي ـ الفصل الأول من كتابه المذكور
محمد عبدالمعيد ـ الأساطير العربية قبيل الاسلام
جواد علي ـ تاريخ العرب قبل الاسلام

ب ـ الباب الثاني :

ابن هشام ـ السيرة النبوية
السهيلي ـ الروض الانف
المقريزي ـ امتاع الاسماع
ابن سعد ـ الطبقات الكبيرة
علي الحلبي ـ انسان العيون
محمد حسن هيكل ـ محمد
محمد حميد الله الحيدر آبادي ـ مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة .
تاريخ الشعوب الاسلامية ـ ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي

ج ـ الباب الثالث :

ابن سعد ـ الطبقات الكبيرة

البلاذري ـ فتوح البلدان

ابن قتيبة ـ الامامة والسياسة

الذهبي ـ تاريخ الاسلام

دائرة المعارف الاسلامية مادة « أبو بكر » و « عمر » و « عثمان » و « علي »

محمد كرد علي ـ الادارة الاسلامية في عز العرب

محمد حميد الله الحيدرآبادي ـ مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة أيضاً .

د ـ الباب الرابع :

البلاذري ـ أنساب الأشراف ، الجزء الرابع والجزء الخامس

ابن عساكر ـ التاريخ الكبير لدمشق

ابن قتيبة ـ الامامة والسياسة

الجهشياري ـ الوزراء والكتاب

الشابشتي ـ كتاب الديارات

دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة « بنو أمية »

أحمد أمين ـ فجر الاسلام

جبرائيل جبور ـ عمر بن أبي ربيعة ، الجزء الأول

هـ ـ الباب الخامس :

الفصل الأول :

الجهشياري ـ الوزراء والكتاب أيضاً

ابن قتيبة ـ الامامة والسياسة أيضاً

الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد ـ الجزء الأول خاصة

اليعقوبي ـ كتاب البلدان

ابن طيفور ـ تاريخ بغداد « الجزء السادس »

الدوري عبدالعزيز ـ العصر العباسي الأول

جميل نجلة المدور ـ حضارة الاسلام في دار السلام

أحمد أمين ـ ضحى الاسلام ـ الجزء الأول

و ـ الباب الخامس :

الفصل الثاني ، والثالث ، والرابع ، والخامس

ابن مسكويه ـ تجارب الامم

عريب ـ صلة تاريخ الطبري

ابن الجوزي ـ المنتظم

ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ

أبو شامة ـ « كتاب الروضتين في تاريخ الدولتين » وذيله

ابن دحية : النبراس

ابن الساعي ـ الجامع المختصر

الذهبي ـ المختصر المحتاج اليه من تاريخ بغداد

الاربلي ـ التبر المسبوك

ابن الفوطي ـ الحوادث الجامعة

الدوري عبدالعزيز ـ دراسات في العصور العباسية المتأخرة ـ

ز ـ الباب الخامس :

الفصل السادس ـ الحضارة

جرجي زيدان ـ التمدن الاسلامي

بارتولد ـ الحضارة الاسلامية

آدم متز – الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري
كولد زيهر – العقيدة والشريعة في الاسلام
دي بوير – تاريخ الفلسفة في الاسلام
لسترانج – بغداد في عصور الخلافة العباسية
غوستاف لوبون – الحضارة العربية
آرنولد وغيره – تراث الاسلام
حسن ابراهيم حسن – النظم الاسلامية
جبور عبدالنور – نظرات في فلسفة العرب
خليل طوطح – التربية عند العرب
ابن خلدون – تاريخه (ومقدمته)
المقدسي – أحسن التقاسيم الى معرفة الأقاليم
ابن حوقل – المسالك والممالك
المقريزي – شذور العقود في معرفة النقود
ابن جماعة – تذكرة السامع والمتكلم في تعليم العالم والمتعلم
ابن الاخوة القرشي – معالم القربة في أحكام الحسبة
الماوردي – الأحكام السلطانية

ح – الباب السادس :

المقري – نفح الطيب
المقري – أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض
البكري : الروض المعطار ، « صفة جزيرة الأندلس »
ابن بسام – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة .
اخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر
ابن جبير – تقييد السياحة (رحلته)